مدن وذكريات

رحلة بين الأمكنة والأشخاص

علاء محمود التميمي

الإهداء

إلى أسرتي التي كانت الحضن الدافئ والداعم المستمر في كل مراحل حياتي، وإلى أحبتي الذين شاركوني الأفراح والأحزان ووقفوا بجانبي في لحظات التحدي والنجاح، وإلى أصدقائي الذين كانوا رفقاء الدرب وصوتًا للفرح والذاكرة. ولكل من يقرأ كتابي، أهدي هذه الصفحات، آملاً أن تلامس كلماتي القلوب وتكون نافذة يطلون منها على رحلة العمر بما فيها من مدن وذكريات وأشخاص. إن هذه التجربة ليست مجرد سرد لحياتي، بل هي محاولة لبناء جسر من الحنين والصداقة والمحبة بيني وبين كل من اختار أن يرافقني عبر هذه السطور، فكل صفحة كتبتها تحمل أثرًا منكم جميعًا، وكل ذكرى تسكن بين الحروف هي امتداد لذكرياتكم في حياتي.

المحتويات

المقدمة

ليست هذه بداية مشواري مع الكتابة؛ فقد سبقت لي تجارب في التأليف باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية. غير أن تلك الكتب انشغلت بحياتي المهنية. كنت أكتب آنذاك بعقلٍ يزن الأبعاد والأرقام أكثر من قلبٍ يستعيد الوجوه والذكريات. بطريقته الخاصة، وتربطني بالأمكنة برباطٍ لا ينفصم. فالحياة المهنية لم تكن منفصلة عن الشخصية، بل كانت وجهًا آخر لها، وكلاهما شكّل دربي في الحياة.. أما هذا الكتاب، "مدن وذكريات، رحلة بين الأمكنة والأشخاص " فهو مختلف. إنه الأول الذي أسمح فيه لذاكرتي أن تتقدّم الصفحات، ولحياتي الخاصة أن تتحول إلى مادة للسرد. لم أشأ أن أكتب سيرة ذاتية تقليدية، ولا أن أنسج رواية متخيلة. أردته نصًّا ينهل من التجربة الشخصية، لكنه يتسع ليغدو رواية عن المدن والناس والزمن. الذاكرة بحرٌ لا يهدأ، أمواجه تتناوب بين الهدير والسكينة، وكل تفصيل فيها يطالب بمكانه في النص. لم يكن في وسعي أن أروي كل شيء، فانتخبت اللحظات الأعمق أثرًا، تلك التي شكّلت منعطفات في حياتي، ووزّعت ثِقل السرد على محطاتٍ تركت بصمة لا تُمحى. ومثلما صاغت مهنتي رؤيتي للعالم وجعلتني أقرأ المدن ككتب مفتوحة. مدن وذكريات ليس سجلًّا للرحلات ولا مرثيةً للماضي، بل هو محاولة للإمساك بخيوط متشابكة بين الأمكنة التي عبرتها والأمكنة التي عبرتني. هو صرخة

مشبعة بالحنين، واعتراف بأن ما تبقى في القلب أكبر بكثير مما يُمكن أن يُكتب على الورق.

لم أرد لهذا الكتاب ان يكون كتاب سفر، بل حوار مفتوحا بين المدن التي عشتها والذاكرة التي لم تغادرني.

لقد ولدت وعشت فترة طويلة في بغداد وأقمت وزرت مدنٍ أخرى كل مدينة مررت بها كانت فصلًا من حياتي، فقد وجدتُ في كل مدينة درسًا جديدًا في الذاكرة الإنسانية. كناب "مدن وذكريات، رحلة بين الأمكنة والأشخاص " هو رحلة عمر تمتد من بغداد إلى العالم، عبر سنوات الدراسة، ومراحل العمل، ومهمات المسؤولية، والهجرة. إنه محاولة لكتابة السيرة الذاتية بطريقة مختلفة لا من خلال التسلسل الزمني الجاف، بل عبر مسار لمدن طبعتني بملامحها، وأعطتني من روحها، وتركت في نفسي ما يتركه البرق في السماء أثرًا قصيرًا لكنه لامع. لم تكن الرحلة عندي عدًّا للمدن، بل اكتشافًا لنسخٍ جديدة من نفسي تولد مع كل سفر. فالعالم كتاب، وكل مدينة صفحة، وأنا كنتُ القارئ والكاتب معًا. قسمتُ فصول الكتاب لا بحسب القارات ولا الحدود، بل وفق ما تركته المدن في داخلي من أثر مدن البدايات في بغداد وباريس، مدن الهجرة المؤقتة والتقاط الأنفاس في عمّان، أوكلاند، أبوظبي والسكينة في مكة والمدينة، و الاستقرار في تورونتو، ثم مدن التاريخ في موسكو، أثينا، وارسو، طوكيو، لندن، و مدن

أخرى عبرتها سريعًا كومضات عابرة، في ريو دي جانيرو وبوينس ايريس وهافانا و مدن البلقان والبحر المتوسط، وأخيرًا محطات تركت بصمتها كـ مراكش وتونس، ودمشق، و القاهرة وصنعاء وباكو وكذلك مدن المؤتمرات والزيارات الرسمية في هذه المدن لم أكن سائحًا ولا عابرًا، بل صوتًا لبغداد وهي تبحث عن مكان لها بين عواصم العالم. فالمؤتمرات لا تُغيّر المدن وحدها، بل تغيّر من يقف على منصاتها أيضًا.

بغداد الذاكرة والبداية

بغداد لم تكن مجرد مدينة ولادتي، بل كانت حضن البدايات ومسرح القصص الأولى. بين أزقتها تشكّلت ملامح طفولتي، وعلى ضفاف دجلة كبرتُ أحلامي الأولى، ومنها انطلقت خطواتي نحو مسيرتي المهنية. بغداد مدينة لا تترك أبناءها كما كانوا؛ فهي تُشبه كتابًا مفتوحًا على الألم والفرح معًا، تُعلّمك الصبر بقدر ما تُعلّمك الحلم. فيها اكتشفت أن المدن ليست جدرانًا وشوارع فقط، بل ذاكرة حية تسكنك مهما ابتعدت عنها . لكل إنسان مدينة تُشبِهه، لا فقط في ملامحها، بل في تكوينه الداخلي، في طريقة تفكيره، في نظرته إلى العالم. بالنسبة لي، لم تكن بغداد مجرد مسقط رأس، بل كانت المدرسة الأولى، والمختبر الأول، والمسرح الذي تشكّلت عليه شخصيتي، وانفتحت فيه بوابات الأسئلة الكبرى. أن تولد في بغداد يعني أن تنشأ على أطلال حضارات عظيمة، أن تتربى في مدينة كانت ذات يوم عاصمة الدنيا ومرآة للفكر الإنساني، مدينة تنفست المعرفة، احتضنت الشعراء، وشهدت تناوب المجد والانكسار. من أزقّتها، الى جسورها بين الكرخ والرصافة، من مدرستي الابتدائية، إلى أروقة الجامعة، ومن ضوء الشمس الذي يتسلّل عبر شبابيك البيوت إلى صدى الأذان في الأحياء القديمة كل شيء في بغداد كان يحمل نغمة خاصة، نغمة بقيت ترنّ في أعماقي، أينما ذهبت

ولدت في بغداد خلال العقد الخامس من القرن الماضي في عائلة متوسطة الحال وكنت الخامس في الترتيب في عائلة مكونة من خمس بنات وثلاثة أولاد. وُلِ د والدي عام ١٩١٤ في أواخر العهد العثماني، وعاصر التحولات



الكبرى التي رافقت ولادة المملكة العراقية. كان شخصية مثقفة، بعيدة عن التزمت الديني، منفتحة على الحياة وقيمها الإنسانية. تزوّج من والدتي في نهاية الثلاثينات، وفي بيتنا العائلي الذي جمعنا، عشت طفولتي بين جدران يشع منها الحب والحنان. ذلك البيت لم يكن مجرد مأوى، بل كان فضاءً تربيةً على القيم الأصيلة، وتشرّبت منه روح المسؤولية والانفتاح، وما زلت أحمل بصماته في حياتي ومساري حتى اليوم. كانت المدينة ما تزال وادعة، تنبض بجمال بسيط وهدوء مطمئن. لم تكن شوارعها مكتظة بالضجيج بعد. ولا قد أنهكها الانفجار العمراني والسياسي الذي سيأتي لاحقاً. كانت بغداد الخمسينات مدينة تُشبه طفولتي: صافية، هادئة، ومليئة بالمفاجآت الصغيرة. شكّلت بغداد ملامحي الأولى، ورافقت طفولتي وصباي. في شوارعها تعلمت المشي، وفي مقاهيها عرفت معنى الجلسة البغدادية، وعلى ضفاف دجلة عرفت وقع خطواتي الأولى.

ما بقي في ذاكرتي من تلك الفترة لم يكن السياسة، بل صور أكثر دفئاً، صور الحياة اليومية في بيت جدي في الكرادة الشرقية، قرب حسينية



عبد الرسول علي[1]، حيث يتلألأ نهر دجلة على مقربةٍ من الدار، شاهداً صامتاً على ما جرى .أتذكر التلفزيون الصغير في بيت جدي، صندوقاً خشبياً عجيباً يضيء بالصور، كان يجمعنا في الأمسيات حوله. وأتذكر والدي، يأخذني للمشي على شارع أبي نؤاس، حيث النهر يرافق الخطوات، والمقاهي تفتح أبوابها للرواد والعابرين. كان أبي يعرف قيمة تلك النزهات: أن نرى المدينة، أن نحفظها في عيوننا .م جاء عام ١٩٥٨. كنتُ طفلاً حينها، لا أذكر تفاصيل الحدث الكبير الذي قلب نظام الحكم رأسًا على عقب، لكنني أحمل بقايا صورٍ متقطعة لوجه خالي سليم وأخي شاكر الفرحانة ووجوم وجه جدي ووالدي المندهشة، وبكاء والدتي على قتل الملك

---

[1] تتصل الحسينية بعائلة عبد الرسول علي خان الحسيني (1929-1983)، فقيه وشاعر عراقي

فيصل الثاني، وأحاديث الكبار التي لم افهمها حينها. تغيّرت المدينة بعد ١٩٥٨، تغيّرت الوجوه والمباني والأنظمة. لكن بغداد الخمسينات والستينات تبقى محفورة في ذاكرتي كعطرٍ قديم لا يزول مدينة وادعة جميلة، تشبه حلم طفولة لم يكتمل.

لطالما جذبتني شوارع بغداد بتناقضاتها العمرانية والاجتماعية، مما دفعني للتساؤل عن أسباب اختلاف الأحياء وتأثير البنية التحتية. اخترت دراسة الهندسة لفهم بناء المدن، ودرست في إعدادية الكرخ ثم كلية الهندسة، وتخرجت عام ١٩٧٢. شارع الرشيد كان رحلتي الدائمة مع صديقي فريد. ننطلق من باب المعظم، حيث كلية الهندسة، ونسير بخطى واثقة حتى نصل الباب الشرقي. كان الشارع مكتبة مفتوحة ومرآة لوجه بغداد الحديث: محالّ عريقة، مسارح، مقاهٍ، وبشر من كل الطبقات. كنا نتوقف عند أورزدي باك[2]، (Orosdi-Back) ندخل ونصعد إلى طابقه الثاني، حيث ال مقهى المطل على دجلة. هناك جلسنا غير مرة



[2] متجر أورزدي باك هو من أقدم محلات "المولات" أو "الأسواق المركزيّة" في بغداد. أُفتتح فرعه في بغداد في شارع الرشيد – وهو الشارع التجاري الرئيس في بغداد – في بدايات عشرينات القرن العشرين تقريباً

نحتسي عصير البرتقال الطازج، نطلّ على النهر وكأننا نملك بغداد كلّها .من هناك كانت خطانا تقودنا إلى شارع النهر، حيث محلات الصاغة تلمع بضوء الذهب، والمتاجر تعرض أقمشة وملابس فاخرة. ندخل سوقاً مكتظاً، صاخباً بالحركة، ونعبر الجسر نحو الكرخ، صوب محالّ لبيع الملابس والحاجيات المنزلية والتحف، حتى نصل جسر الشهداء. تلك المسيرة لم تكن مجرد نزهة، بل درساً في قراءة وجه المدينة، من شرقها إلى غربها، من الرشيد إلى الكرخ، حيث يلتقي القديم بالجديد.

بين الطفولة والمدينة

حين أستعيد تلك الأيام، أرى بغداد في صور متتابعة بيت جدي على ضفاف دجلة، شارع أبو نؤاس [3]الذي علّمني معنى المشي على حافة النهر، شارع الرشيد وسوق الكرخ بما فيه من حياةٍ متدفقة. أرى طفولتي متشابكة مع ملامح المدينة، كأنني لم أكبر إلا بقدر ما كبرت بغداد ذاتها.

الزمن البغدادي الجميل: الستينات والسبعينات

دخلت بغداد عقد الستينات وهي مدينة في طور النهوض، متجانسة في ملامحها، متآلفة في نسيجها الاجتماعي والعمراني. لم تكن بعد قد تفرّقت أحياؤها إلى جزر معزولة، ولا انشقت طرقاتها إلى حواجز وأسوار. كانت

---

[3] سُمِّي الشارع تكريماً للشاعر العباسي أبو نُؤاس والذي توفي عام 813 م

مدينة واحدة، يتنقل أهلها بين الكرخ والرصافة وكأنهم يعبرون من غرفة إلى أخرى في بيت كبير. في الستينات، بدأت بغداد تتزين بمبانٍ حديثة، شوارعها تتسع، وواجهاتها المعمارية تجمع بين الطابع البغدادي التقليدي والنَفَس العصري. العمارات ارتفعت عند شارع السعدون والكرادة، وبدأت الأحياء الجديدة تمتد نحو الأعظمية والمنصور واليرموك. لم يكن التوسع العمراني فوضوياً بعد؛ بل كان يعكس رؤية لتحديث المدينة وربطها بالعالم.

كان البغداديون يعيشون بانسجام. الجيران يتعارفون، الأسواق مفتوحة للجميع، والمقاهي على امتداد شارع الرشيد وأبي نؤاس تمثل فضاءات للتلاقي بين مثقفٍ وفنانٍ وتاجرٍ وعابر سبيل. في الأعراس والمناسبات، تختلط العائلات دون أن تُسأل عن أصلها أو مذهبها. كانت المدينة تحتضن الجميع، وتُشعِر أبناءها أنهم جزء من نسيج واحد.

مع السبعينات، ازدادت بغداد جمالاً. مشاريع عمرانية كبيرة انطلقت: شوارع واسعة، فنادق كبرى مثل الرشيد وبابل، شارع أبو نؤاس ازدهر بمطاعمه ومقاهيه المطلة على النهر، فيما بقي شارع الرشيد قلباً نابضاً للحياة التجارية والثقافية. كانت شوارعها وجسورها وأسواقها تنسج نسيجاً متماسكاً. لم يكن هناك شعور بالفوارق أو القطيعة. كلّ بغداد لأهلها جميعاً.

رمزان للذاكرة... الجندي المجهول ونصب الحرية



بعد التغيير من الملكية إلى الجمهورية عام ١٩٥٨، كانت بغداد كمن يغيّر مرآته ليشهد وجهه بوضوح جديد. في تلك المرآة برز نصبان شكّلا جزءًا من وجداني، وهما نصب الجندي المجهول في ساحة الفردوس، الذي صمّمه المعماري رفعت الجادرجي سنة ١٩٥٩. كان قوسًا خرسانيا حديثًا، بسيطًا ورشيقًا، ينهض وفي داخله شعور بالانحناء الأمومي على شهيدٍ غائب. لم يكن كتلة خرسانية صماء، بل إيماءة صامتة للتضحية. كنتُ أستشعر عنده مهابة خاصة؛ كأنه وقفة صمت في قلب العاصمة. ظلّ شاخصًا هناك إلى أن أُزيل في مطلع الثمانينات ليحلّ محله تمثال جديد، وبإزالته تبدلت ذاكرة المكان، وتبدلت معه رمزية الساحة.



النصب الثاني هو نصب الحرية في ساحة التحرير؛ لوحة برونزية مفتوحة على سماء بغداد، نحتها الفنان جواد سليم من قلبه ومن خياله، فصارت روايةً تُقرأ بالعيون قبل الكلمات. كل شخصية من شخصيات الجدارية كانت تحكي عن شعبٍ يثور ويأمل ويواصل

الطريق. كنا نمر من هناك فنشعر أن الجدارية تهمس لنا عن معنى الكرامة وعن مستقبلٍ يُراد لنا أن نعيشه. لقد أصبح المكان مدرسة بصرية، وملتقى للمسيرات والتجمعات، ورمزًا عصريًا لهوية بغداد. هاتان العلامتان العمرانيتان لم تكونا مجرد معالم فنية، بل كانتا جزءًا من هوية بغداد المتجانسة في ستيناتها وسبعيناتها. مثل الجسور التي توحّد الكرخ بالرصافة، وحّدتا ذاكرة البغداديين. علّمتانا أن المكان ليس حجارةً فحسب، بل لغة تتكلم بها المدينة مع أبنائها، وتغرس فيهم شعور الانتماء.

تعلمت في وقت مبكر أن التنوع يشكل قيمة مضافة وليس تهديدًا، وأن الاختلاف يمكن أن يساهم في بناء مجتمع متماسك. لاحظت تفاعل العرب والأكراد والتركمان والمسيحيين والمسلمين جميعًا في فضاء مشترك وتحت مظلة ذكريات واحدة، وكان ذلك بمثابة أولى خبراتي في مفاهيم التعايش والتعددية.

ذاكرة المدن بين مطرقة السياسة ومعول الهدم

حين أُزيل نصب الجندي المجهول في ساحة الفردوس مطلع الثمانينات، بدا الأمر وكأنه مجرد قرارٍ إداري لاستبدال معلمٍ بآخر. لكنني، مثل كثيرين من أبناء جيلي، شعرت أن بغداد فقدت قطعة من ذاكرتها. لقد كان ذلك النصب رمزًا لمرحلة تاريخية، ونتاج رؤية فنية ومعمارية عميقة، ومع ذلك

هُدم بقرار سياسي لا يراعي أن المعالم لا تُقاس بمدى ارتباطها بنظامٍ أو حقبة، بل بقيمتها الفنية والرمزية..

إن إزالة الشواهد العمرانية في بلدي العراق لم تكن حادثة معزولة. فمنذ منتصف القرن العشرين، اعتدنا مع كل تغيير سياسي أن تُزال آثارٌ ويُمحى تراثٌ، وأن تُستبدل أسماء الشوارع والجسور والمدارس والمستشفيات. ما أن يُسقط نظام حتى يسقط معه جزء من ملامح المدينة. تتغير اللافتات، تُحطم الرموز، ويُعاد تشكيل المشهد بما يتلاءم مع الخطاب الجديد. لكن المدينة، في جوهرها، ليست ملكاً للحاكم ولا لنظامٍ عابر، بل هي ذاكرة جماعية لأبنائها. حين نُهدم نصباً أو نُغير اسم شارعٍ ضاربٍ في الوجدان، فإننا لا نُعيد كتابة التاريخ، بل نقطع أوصاله ونربك ذاكرة. الآثار ليست ملكية سياسية، بل شواهد حضارية. وهدمها خطأ لا يقل خطورة عن هدم بيتٍ أثري أو كنيسة أو جامع قديم. في بغداد، أصبحنا نعيش في مدينة تُعاد صياغتها مع كل سلطة جديدة، فيضيع على الأجيال اللاحقة أن ترى طبقات التاريخ متراكبة كما في مدن العالم العريقة. فباريس أو لندن أو روما لا تُزيل تماثيلها ومعالمها مع تغيّر الأنظمة، بل تتركها لتروي تاريخها بحلوه ومرّه. أما نحن، فقد غلبت علينا عقلية القطيعة، فصرنا نهدِم لنتبرأ من الماضي، لا لنضيف عليه ونواصل مسيرته.

إنني أكتب هذا ليس لمجرد الحنين، بل لأقول للجيل الجديد: المدينة ذاكرة، والذاكرة ملكٌ لكم جميعاً، وليست ملكاً لنظامٍ سياسي عابر. فلا تسمحوا أن يُمحى تاريخكم مع كل تبديل في الحكم. فالمكان الذي يُغيّب ماضيه يُضيّع مستقبله أيضاً. فالمدينة بحاجة إلى ذاكرة ثابتة، إلى شواهد تبقى مهما تغيّرت الظروف. فالمدينة بلا ذاكرة ليست سوى جدران صامتة، لا روح لها ولا سردية جامعة.

بعد شهرين من بداية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨٠، غادرتُ بغداد متوجهاً إلى فرنسا لإكمال دراسة الدكتوراه في الهندسة. كانت بغداد آنذاك في أوجها، تتزين بمشاريعها العمرانية الكبرى، وتعيش إيقاع مدينة حديثة تنفتح على العالم. هناك، في باريس، تابعت أخبار الوطن من بعيد، أقرأ عن الحرب التي اندلعت مع إيران وأسفرت عن خسائر بشرية ومادية كبيرة، وأنا غريب القلب والروح، أستعيد صور شوارع الرشيد وأبو نؤاس بذاكرة مثقلة بالحنين. حين عدتُ عام ١٩٨٥ بعد نيل الدكتوراه، وجدت بغداد التي تركتها في أوجها قد تغيّرت. كانت الحرب قد تركت بصماتها الثقيلة على ملامحها وعلى ناسها. المباني التي عرفتُها لا تزال قائمة، لكن خلف واجهاتها كان ثمة تعبٌ عميق، وحزن يتسرب من تفاصيل الحياة. اليومية. عندها أدركت أنني لم أعد إلى المدينة نفسها، بل إلى مدينة أخرى أنهكتها الحرب.. وفي خضم هذه السنوات، بدأت حياتي الشخصية تتشكل أيضًا،

ففي عام ١٩٨٤ تزوجت، ثم رزقت بابني حسين في نهاية ١٩٨٧، الذي أضاف معنى جديدًا لعلاقتي بالأبوة وب بغداد، فصارت المدينة أقرب إليّ، لأنها وطن جذوري وذكرياتي.



توقفت الحرب مع إيران في عام ١٩٨٨، وبعد أقل من عامين من وقف إطلاق النار بين العراق وإيران عقب حرب استمرت ثماني سنوات وأسفرت عن خسائر بشرية ومادية كبيرة، دخل العراق في نزاع جديد إثر احتلال الكويت. أعقب ذلك تدخل التحالف الدولي لإخراج العراق من الكويت، مما أدى إلى تدمير أجزاء واسعة من البنية التحتية، وتلاه فرض حصار اقتصادي في التسعينات. تضاعفت الطوابير في الأسواق الفارغة، وغابت الكهرباء لساعات طويلة، وندرَت الأدوية. توقفت المشاريع



العمرانية، وتهالكت الشوارع، وأُطفئت أنوار المسارح والمكتبات. ومع ذلك، بقيت المدينة تقاوم بأعراس صغيرة، ومقاهٍ لا تزال تستقبل روادها، وأصوات شعر وموسيقى تنبعث خافتة من البيوت. لقد صارت بغداد مدينة تتحدى موتها البطيء، وتتشبث بالحياة بتفاصيل صغيرة. أكتب هذه الصفحات وأنا أستعيد وجوه أحبّتي الذين شاركوني تلك الأيام. أمي التي فقدتها عام ١٩٨٩، وأبي الذي رحل عام ١٩٩٢، وأخي شاكر الذي غادرنا إلى بارئه مبكراً عام ١٩٩٧. جميعهم كانوا جزءًا من روحي ومن ذاكرة المدينة. لم يكن فقدانهم مجرد خسارة شخصية، بل كان كأن بغداد نفسها تفقد شيئًا من دفئها مع كل رحيل. أروي فيها كيف عاشت بغداد في



وجداني، وكيف تركت بصماتها في حياتي، كما تركت في وجوه أجيال كاملة.

هكذا، تحولت بغداد خلال أربعة عقود من مدينة وادعة متجانسة في الخمسينات إلى مزدهرة في السبعينات، ثم مثقلة بالحرب في الثمانينات، وأخيراً محاصرة في التسعينات. إنها المفارقة القاسية: مدينة تصمد لأنها

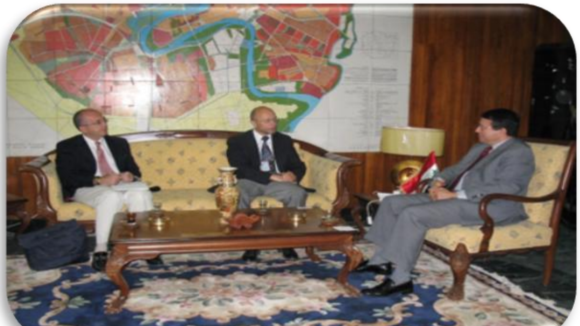
ابنة حضارة تمتد لآلاف السنين، لكنها تنكسر حين يُفرض عليها أن تعيش خارج مسارها الطبيعي، تحت ضغط السياسة والحروب والحصار. ولأجل ذلك، أقول للجيل الجديد: بغداد ليست مجرد مكان، إنها ذاكرة وصبر وإرادة. حافظوا على ذاكرتكم، فهي السلاح الأقوى في وجه كل محاولات المحو والانكسار. خلال تلك الفترة، عملت في منظمة الطاقة الذرية العراقية والتدريس في الجامعة المستنصرية في بغداد.

منتصف عام ١٩٩٦ غادرتُ بغداد مثقلاً بذكريات مدينتي وأحلامي المؤجلة. كانت لحظة الرحيل فصلًا جديدًا في حياتي، دفعني إلى العيش في مدن أخرى لم أختَرها بقدر ما اختارتني الظروف لها. لكن القدر لم يُرد لي أن أبقى بعيدًا. ففي عام ٢٠٠٤، عدتُ إلى مدينتي التي لم تفارقني يومًا، وعدتُ لأجدها مثقلة بخراب السنين، تنتظر من يمد لها يدها لتنهض من جديد. حين انقشع غبار الدكتاتورية التي خيّمت على العراق لعقود، بدا كأن بابًا جديدًا انفتح أمام العراقيين. أحزاب تتزاحم تحت شعار الديمقراطية، وأحلام بإعادة بناء الدولة على أسس حديثة، وكأن التاريخ منح بغداد فرصة ثانية كي تستعيد روحها. لكن سرعان ما تبيّن أن التحول لم يكن بالبساطة التي ظنّها الكثيرون. فغياب الكفاءات المهيأة، والصراع بين القوى القادمة من المنفى، والتشبث بالماضي المليء بالأساطير والانقسامات، جعل المشهد أكثر تعقيدًا مما توقَّعه الناس. كنتُ شاهدًا على

تلك المرحلة المفصلية من موقع المسؤولية. وبعد انتخابي أمينًا لبغداد، لم أصل إلى منصب أمين بغداد عبر قرار حاكم أو توصية متنفذ، بل جئت بانتخابات مجلس المدينة عام ٢٠٠٤، لأجد نفسي في قلب العاصمة التي أنهكها الخراب والحصار والحروب. لم تكن التجربة سهلة، بل كانت صراعًا دائمًا بين الرغبة في البناء والواقع المليء بالمعوّقات. عرفتُ حينها أن بغداد بحاجة إلى أكثر من مشاريع عمرانية؛ كانت بحاجة إلى أن تستعيد الأمل، إلى أن تشعر بأن الأمن والسلام ممكنان من جديد. وها أنا أكتب هذه الصفحات بعد مضي السنين، لا لأجل تسجيل تفاصيل منصب عابر، بل لأستحضر لحظة إنسانية كبرى. لحظة اختلط فيها الحلم بالألم، والمسؤولية بالأمل، حيث تعلّمتُ أن طريق بغداد لن يُرسم إلا على أيدي أبنائها، مهما طال الانقسام أو تعثّر المسار. لقد وجدت نفسي وسط معركة من أجل تثبيت هوية المدينة، في مواجهة جماعات لم تعبأ بتاريخها ولا بذاكرة أجيالها، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تطفئ جذوة الطموح الكامنة فيها. حين دخلتُ مكتبي الجديد كأمين لبغداد في ربيع عام ٢٠٠٤، كان الأمل يملأ صدري. كنتُ أرى في المدينة وجهًا آخر غير الذي تركته عند مغادرتي بغداد ١٩٩٦؛ كنتُ أرى ظلَّ دار السلام القديمة، مدينة الخلافة والأنهار والبيوت العامرة، لكنني وجدتُها مثقلةً بخراب السنين. لقد تحوّلت بغداد إلى مدينتين متجاورتين لا تلتقيان: بغداد صدام، حيث القصور والأنصاب والمجد الكاذب، وبغداد الناس، بأحيائها المتعبة وشوارعها

الغارقة في الإهمال. أدركتُ أن المهمة التي أُنيطت بي ليست إدارية فحسب، بل كانت محاولةً لإعادة الروح إلى مدينةٍ أنهكها الاستبداد والحروب. كنتُ أريد أن أفتح أبواب بغداد للعالم، أن أجعلها نموذجًا عربيًا وإسلاميًا في العمران والخدمات والثقافة وأن أستعيد لها مكانتها كوجه العراق الأول. لكن العنف الذي اجتاحها بعد سقوط النظام، واستهداف كل محاولة للبناء، كان أشبه بجدار يقف في وجه كل شيء. خطوة .

في عام ٢٠٠٤، اجتاحت بغداد موجة عنف جديدة لم تكن غريبة عن ذاكرة المدينة المثقلة بالحروب، لكنها جاءت هذه المرة أكثر قسوة حين استُهدفت كنائس المدينة بسيارات مفخخة، وسقط ضحايا أبرياء من أبناء الطائفة المسيحية. هؤلاء المسيحيون الذين ظلوا عبر قرون طويلة أحد أعمدة النسيج العراقي، وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة الخوف والقلق، ليس فقط على حياتهم، بل على وجودهم في بلد اشتهر بتنوعه وتعدد أديانه ومذاهبه. لم يكن الاعتداء هجومًا على الحجر وحده، بل كان محاولة للنيل من ذاكرة وطنٍ طالما





صورة جماعية مع الموظفين المسيحيين خلال احتفالات أعياد الميلاد في بناية أمانة بغداد عام 2004

احتضن الجميع، وحافظ على روح التعايش. وبصفتي أمينًا لبغداد في تلك المرحلة، كان واجبي أن أكون قريبًا من جميع أبناء المدينة، وأن أؤكد أن بغداد ليست ساحة للفتنة، بل بيت واحد يتقاسم جدرانه المسلم والمسيحي معًا. لهذا استقبلت عددًا من

وظفي أمانة بغداد في مكتبي، وجلست بينهم أستمع إلى مخاوفهم وأشهد على مزيج القلق والإصرار في وجوههم. كان ذلك اللقاء بمثابة رسالة مضادة لصوت الانفجارات، رسالة تؤكد أن المواطنة تُقاس بالانتماء إلى بغداد وليس بالدين. في أجواء اللقاء، احتفلنا بالأعياد ووزعنا الهدايا البسيطة على الموظفين المتفوقين، محاولةً لصناعة لحظة فرح في زمن صعب.

بقيت تلك اللحظات محفورة في ذاكرتي، لا بوصفها موقفًا إداريًا فحسب، بل كشاهد على قدرة العراقيين على الالتقاء حول فكرة واحدة هي أن بغداد تتسع للجميع، مهما حاول الإرهاب أن يفرقهم.

باريس من هنا، بدأت الرؤية

باريس لم تكن مجرد مدينة أقمتُ فيها خلال دراستي للدكتوراه، بل كانت مدرسة كبرى أعادت صياغة رؤيتي للحياة وعملي المهني. في شوارعها الجامعية ومكتباتها العريقة تفتّحت أمامي أبواب العلم، وفي مقاهيها ومعارضها تعلّمت أن للفن والأدب لغةً أخرى لا تقل عمقًا عن لغة الهندسة والرياضيات. كانت باريس فضاءً يختلط فيه الفكر بالجمال، الصرامة الأكاديمية بسحر الإبداع. ومن هناك خرجتُ وأنا أحمل في داخلي يقينًا بأن المدن ليست أماكن للسكن فقط، بل معامل تُصهر فيها الأرواح والعقول لتخرج أكثر نضجًا وانفتاحًا على العالم.

تُعد بغداد وباريس محطات أسهمت في تشكيل منظوري وتطوير رؤيتي للحياة، حيث اكتسبت من خلالها القدرة على التأمل والتحليل بمنظور أشمل.

في صباح خريفي من عام ١٩٨٠، بينما كانت قذائف الحرب تزمجر على الحدود الشرقية، وجدتُ نفسي أعبر صحراء الأردن براً، محمّلاً بحقيبةٍ ثقيلةٍ من الأحلام وخريطةٍ للنجاح. كانت بغداد تُغلق أبوابها واحدة تلو الأخرى، فمطارها الشاهق تحوّل إلى هدفٍ محظور، فسلكتُ طريقاً ملتوياً يبدأ من عمّان وينتهي في باريس، حيث سأصنعُ مصيري بيدي. لم تمنحني

باريس سوى يومين من الراحة، قبل أن تُقدّم لي مفاجأتها، ستكون رحلتي التعليمية في ليون،

مدينة ليون(Lyon)

تقع ليون في قلب جنوب شرق فرنسا، عند التقاء نهري الرون والسون، وهي عاصمة إقليم أوفياني–رون أل. Auvergne- Rhone -Alpes مدينة عُرفت منذ القدم بكونها مركزًا للتجارة والحرير، ثم أصبحت لاحقًا منارات للعلوم والفنون والطهو الفرنسي، قبل أن تتحول في زماني إلى ورشة نابضة بالحياة الجامعية والثقافية. كنت طالبًا في كلية الهندسة في مدرسة الطرق والبنى التحتية ENTPE الواقعة في ڤو أون ڤلان (Vaulx-en-Velin)، وهي ضاحية. على أطراف ليون، لكنها تحمل بين شوارعها قصة فرنسية كاملة عن التحول الاجتماعي، العمراني، والهجرة التي تتجاوز ما يُقال في قاعات المحاضرات. ليون مدينةٌ تنساب كما ينساب نهران في جسدٍ واحد، المدينة الواقعة في قلب فرنسا، حيث يلتقي نهر



الرون بنهر السون، كما تلتقي ال فكرة بالتاريخ، والعقل بالحسّ. منذ اللحظة الأولى، شعرت أن ليون لا تشبه المدن الكبرى. ليست متغطرسة ولا تلهث خلف

الأضواء. كانت مثل أستاذ حكيم لا يرفع صوته، لكنه يترك فيك الأثر البعيد. مدينة تقرأك وأنت تمشي في شوارعها، وتعيد صياغتك دون أن تفرض عليك شيئًا. المدينة القديمة Vieux Lyon كانت بمثابة متحف مفتوح، تختبئ فيه الأزقة المرصوفة بالحجر، والممرات المسقوفة التي تُسمى ترابيول، (Traboules)وتخبّئ خلف جدرانها أسرار نسّاجي الحرير الذين عاشوا هنا يومًا، وواجهوا العالم بخيط وإبرة. وهي ممرات داخلية بنيت منذ القرون الوسطى، تسمح بالانتقال من شارع إلى آخر عبر المباني نفسها كانت تُستخدم في البداية لنقل المياه والبضائع (خصوصًا الحرير الذي اشتهرت به ليون) بعيدًا عن المطر والبرد وخلال الحرب العالمية الثانية، استعملها المقاومون الفرنسيون كممرات سرية للاختباء والتنقل. كنت أتجول في تلك الأزقة كما يتجول قارئ بين صفحات رواية. كل ركن يحمل طيفًا من قرن مضى، وكل نافذة تطل على حكاية. وفي عطلات نهاية الأسبوع، كنت أذهب إلى تَلّ فورڤيير (Fourvière)، وهو أشبه بعرش يطل على المدينة كلها ويقف شامخًا غرب نهر السون، ويربط بين الماضي الروماني العريق والروح الدينية والفنية التي صنعت هوية ليون، مدينة متدرجة في الذكرى والبصيرة. هناك، بين بقايا المسرح الروماني والكنيسة البيضاء، كنت أطرح على نفسي الأسئلة الكبرى: كيف تبقى المدينة حيَّة رغم قرونٍ من التغير؟ كيف تحافظ على ذاكرتها دون أن تتوقف عن التغيير؟ كانت الحياة الطلابية غنية. كنا نناقش قضايا البنية

التحتية، لكن في المقاهي البسيطة قرب الجامعة، كنا نخوض في السياسة، والفلسفة، والهوية. كانت ليون مدينة تتسع للفكر، لا تصادره. مدينةٌ تمنحك الوقت للقراءة، للصمت، والتفكير. في الصباحات المبكرة، كنت أستقل الحافلة من ڤو-أون-ڤلان نحو قلب المدينة. تمر عبر أحياء سكنية هادئة، ثم تفتح النافذة على مشهد ضفتي الرون والسون، حيث تنعكس الأبنية العتيقة على صفحة الماء مثل ذكرى ترفض أن تغيب هناك، أدركت أن المدن الكبرى لا تُقاس بشوارعها العريضة، بل بقدرتها على احتواء التنوع دون أن تُفقده معناه. عشت في ليون عامًا كاملاً، لكنه كان كافيًا ليعيد ترتيب نظرتي للهندسة، للمدن، ولنفسي. تعلّمت أن المعمار لا يكون ناجحًا إلا إذا احترم الذاكرة، وأن التخطيط الحضري ليس خطوطًا على ورق، بل أنسجة بشرية تتفاعل مع المكان والزمان. غادرتُ مدينة ليون بعد اجتيازي عقبة اللغة الفرنسية، في صباحٍ خريفي، وكانت أوراق الأشجار تتساقط على ضفاف الرون كما لو أنها تهمس بوداع طويل. في ليون، لم أكن مجرد عابر طريق، بل كنت تلميذًا يتعلم من كل شارع ومن كل حجر. كنتُ قد خرجت من تلك المدينة أكثر وعيًا بالزمن، وأكثر إدراكًا لقيمة الصبر والمعرفة، وأكثر إيمانًا بأن المدن العظيمة ليست تلك التي تدهشك في يومك الأول، بل التي تُعلّمك كيف تنظر للحياة بعمقٍ أكبر، وكيف تستخلص من تفاصيلها اليومية دروسًا تبقى معك طويلًا.

مدينة رين (Renne)

وجهتي التالية كانت مدينة رين، هي عاصمة إقليم بريتاني Brittanyفي شمال غرب فرنسا، وهي مدينة تحمل ملامح مختلفة تمامًا عن ليون. هنا، يختلط النسيم الأطلسي برائحة الأبراج العتيقة والأسوار التي تروي حكايات القرون الوسطى. كان الهواء أكثر برودة، لكن المدينة تنبض بدفء طلابها الذين يملؤون مقاهيها وحدائقها بأحاديث لا تنتهي في ساحة البرلمان وساحة ليكس التي كانت في الماضي ميدانًا لمعارك الفرسان، أصبحت اليوم سوقًا شعبية تُقام كل سبت، يباع فيها كل شيء من الأجبان إلى الأزهار وشبكة من الأزقة المرصوفة بالحجر في البلدة القديمة تعيد الزائر إلى القرون الوسطى. دخلتُ أروقة المعهد الوطني للعلوم التطبيقية (INSA Rennes)[٤]، ذلك الصرح الذي لا يفتح أبوابه إلا لأصحاب العزيمة.
حملتُ معي كتبي، لكنني حملتُ أيضًا أسئلتي الكثيرة عن العالم وعن نفسي. بين جدران المختبرات وأروقة المكتبات، كان العلم هنا أكثر من دراسة، كان تجربة وجودية، وصقلًا للعقل والروح معًا. في رين، تعلّمت أن الصرامة الأكاديمية يمكن أن تسير جنبًا إلى جنب مع بساطة الحياة اليومية مقهى صغير على ضفاف نهر فيلَن، أو نزهة قصيرة بين البيوت

[٤] Institut National des Sciences Appliquées de Rennes

نصف الخشبية التي حافظت على طابعها منذ مئات السنين. بين ليون ورين كان المسار أشبه بمدرستين مختلفتين للحياة. في ليون، عاصمة إقليم رون ألب، عشت في مدينة كبيرة نابضة بالحركة والتجارة والفنون، مدينة تُلزمك أن تكون حاضرًا دائمًا، أن تواجه صخبها وتتعلم كيف توازن بين سرعتها وبين هدوئك الداخلي. هناك، كنت أرى التاريخ ممتزجًا بالحداثة، وأشعر أن كل زاوية من شوارعها تدعوك للتأمل في صراع الإنسان مع الزمن. أما رين، في قلب بريتاني، فقد منحتني شيئًا آخر سكينة الطالب الباحث، والقدرة على الإصغاء للصوت الداخلي وسط جدران المعهد ومكتباته. مدينة أصغر، لكنها أكثر حميمية، أقل بهرجة وأكثر صدقًا، كأنها تدعوك لتتفرغ لتلك الرحلة الفكرية الصافية. وبين المدينتين، أدركت أن الإنسان يحتاج إلى الاثنين معًا: صخب المدن الكبرى الذي يُشعل الطموح، وهدوء المدن الأصغر الذي يمنحك صفاء الرؤية. لقد شكّلتا معًا توازنًا دقيقًا في رحلتي، وأيقنت أن كل مدينة ليست فقط مكانًا، بل مرحلة من حياتك تُعيد صياغتك بعمق. من رين وبعد عام، خرجت بشهادة دبلوم الدراسات المعمّقة، كجواز مرور إلى عالم البحث العلمي، وبإيمان راسخ أن المدن ليست مجرد محطات عبور، بل مرايا تعكس ما بداخلنا وتعيد تشكيلنا في كل مرة.

باريس (Paris)

حين وصلتُ باريس في خريف ١٩٨٢ بعد ان أنهيت متطلبات الماجستير في مدينة رين، كانت المدينة في أوج أناقتها الهادئة، تحيا بإيقاعها الخاص بين التاريخ والجمال، بين الفلسفة والموسيقى، وبين الثورة والنهر. لم أكن مجرد طالب دكتوراه في الهندسة، بل كنت شابًا عربيًا يحمل أسئلته وطموحاته في قلب مدينة لا تمنح نفسها بسهولة، لكنها حين تفعل، تأسر القلب والعقل معًا. استقبلتني باريس بشتائها الرمادي، وبمزيجها المتناقض من الصمت المدروس والضجيج الفني. كانت باريس تنتظرني من جديد، في جامعة السوربون باريس ٦ "بيير وماري كوري" إحدى أعرق الجامعات العلمية حيثُ تحوّلتُ من طالبٍ إلى باحثٍ يمسك بمفاتيح أسرار الهندسة الإنشائية. وهناك بدأت أكتشف باريس الأكاديمية جامعاتها، مكتباتها، وقاعاتها التي تتنفس الفكر والنقاش الحر. كنت أتنقل بين المحاضرات وندوات الفكر، وبين جولات المساء في الحي اللاتيني، حيث الكتب تفيض من الأرصفة، والمقاهي تعجّ بالشعراء والطلاب. في مركز البحوث، ومختبرات "سان ريمي ليه شيفروز"، (Saint-Rémy-lès-Chevreuse) كرّستُ ثلاث سنواتٍ من عمري لأثبت أني قادرٌ على النجاح حتى في أرض الغربة . سان ريمي لي شيفروز بلدة صغيرة هادئة جنوب غرب باريس، لكنها تختزن بين تلالها وغاباتها واحدة من أهم مراكز البحث

العلمي في فرنسا. تحتضن المنطقة مراكز بحثية تابعة لجامعة باريس السوربون والمركز الوطني للبحث العلمي(CNRS) ، خصوصًا في مجالات الفيزياء والرياضيات وعلوم المواد. المختبرات موزّعة بين مبانٍ حديثة تحيط بها الغابات، ما يمنح الباحثين إحساسًا بالانعزال العلمي والتركيز، بعيدًا عن صخب العاصمة. كانت هذه المراكز امتدادًا عمليًا لما يُدرس في جامعة باريس ٦ (بيير وماري كوري)، حيث يذهب الباحثون إلى هناك لإنجاز التجارب التي تحتاج إلى بيئة هادئة ومساحات مجهزة. كنت أتنقل بسيارتي اليابانية الصغيرة كولت ميتسوبيشي كل صباح، متجهًا من باريس نحو سان ريمي ليه شيفروز .أترك خلفي ضوضاء العاصمة وضجيج شوارعها المكتظة، لأدخل شيئًا فشيئًا في طرقٍ محاطة بالأشجار والوديان الخضراء. الرحلة لم تكن طويلة، نصف ساعة أو أكثر قليلًا، لكنها كانت كافية كي أشعر بانتقالٍ من عالمٍ إلى آخر: من صخب باريس المتوتر إلى هدوء الضواحي الريفية حيث تقع المختبرات. كانت السيارة صديقتي الصبورة في هذه الرحلة اليومية، تحملني إلى فضاء العلم والتجارب، ثم تعيدني مساءً إلى قلب المدينة التي لا تنام. هناك التقيتُ بأساتذة وزملاء تركوا بصماتهم في مسيرتي، وعلى رأسهم أستاذي البروفسور Sistrunk، الذي كان بصرامته العلمية وعمقه المعرفي يفتح أمامي أبوابًا جديدة للفهم والتجريب. اذكر بأعجاب لولا الإدارة الدقيقة التي تولاها السيد Mamillon، مدير المختبر، الذي جمع بين الانضباط والحس الإنساني في

التعامل مع الباحثين. بين توجيهات أستاذي الجامعي ومتابعة مدير المختبر في مركز البحوث، كانت خطواتي العلمية تتشكل، وأيامي تمتلئ بمزيج من الجهد الاكتشاف. كنتُ أعود مساءً إلى باريس عبر الطريق ذاته، أستمع إلى نشرات الراديو الفرنسي وأخبار العالم، وأفكر بما أنجزته في يومي. تلك الرحلة اليومية لم تكن مجرد انتقال بين مدينتين، بل كانت انتقالًا بين مرحلتين من حياتي من طالبٍ يبحث عن ذاته إلى باحثٍ يضع لبنات علمه بجدية وإصرار. في تلك الطريق، حفظتُ المنعطفات والجسور كما يحفظ المرء تفاصيل قصيدة يرددها كل يوم. كان هناك دائمًا إحساس بأنني أسير بين زمنين زمن البحث والهدوء في سان ريمي، وزمن الحياة الباريسية المليئة بالحركة. جاءت باريس كعاشقةٍ متكبّرة، ترمي بكلماتها الذهبية في وجهي فتجرحني وتُبهجني. في مقاعد السوربون، حيث كان العِلمُ يُوزّع كخبزٍ ساخن، تعلّمتُ أن المعرفةَ ليست سلالمَ للصعود، بل فأسٌ يُحطّمُ أقفالَ اليقين. كانت دراستي العليا رحلةً في متاهةِ العقل، كلّما ظننتُ أني وجدتُ المخرج، فتحتْ لي الكتبُ باباً جديداً إلى الضياع. كانت سنواتي في فرنسا خلال الثمانينات من أجمل مراحل حياتي العلمية والإنسانية. عام ١٩٨٢، وصل إلى باريس أخي الصغير عادل قادماً من العراق، ليلتحق بجامعة فرنسية ويدرس الهندسة المعمارية على نفقة والدنا رحمه الله. امتدّت دراسته قرابة ست سنوات، وكانت تلك الفترة فرصةً ثمينةً جمعتنا من جديد في الغربة، بعد أن فرّقتنا الحياة ومتاهاتها.

كنا نلتقي كل مساء نتبادل الأخبار والذكريات، ونتحدث عن بغداد وأهلها، وعن الحلم الذي يراودنا بالعودة يوماً والمساهمة في إعمار وطنٍ نحمله



معنا أينما ذهبنا. خلال زيارتي لشقة أختي المدرسة في المدرسة العراقية بباريس، أخذتني الصدفة إلى لقاء غيّر مسار حياتي. هناك، عرّفتني على إحدى صديقاتها، طالبة عراقية تدرس الأدب الفرنسي في جامعة السوربون. كانت تحمل ملامح جمال هادئ يتناغم مع رقّة تشعّ بدفء إنساني، وثقافة عميقة لا تنفصل عن روح مفعمة بالحياة. لم أكن أعلم أن القدر يخبّئ لي شريكة عمري فتاةً تحمل اسم لمياء؛ اسمًا بدا لي كقصيدة لم تُكتَب بعد. دخلت عليّ بخطوات واثقة، بحذائها البني وقصّة شعرها التي تحكي ما لا



يُحكى، وفجأة تحوّلت باريس في عينيّ من مدينة الضباب البعيدة إلى مدينة الضوء القريبة من القلب. جمعنا أصلنا المشترك وقيمنا العراقية.

مرّت الأيام، وفي إجازة قصيرة عام **١٩٨٤**. قررت أن أسافر إلى بغداد، تلك المدينة التي لم تغب عن القلب يومًا. وهناك، طرقتُ باب عائلتها، **آل الجلبي الكرام**، وخطبتُها من خالها **المحامي طالب المصرف**، بعد أن كان القدر قد اختطف والدها **المحامي عبد الغني كاظم الجلبي**.كانت لحظة مفعمة بالمشاعر، تختلط فيها رهبة الماضي بأمل المستقبل، وبها بدأتُ فصلًا جديدًا من حياتي مع شريكة الدرب التي اختارها القلب قبل أن يختارها العقل. وحين عدت إلى باريس، لم أعد فقط كطالب مغترب، بل كرجل يبدأ فصلاً جديدًا من العمر مع زوجة ستغدو شاهدة على تحوّلي من شابٍ حائر يبحث عن ذاته، إلى رجل يعرف أن الحب هو أعلى درجات الدكتوراه، وأصدق ما يمنحه العمر من يقين. واليوم، ونحن نحتفل بالذكرى الرابعة والأربعين لزواجنا، ما زلنا نستذكر تلك الأيام التي جمعتنا في باريس، ونتذكرها كأجمل أيام العمر. باريس منحتني ما هو أعمق من العلم دروسًا في الهندسة وفي فلسفة العيش المشترك. لم تكن المدينة تدرّس عبر قاعات الجامعات فقط، بل من خلال الشوارع والساحات. من الشانزليزيه الذي يمتدّ كنهر من الأضواء بين ساحة الكونكورد وقوس النصر، إلى الحي اللاتيني الذي يحتفظ بروح باريس القديمة، ومن ضفاف السين حيث تُروى القصص، إلى مترو الأنفاق الذي ينسج خريطة داخلية للمدينة والذاكرة. خلال فترة إقامتي، كنت أعيش في منطقة La Defenceوهي ضاحية قرب باريس حيث تتناغم الهندسة هذه المنطقة



تعج بالأبراج الزجاجية، المكاتب، المراكز التجارية، والساحات المفتوحة المزينة بالأعمال الفنية المعاصرة، مما يجعلها أحد أبرز رموز التقدم والحداثة في باريس. والمنطقة الاقتصادية الأهم في باريس وضواحيها. في عام ١٩٨٢، قام الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بوضع حجر الأساس لمشروع "القوس الكبير" (Grande Arche) قرب شقتي في منطقة "La Défense"، صُمّم القوس على يد المعماري الدنماركي (Johan Otto von Spreckelsen) ليعبر عن قيم السلام والإنسانية. تم الانتهاء من تشييده عام ١٩٨٩ ويُعرف بمظهره الهندسي المكعب الضخم الذي يصل ارتفاعه إلى ١١٠ أمتار وعرضه وعمقه ١١٢ مترًا، وهو امتداد معماري حديث لمحور باريس التاريخي الذي يبدأ من قوس النصر عبر شارع الشانزليزيه. كنت أجد نفسي في المتاحف كما في الصفوف. وقفت طويلًا أمام لوحة الموناليزا، لا فقط منبهرًا بغموض ابتسامتها، بل مندهشًا من كيف أن متحفًا كان قصرًا ملكيًا أصبح فضاءً شعبيًا للمعرفة. زرت كاتدرائية نوتردام، وتأملت كيف أن حجرًا قديمًا يمكن أن يُصبح ذاكرة شعب بأكمله. كنت أمشي على ضفاف نهر السين، أراقب الأضواء تنعكس على صفحته، وأفكر في بغداد، في

دجلة، في المقارنة الصامتة بين مدينتين تسكنانني. شعرت أن باريس، رغم اختلافها، لم تكن غريبة. ربما لأنني جئت إليها محمّلًا بتجربة مدينة أخرى عظيمة، أو لأنني كنت أبحث فيها عن بعض مما فقدته في الوطن. باريس لا تفتح قلبها بسهولة، لكنها حين تفعل، تأخذك كلك. سرعان ما أصبحت أرصفة الحيّ اللاتيني رفيقة خطايَ، ومكتبات سان ميشيل امتدادًا لذاكرتي الأكاديمية. جلست ساعات طويلة في مقهى دو ماجو، أقرأ أو أراقب المارة، متأملًا كيف تمضي الحياة هنا بانضباط ساحر. باريس تعلّمك ألا تركض خلف الوقت، بل أن تمشي معه، خطوة بخطوة، على مهلٍ فيه تأملٌ واكتشاف. باريس كانت مدينة الأنوار، لكنها بالنسبة لي كانت



أكثر من ذلك كانت المدينة التي جمعت القلب والعقل في آنٍ واحد، ومنحتني، كمهندس وحالم، مفاتيح لأفهم العالم والمدن، والحب. كانت دراستي للهندسة تزداد عمقًا، وكنت أتعلم كيف يُبنى الجمال كعلم، لا كصدفة. كنت أقرأ عن *(Haussmann)*، عن تخطيط المدينة، عن العمارة الحديثة، هناك بدأتُ أفهم أن المدن ليست فقط خرائط، بل طبقات من الإحساس والزمن والمعنى. زرت متحف أورسايMusee d’Orsay أكثر

من مرة، ووقفت أمام لوحات فان غوخ Van Gogh ومونيه Monet كأنها رسائل غير مكتوبة إلى زمن آخر. في باريس، كنت أتعلّم كيف يصبح الجمال وسيلة مقاومة، وكيف تنطق الحجارة بما لا تقوله الخطابات. ورغم كل تلك اللحظات، كانت باريس مدرسة للحياة أكثر من كونها مجرد مدينة أعيش فيها خلال فترة الدراسة. فقد علمتني كيف يعيش العالم المتحضر في أجواء الحرية والانفتاح الثقافي. في تلك الفترة، كنت أزور المسارح والمعارض الفنية، وأستمع إلى الحفلات الموسيقية التي تُقام في قلب المدينة، حيث يُتاح للجميع التعبير عن آرائهم ومواهبهم. كانت هذه التجربة بمثابة نافذة على عالم حر ومبدع، في مقابل واقع بلدان العالم الثالث التي كانت ترزح تحت وطأة الدكتاتورية وقمع الحريات. بعد ثلاث



سنوات من البحث المتواصل وكتابة الأطروحة، جاء، موعد المناقشة. يومٌ بدا وكأنه خلاصة رحلة العمر، حيث أقف أمام لجنة المناقشة المكوّنة من أساتذة متخصصين، كلٌّ منهم يحمل خبرته ورؤيته، وأنا أحمل ثمرة جهدي وسهر الليالي. كان ذلك اليوم مزيجًا من القلق والفخر، من الترقب واليقين، شعورٌ بأن ما عشته في باريس من غربة وتعب وساعات بحث طويلة قد تبلور أخيرًا في لحظة

واحدة ستحدد ملامح مستقبلي العلمي والمهني. اجتمعت لجنة المناقشة، ومرّت الساعات ثقيلةً حتى أعلنوا موافقتهم على منحي شهادة الدكتوراه. لكن المفاجأة الكبرى كانت تنتظري خارج القاعة، حينما اقترب مني "مستر ماميا"، مدير مركز البحوث، بعرضٍ مغري :أنت الباحث الذي نبحث عنه "! كانت العبارة كالصاعقة. نظرات زوجتي - التي كانت تتابع الحوار بفرنستيها - تقول الكثير فهي تدرك قيمة العرض، لكنها أيضاً تسمع دويّ صواريخ بغداد في أذني" . كان العرض كريمًا، ومستقبلي هناك مرسومًا بوضوح بين مختبرات حديثة وبيئة علمية عالمية. واجبته شكراً لكم، لكن وطني ينتظرني. "لم تكن مجرّد كلمات، بل كانت قناعةً تشبّعت في روحي. نظرة "ماميا" تغيّرت فجأة، كأنه يرى للمرة الأولى رجلاً يرفضُ المجدَ العلمي ليعودَ إلى وطنٍ يحترق. حتى زوجتي، رغم خيبة أملها الخفية، لم تستطع إخفاء بريق الفخر في عينيها . استغرب السيد "ماميا" من قراري، بل ربما رأى فيه نوعًا من المغامرة غير المفهومة: كيف أترك الاستقرار والبحث العلمي في فرنسا، لأعود إلى بلدٍ يئنّ تحت ويلات الحرب مع إيران، تُقصف عاصمته بالصواريخ وتعيش أيامها بين الحصار والقلق. أجبته يومها أن العلم الذي أحمله لا يكتمل معناه إن لم يُزرع في تربة بلدي. كنتُ أشعر أن عليّ دينًا لبلدي وللمدينة التي نشأت فيها، وأن عودتي إلى بغداد ليست مجرد خيار مهني، بل وفاء لهوية ومسؤولية تاريخية. وهكذا تركت وراء ظهري المختبرات الفرنسية، وعدت إلى بغداد عام 1985، إلى

مدينة تحاول أن تتنفس تحت الدخان، لكني كنت أؤمن أن للأمل مكانًا حتى في قلب النار. في تلك اللحظة، وأنا أطوي آخر صفحات مغامرتي الفرنسية، كنتُ أعلم أنني سأعودُ حاملاً شهادتي كسلاحٍ جديدٍ في معركةٍ مختلفة: معركة إعادة بناء ما دمرته الحرب. فالعلمُ ليس رفاهية، بل هو أقوى أنواع المقاومة. حين حصلت على شهادة الدكتوراه، كنت أعلم أنني أغادر باريس، لكنني لم أغادرها حقًا. بقيت تسكنني في النمط، في الذوق، في النظرة إلى الحياة، في الإيمان بأن لكل مدينة طريقتها في أن تقول لك شيئًا وباريس قالت لي الكثير. عدت إلى الوطن، لكن باريس لم تغادرني أبدًا. بقيت جزءًا من ذاكرتي المعمارية والإنسانية، المدينة التي أيقظت فيّ حبّ المدن، والتي علمتني أن التخطيط يمكن أن يكون فعل حب، وأن العمارة ليست حجارة فقط، بل أملٌ وجمالٌ ونظام. في كل مرة حين أعود إلى باريس بعد عقود، أزورها ليس فقط كسائح، بل كحبيب قديم يعود إلى حبيبته. أمشي في الأزقة التي عرفتها، أجلس في مقهى صغير في مونمارتر[5]، Montmartre وأتذكر عمرا عشته في هذه المدينة.

---

[5] ذلك التل الباريسي الذي يقف في **الشمال الباريسي**، وأعلى نقطة فيه تتوجها كنيسة الساكري كور(Sacré-Cœur) ، البيضاء اللامعة التي تراقب المدينة من علو

باريس وتخطيطها العمراني الفريد

باريس، مدينة الأنوار، هي رمز الجمال والتاريخ والثقافة. تلك المدينة الساحرة احتضنتني خلال سنوات دراستي مطلع الثمانينيات من القرن الماضي. لقد كانت باريس بالنسبة لي أكثر من مجرد مكان إقامة مؤقت، بل كانت تجربة حياتية رسخت في ذاكرتي إلى الأبد، وقد تأثرت بشكل خاص بتخطيطها العمراني الفريد ومعالمها التاريخية التي تحكي قصص أزمنة وأجيال متعاقبة. تُقسم باريس إداريًا إلى ٢٠ دائرة بلدية، مرتبة في شكل حلزوني من قلب المدينة باتجاه الأطراف، ويُشار إليها بالأرقام من ١ إلى ٢٠. يحيط بها طريق دائري يعرف باسم "Boulevard Périphérique"، ويُعتبر أحد أبرز المعالم الحضرية في فرنسا، حيث يفصل باريس عن الضواحي المجاورة لها ويعمل كنقطة وصل بينها وبين بقية أنحاء البلاد. اتخذت باريس شكلها الحالي بفضل مجموعة من المخططين والمعماريين الذين تركوا بصماتهم على هذه المدينة، ومن أبرزهم البارون جورج أوجين هوسمان George Eugene Haussmann (١٨٠٩-١٨٩١): يعد هوسمان واحدًا من أهم الشخصيات في تاريخ باريس. عيّنه الإمبراطور نابليون الثالث عام ١٨٥٣ لقيادة مشروع ضخم لإعادة هيكلة المدينة. قام هوسمان بتوسيع الشوارع الضيقة وإنشاء الشوارع الواسعة المستقيمة التي تُعرف بها باريس اليوم، إضافة إلى بناء



ساحات عامة كما أنجز مشاريع الصرف الصحي والبنية التحتية التي جعلت باريس واحدة من أنظف مدن العالم في وقته وقد كرّمته باريس بإطلاق اسمه على واحد من اهم شوارعها.

باريس هي موطن للعديد من المعالم الحضرية، ومن أبرزها قوس النصر الذي أمر ببنائه نابليون بونابرت عام ١٨٠٦ تخليدًا لانتصارات جيوشه وبرج إيفل الذي بُني عام ١٨٨٩ احتفالًا بمرور مئة عام على الثورة الفرنسية ليكون رمزًا للمعرض العالمي ليصبح اليوم أحد أشهر المعالم في العالم و يُعتبر البرج نقطة محورية للاحتفالات، بما في ذلك ألعاب نارية يوم الباستيل وعروض الأضواء في ليلة رأس السنة. كذلك كاتدرائية نوتردام رمز العمارة القوطية التي امتزج فيها الجمال المعماري بالتاريخ الديني والثقافي ومونمارتر كنيسة القلب المقدس (Basilica of Sacré-Cœur). مونمارتر هو حي تاريخي معروف بماضيه البوهيمي، وكان موطنًا لفنانين مثل بيكاسو وفان غوخ. في قمته تقع كنيسة القلب المقدس، وهي كنيسة على الطراز الروماني البيزنطي اكتملت في عام ١٩١٤. توفر الكنيسة إطلالات رائعة على باريس من قبتها. وقصر فرساي

(Château de Versailles) خارج باريس، وكان مقر إقامة ملوك فرنسا، بما في ذلك لويس الرابع عشر، "الملك الشمس". يُعتبر القصر رمزًا للملكية المطلقة ويتميز بقاعة المرايا، وحدائق فاخرة، باريس ليست مجرد مدينة، بل هي تجربة إنسانية غنية، تعلمت فيها أن الحرية ليست مجرد شعار، بل أسلوب حياة ورغم مرور الزمن، تبقى باريس بالنسبة لي مصدر إلهام دائم، ومدينة تُجسّد الحلم بالحرية، الإبداع، والجمال الإنساني الذي لا ينتهي.

مدن الحنين والذاكرة

في منتصف عام ١٩٩٦ غادرتُ وعائلتي الصغيرة بغداد مثقلاً بذكرياتها، أحمل بين ضلوعي ثِقَلَ تاريخها ورائحة أزقتها وصور وجوه أحبّتي. كان الرحيل أشبه بانتزاع جزء من الروح، لكنه فتح لي بابًا لفصل جديد من حياتي. لم تكن المدن التي استقبلتني لاحقًا ثمرة اختيار حرّ بقدر ما كانت محطّات فرضتها الظروف، مدن عشت فيها كعابرٍ يبحث عن جذور بديلة، فيما ظلّت جذوري الأصلية مغروسة هناك، على ضفاف دجلة.. في عمّان وجدتُ دفء القرب من الوطن، مدينة تُشبه استراحة المسافر، أستعيد فيها أنفاسي وأحمل معي أمل العودة. ثم أخذتني الأقدار إلى أقصى الأرض، إلى أوكلاند في نيوزيلندا، حيث البحر البعيد والسماء الواسعة، وهناك تلمّست معنى الاغتراب بكل تفاصيله، كأنني أعيش على ضفاف العالم. وبعدها استقرت بي الرحلة في تورونتو، مدينة التنوّع والفرص، التي احتضنتني ومنحتني فضاءً جديدًا للتأمل والعمل.

هذه المدن – عمّان، أوكلاند، وأبو ظبي وتورونتو – لم تكن مجرد محطات عابرة، بل كانت مدارس للحياة، رسمت في داخلي خبرات وتجارب ستتضح ملامحها في الفصول القادمة، حيث أتوقف عند كل مدينة كما لو كنت أفتح ألبوم صور يربط بين الذاكرة والهوية والحنين. وسط ضجيج

العالم وصخب السفر، ثمة مدن لم تكن مجرد أماكن للزيارة، بل محطات للطمأنينة، حيث شعرت فيها أنني ألتقط أنفاسي بين رحلتين، وأجد في هدوئها ما يعيد توازني الداخلي في عمّان الأردنية المدينة التي تفيض بدفء العلاقات وهدوء الجغرافيا، حيث جمعتني بأصدقاء وأهل، وكانت دائمًا جسرًا بين الماضي والمستقبل وفي أوكلاند النيوزلندية , مدينة بلا حواجز، حيث تنفتح الطبيعة بكل صفائها، وتغدو الجبال والبحر والسماء فضاءً واحدًا يعيدك إلى جوهر البساطة و في أبو ظبي الإماراتية مدينة لم تكن مجرد محطة عمل، بل مرفأ طويل للتجربة المهنية والحياتية، مدينة أتاحت لي أن أختبر معنى الاستقرار وسط تحولات كثيرة. وأخيرا مكة والمدينة وهي مدن الروح، حيث وجدت السكينة العميقة والأمان الذي لا يشبه أي مكان آخر، مدن تعلّمك أن الطمأنينة الحقيقية تنبع من الإيمان قبل أن تكون في العمران. هذه المدن لم تكن فصلًا في رحلة جغرافية فقط، بل فصولًا في رحلة الروح.

عمان مشاهدات بين ١٩٨٠-١٩٩٦

كانت زيارتي الأولى إلى عمّان في خريف عام ١٩٨٠، حين وصلت إليها برًّا قادمًا من بغداد، بحثًا عن طريق يوصلني إلى باريس بعد أن أُغلق مطار بغداد بسبب اندلاع الحرب مع إيران. يومها بدت عمّان مدينة هادئة،

صغيرة الملامح، أما زيارتي الثانية فكانت في صيف عام **١٩٩٦**، بعد سنوات من الغياب، وقد استقبلتني المدينة بروائح متناقضة رائحة الإسفلت الساخن تحت أشعة الشمس، تمتزج بعبق القهوة المُرّة المتصاعدة من المقاهي القديمة في وسط البلد، لكنها لم تكن الرائحة الوحيدة كما في ذاكرتي الأولى. هذه المرة اختلطت بروائح دخان السيارات وعوادم البناء، ومعها رائحة الخبز الساخن القادمة من الأفران الحديثة التي انتشرت في الأحياء الجديدة. كانت عمان قد تغيرت... ليس في شكلها فقط، بل في نبضها أيضا .الأصوات التي لم تعد كما كانت في ١٩٨٠، كنت أسمع أصواتاً واضحةً ومتفرقة أجراس كنائس في أيام الأحد، نداءات المؤذن من مسجد الحسين، ضحكات الباعة وصوت راديو قديم يبث أغاني فيروز من دكان صغير .أما في **١٩٩٦**، فقد اختلط كل شيء. صارت الأصوات تشبه زحاماً موسيقياً لا يتوقف أبواق السيارات المتعجلة، أصوات الحفارات التي لا تنتهي، موسيقى صاخبة تخرج من محل لبيع الأشرطة، صياح بائع جريدة يعلن عن أخبار العالم، وهمسات العراقيين الذين تجمعوا في مقاهي الشوارع الجانبية، يحكون حكايات الهروب من وطن مزقته الحروب . في جبل اللويبدة، حيث كانت البيوت الحجرية تحتفظ بأسرار العائلات العريقة، رأيتُ وجوهاً جديدة. فنانين شباناً استقروا في شقق صغيرة، حوّلوها إلى أستوديوهات، يضعون على جدرانها لوحات تجريدية لم تكن عمان تعرفها قبل سنوات. في المقابل، في الصويفية وعبدون،

كانت القصور الحديثة تتكئ على التلال، يسكنها أثرياء جدد، بعضهم من العراقيين الذين جلبوا معهم ثرواتهم وأساليب حياتهم المختلفة .حتى وسط البلد، الذي كان يحتفظ ببساطته، صار مكاناً للقاءات غريبة. رأيتُ هناك شاباً عراقياً يبيع على الرصيف، بجواره شيخ أردني يعرض سجاجيد قديمة، وخلفهما مقهى "البلقاء" الذي صار ملتقىً للمثقفين الهاربين من عواصم مزقتها الحروب .قمت بتأجير شقة مؤثثة في منطقة الصويفية في عمان الغربية كحلمٍ مؤقت علّقناه بين الجدران لم تكن الشقة سوى غرفتين وصالة صغيرة، لكن نوافذها المشرعة على تلال عمّان الذهبية كانت كفيلة بأن تمنحنا شعوراً زائفاً بالاستقرار. كنا نطل منها كل صباح صوت بائع الخبز وهو يردد: "طازج.. طازج!" وكأنه يذكرنا بأن الحياة، رغم كل شيء، لا تزال تدور .كانت الصويفية حيًا هادئاً يختلط فيه عبق الماضي بالحاضر. مقاهٍ بسيطة تنتشر رائحة الشاي والقهوة التركية منها، ومحلات صغيرة تبيع كل شيء من الحلوى إلى بطاقات الهاتف الدولية التي كنا نقتنيها بشغفٍ لنطمئن على من تركنا خلفنا في بغداد. كنت أمشي مع حسين، ابني الذي كان يجرّ حقيبة مدرسته الصغيرة وكأنه يحمل كل أحلام طفولته فيها، بينما كانت لمياء، زوجتي، تتفقد أسعار الخضار في السوق القريب، محاولةً أن توازن بين رغبتنا في العيش بكرامة وبين محدودية مدخراتنا التي ذابت كثلجٍ تحت شمس المنفى .المفتاح الذي فتح الباب البعيد لم يكن سوى خيار نيوزيلندا وليد الصدفة. في مكتب

الهجرة الصغير بوسط عمّان، بين الأوراق المتراصة وكُتيّبات الهجرة التي بدت وكأنها كتبت بلغةٍ من كوكب آخر، وجدت شرطين يلمعان كنجمين في ظلمة الليل: عمرٌ دون الأربعين، وإجادة اللغة إنجليزية. نظرت إلى لمياء فابتسمت، وكأننا اتفقنا على أن الفرصة الأخيرة قد قرعت الباب .في المعهد البريطاني، حيث كانت المقاعد الخشبية تحمل آثار أسماء كتبها طلابٌ سبقونا برحلاتهم المجهولة، جلسنا أنا ولمياء نعبث بأقلام الرصاص كتلاميذ في يوم امتحان. كنت أسمع صوت تنفسها الهادئ، بينما كانت عيناها تتابعان الأسئلة وكأنها تترجم مصيرنا كله إلى جملٍ إنجليزية. وعندما جاءت النتيجة، كانت ٦.5 درجة في اختبار IELTS (International- English Language Testing– الرقم الذي بدا وكأنه تذكرة سفر إلى عالمٍ لم نكن نتخيله إلا في الأفلام . الفاكس.. النغمة التي قطعت الصمت في ليلةٍ من ليالي أيلول، حيث كان الهواء المائل للبرودة يلتصق بالجلد كذكرى لا تزول، استيقظت فجأةً على صوت نغمة الفاكس المميزة. كانت الآلة العتيقة المجاورة للهاتف تئزّ كجرس إنذار. قفزت من السرير، وقلبي يخفق كطائرٍ حبيس. الورقة البيضاء التي انزلقت من الفاكس حملت بضعة أسطر Dear Applicant, we are pleased to . "inform you..." لم أكمل القراءة. صرخت "لمياء! حسوني!" دخل ابني الصغير وهو يفرك عينيه ويسأل "بابا، هل حصلت على الوظيفة؟" (كان يظن أن كل الأوراق الرسمية تتعلق بالعمل). ضممتهما إليّ، وأخبرتهما بأننا

سنسافر إلى أرض الواق واق، كما كنا نسمي نيوزيلندا حينها . في تلك اللحظة، نظرت من النافذة إلى شوارع الصويفية التي أصبحت فجأةً مجرد محطة في رحلتنا. حتى روائحها وأصواتها، التي كانت قبل قليل جزءاً من يومنا العادي. في الأيام التي تلت، تحولت شقتنا إلى ورشةٍ للتعبئة. كل قطعةٍ كنا قد اشتريناها في عمّان، كل كتابٍ حملناه من بغداد، كل صورةٍ لوالدي محمود المعلقة على الجدار كلها أصبحت أسئلة نأخذ أم نترك؟ كانت لمياء تضع الصور في صناديق الكرتون بينما كان حسين يسأل عن "الكنغر" وهل سيراه حقاً. أما أنا، فكنت أتوقف بين الحين والآخر لألمس الجدار الذي احتضن أحلامنا المضطربة لعامين كاملين .المدرسة الأخيرة كانت مدرسة الإبراهيمية في عمان تشبه ذلك العالم الصغير الذي صنعناه لـحسين ليحتمي به من رياح الغربة. يوم سجلناه فيها قبل عام كان يتشبث بزمام حقيبته المدرسية الجديدة وكأنه يخشى أن تسرق منه كما سُرقت طفولته في بغداد. لكنه هنا، بين جدران الفصل الملون برسومات الأطفال، وجد أصدقاءً يتقاسمون معه قطع الحلوى وألغاز درس الحساب . عندما أخبرناه بأننا سنسافر إلى نيوزيلندا، لم يسأل عن البطاريق أو الشواطئ كما توقعنا. سأل بدلاً من ذلك: "هل سأرى أحمد ويوسف مرة أخرى؟". كلماته علقت في الهواء كغيمة صغيرة. في اليوم الأخير له في المدرسة، أصرّ على أن يوزع علبة حلوى اشتريناها من "حلويات رشيد" في الصويفية على زملائه. وقفت المديرة السيدة التي كانت تبدو دائماً وكأنها

تحمل مفتاحاً سحرياً لقلوب الأطفال، تربت على كتفه قائلاً: "ستصبح سفيراً لنا هناك يا بطل ." حمل حسين شهادة انتقاله وكأنها وثيقة سفر إلى عالم مجهول، بينما كانت عيون زملائه تودعه بنظراتٍ تخلط بين الحسد والحزن .

ياسين.. الصديق الذي صار ذكرى

أبو هند". هكذا كنا نناديه. كان ياسين الأخ والصديق. كنا نجلس معاً نرشف الشاي بنعناع الحار، وهو يحكي عن بناته في تكساس وأنا أحدثه عن نيوزيلندا التي لم أكن أعرف عنها سوى أنها بعيدة" .هاجر يا صديقي. هنا لا مستقبل لنا"، كان يقول بين سحبة من سيجارته المعتادة. لم أكن أعلم أن تلك الجملة ستكون وصيته الأخيرة لي. بعد أشهر من رحيلي، علمت بأنه لحق ببناته في أمريكا، ثم فاجأنا الموت بغدره وأخذه في رحلة لا عودة منها. اليوم، كلما مررت بشارع في أوكلاند يذكرني بجبل عمان، أتخيله جالساً على كرسيه المفضل، يرفع كوب الشاي نحو السماء وكأنه يحيي أصدقاءً لم يعرفوا كيف يودعونه . زرنا "سوق الصويفية" للمرة الأخيرة، حيث تعرف البائع على صوت خطواتنا فأومأ لي: "خلّصت أوراقك يا دكتور؟". ابتسمت وأومأت. حتى هو، الذي كان يخبئ لي الصحف صار جزءاً من القصص التي سنرويها في الغربة . وفي ليلتنا الأخيرة، وقفنا نحن الثلاثة في الشرفة ننظر إلى أضواء عمان المتلألئة.

كانت لمياء تمسك بكوب من الشاي البارد، وحسين يلعب بسيارته الصغيرة، وأنا أحاول أن أحفظ صورة المدينة في ذاكرتي. عمان، التي منحتنا مرفأً حين لم نجد موانئ، كانت تودعنا بصمتٍ يعرف فقط لغة المنفيين .وفي صبيحة يوم المغادرة، وقفنا نحمل حقائبنا عند باب الشقة. نظرت إلى المفتاح الذي سأسلمه لمالكها، ثم التفتُ إلى الوراء للمرة الأخيرة. الصويفية، التي منحتنا ذكرياتٍ مثل قطرات المطر على زجاج النافذة بعضها تبخر، وبعضها ترك آثاراً لا تمحى . لكن الحياة، كما تعلمنا في المنفى، لا تتوقف عند حدود الذاكرة. كانت نيوزيلندا تنتظرنا، وفصلاً جديداً يبدأ بنغمة فاكسٍ في فجر يومٍ مجهول .كان مطار الملكة علياء في عمّان يغرق في ضوء الفجر البارد حين وقفنا نحمل حقائبنا الأخيرة. لمياء تمسك بيد حسين الذي كان يرتدي سترته الجديدة - الزرقاء كلون بحرٍ لم نره بعد - بينما كنت أتفحص جوازات السفر للمرة العشرين، كأنني أخشى أن تتبخر الأوراق التي منحتنا حياةً جديدة . "هل سنطير فوق السحاب؟" سأل حسين بينما كنا نصعد إلى الطائرة. ضحكت لمياء وأجابت: "بل سنخترقه لنصل إلى مكان لا ينام فيه النهار أبداً". كانت الرحلة إلى كوالالمبور ثماني ساعات من القلق الممزوج بالفضول. نظرت من النافذة وأنا أتخيل أن كل سحابة تمر تحمل شيئاً من غبار بغداد، أو عبق زيتون عمان . محطة ماليزيا. حيث توقفنا عشرين ساعة ننتظر الرحلة الثانية مما



سمح لنا ان نغادر المطار الى المدينة. كانت لمياء تتفحص جوازها كل دقيقة، كأنها تتأكد أن صورة ابنها الصغير ما زالت موجودة فيه. أما أنا، فكنت أقلب كتيباً صغيراً عن نيوزيلندا وجدته على المقعد. صورة لشاطئ البحر ذي الرمال السوداء جعلتني أتساءل هل سنستطيع المشي على أرضٍ لا تشبه أرضنا؟

هكذا ظلت عمّان بالنسبة لي مدينة المراحل صغيرة وهادئة في مطلع الثمانينات، متوسعة وصاخبة في منتصف التسعينات، ورسمية ومنظمة في مطلع الألفية الجديدة. كل عودة إليها كانت تحمل وجهًا مختلفًا، لكنها جميعًا كانت تؤكد أن المدن، مثل البشر، تنمو وتتغير وتكشف عن وجوهها تبعًا للزمن والظروف.

كانت الزيارة الثالثة في آب / أغسطس ٢٠٠٤، وهذه المرة بدعوة رسمية من أمينها نضال الحديد. رتّبت لي أمانة عمان برنامجاً لزيارة عدد من دوائرها، وتعرّفت خلالها على آليات عملها الحضري وخططها التنظيمية.

وقبل مغادرتي، كان لي لقاء رسمي مع دولة رئيس الوزراء الأردني فيصل الفايز، لقاء حمل بعداً رمزياً يعكس أواصر المهنة والسياسة، ورغبة المدن العربية في الحوار والتعاون.



وفي ١٨-١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٥ شاركتُ في الاجتماع الرابع للجنة مانحي مرفق تمويل إعمار العراق (IRFFI)، حيث جدّد المجتمع الدولي التزامه بدعم مشاريع إعادة البناء، وتركّز النقاش على تنسيق الجهود تحت مظلة وزارة التخطيط العراقية واستراتيجية التنمية الوطنية. كانت الجلسات مكثّفة بين ممثلي الحكومات والمؤسسات الدولية،



وتجلّى فيها التباين بين سخاء التعهّدات وصعوبة تحويلها إلى منجزات على الأرض درسٌ آخر في أن الإعمار ليس أرقامًا فحسب، بل حوكمة وتخطيط وإرادة تنفيذ.

أوكلاند

الرحلة الطويلة التي تجاوزت عشر ساعات بين السماء والمحيط على متن الطائرة النيوزيلندية، بدا العالم كله تحت أقدامنا. موظفون بوجوهٍ ودودة يوزعون البطاطا الحلوة المهروسة - طعامٌ غريب لم نعتده - وحسين يرفض تناول وجبته كاملةً. "احتفظ بالتفاحة يا حبيبي، ربما نجوع لاحقاً"، قالت لمياء وهي تضعها في حقيبته الصغيرة. لم نكن نعلم أن تلك التفاحة ستصبح بطلة قصتنا الأولى في الوطن الجديد . قبل الهبوط، وزعت المضيفات أوراق الإقرار الجمركي. "هل لديكم أي خشب، طعام، أو أحذية عليها أتربة؟" سألتنا بإنجليزيةٍ واضحة. نظرت إلى لمياء وأجبنا بـ "لا" بثقة، بينما كان حسين يخبئ التفاحة في جيبه ككنزٍ سري . حين حطت الطائرة في مطار أوكلاند لم يكن هناك ما يشبه الاستقبال. فقط زئير المحركات، ثم صمتٌ مفاجئ. من النافذة، رأينا سيارات الإطفاء ترش الماء على جسم الطائرة كطقسٍ غامض. "إنهم يغسلونها من جراثيم العالم"، همست لمياء .لكن المفاجأة الحقيقية كانت في صالة الأمتعة. كلاب الشرطة ذات الأنوف الرطبة تجول بين الحقائب، ورجال الشرطة بزيهم الأخضر يفتشون بعيونٍ لا تترك شيئاً. فجأة.. توقف أحد الكلاب عند حقيبة حسين، وأخذ يشتمها باهتمام .هل لديكم طعام؟" سأل الضابط. فتحنا الحقيبة الصغيرة، وإذا بيده تخرج التفاحة كدليل إدانة" .لقد وقعتم هنا"، أشار إلى ورقة الإقرار، "هذه مخالفة ."تحول وجه حسين إلى اللون

الأبيض. "لكنها.. مجرد تفاحة!" قال بصوتٍ مرتعش . نظر الضابط إلى جوازاتنا، ثم إلى وجوهنا المحملة بالتعب والخوف. "مرحباً بكم في نيوزيلندا"، قال أخيراً وهو يرمي التفاحة في سلة الممنوعات. "في المرة القادمة.. ستكلفكم ٤٠٠ دولار ."عندما عبرنا باب المطار الأخير، انهمر علينا مطر أوكلاند الخفيف كدموع السماء. في السيارة، كان حسين يحدق في النوافذ المبللة. "بابا، لماذا كانوا يغسلون الطائرة؟ ولماذا أخذوا تفاحتي؟ " أمسكت بيده الصغيرة وأجبته: "لأن هذه الجزيرة جميلة جداً يا ولدي.. لدرجة أنهم يخافون حتى على هوائها منا ."نظر إليّ وكأنه لا يفهم. لكن لمياء، التي كانت تنظر إلى التلال الخضراء خارج النافذة، همست: "سنفهم كل شيء مع الوقت.

البيت الصغير أول بيتٍ استأجرناه في أوكلاند أشبه بغرفة انتظارٍ للحياة الجديدة. بيتٌ متواضع من طابق واحد، جدرانه البيضاء تخلو من الذكريات، لكن قربه من منزل المهندس رؤوف جاري– صديق من حيّ العامرية في بغداد– جعله يبدو كجزءٍ من وطنٍ منسي . رؤوف، الذي سبقنا إلى نيوزيلندا بثلاث سنوات، كان يطرق بابنا كل مساء حاملاً معه قصصاً عن "الشتاء الذي لا يشبه شتاءنا"، و"الجبال التي تشبه رسومات الأطفال". في أحد الأيام،

ينما كنا نتناول الشاي بعد ظهر يوم أحد – تلك العادة العراقية التي لم نستطع تركها حتى في أقاصي الأرض – أخرجتُ خريطة صغيرة، وفتحتها على الطاولة الخشبية أشرتُ بإصبعي إلى منطقة *Wentworth Park* في ألباني، ضاحية هادئة شمال أوكلاند، وقلت بهدوء» :هنا سيكون منزلنا الجديد.«. رفعت لمياء نظرها نحوي، وفي عينيها مزيج من الدهشة والفرح، كأنها لم تصدق أن أحلامنا التي طال انتظارها بدأت تتجسد على الورق. ابتسمت، ثم انحنت قليلاً تنظر إلى الخريطة، كأنها تحاول أن ترى المستقبل مرسومًا بخطوط الشوارع والحدائق الصغيرة. أما حسين، فبقي صامتًا لحظة، يحدّق في العلامة الحمراء التي رسمتها بالقلم، ثم قال بدهشة صبي لم يزل يكتشف العالم:

»يعني... هذا بيتنا الحقيقي؟ مش بس بالإيجار؟« ضحكنا جميعًا، وارتجف فنجان الشاي بين يدي من فرط الامتنان.

ساد صمت قصير بعد ضحكتنا، كأن الشاي تجمّد في فناجين الزجاج، وكأن الخريطة الصغيرة التي على الطاولة صارت نافذة تطل على وطنٍ بعيد. نظرتُ إلى زوجتي، كانت تبتسم، لكن في ابتسامتها ظلّ حنينٍ أعرفه جيدًا، ذاك الحنين الذي لا يُشفى، مهما بدت الأيام جديدة أو البيوت أوسع. قلتُ وأنا أستعيد صوت بغداد من بعيد: »تدرين... حتى لو سكنا ألف بيت، يظل القلب مربوطًا بأول عتبة وطئناها هناك.« أومأت برأسها بصمت،

وكأنها تخاف أن تنكسر الكلمات إن نطقت. حسين ظلّ يعبث بالخريطة، يرسم خطوطًا بين ألباني وبغداد، بين طفولته هنا وذاك الوطن الذي لم يعرفه إلا من الحكايات. كانت رائحة الشاي بالهيل تملأ المكان، تذكّرنا أن شيئًا فينا ما زال كما هو، عنيدًا، يرفض أن يذوب تمامًا في غربةٍ مهذّبة. أردت أن أقول إن هذا البيت الجديد ليس سوى محاولة لترميم الشعور بالانتماء، لكني صمتُّ؛ فبعض الأشياء لا تُقال، بل تُعاش في تفاصيل صغيرة في كوب شاي، في لهجةٍ باقية، في نظرةٍ تتجه نحو السماء كل مساء.

بعد أشهر من الاستقرار، قررت أن أطلق شركتي الخاصة

Engineering Trade Project Company Limited. كان مكتبي الأول عبارة عن غرفة صغيرة في مركز أعمال في وسط أوكلاند، لكنها كانت بداية مشروع كبير.



رؤوف ساعدني في إجراءات التسجيل، وعلمني كيف أتعامل مع القوانين النيوزيلندية الصارمة" .هنا النزاهة أهم من السرعة، والدقة أهم من العلاقات"، نصحني وهو يشرح لي كيفية

تقديم العطاءات للمشاريع الهندسية .سرعان ما بدأت الشركة تحصل على مشاريع صغيرة، ثم توسعت مع الوقت. كنت أعود إلى البيت متعباً لكن سعيداً، لأنني كنت أبني شيئاً خاصاً بي في هذا البلد الجديد .

انتقلنا الى بيتنا الجديد في منطقة Wentworth Park في ألباني، شمال أوكلاند. الحي كان هادئاً، منازله حديثة البناء، محاطة بحدائق خضراء. عندما دخلنا البيت لأول مرة، وقف حسين في وسط الصالة الكبيرة وقال: "بابا، هذا بيتنا؟ للأبد؟." نعم، كان بيتنا. بيت بحديقة خلفية صغيرة حيث زرعنا أول شجرة ليمون، وبشرفة أمامية نستطيع منها رؤية غروب الشمس يلامس تلال ألباني البعيدة .

.سجّلنا حسين في مدرسةAlbany Primary School ، حيث كانت الصفوف تشبه حديقةً ملونةً بأعراق العالم. في اليوم الأول، وقف يمسك



بحقيبته المدرسية – نفس الحقيبة التي حملها في عمّان – لكن الزي الموحّد الأزرق جعله يبدو كأنه انضمّ إلى فريقٍ سري هل يتكلمون الإنجليزية مثل المعلمة سارة في الأردن؟ "سألني بقلق. أجبته بينما كانت لمياء تعدّ له ساندويشات

الغداء: "لا.. هنا ستسمع الإنجليزية بلهجةٍ تختلف عن أي شيءٍ تعرفه ." كانت المدرسة تقف على تلةٍ مطلةٍ على مساحاتٍ خضراء شاسعة، وكأنها تقول للأطفال: هذا العالم الجديد ملكٌ لكم . في مركز North care Medicalبالقرب من بيتنا، استلمنا بطاقات التأمين الصحي أما إجازة السوق التي حصلنا عليها أنا ولمياء، فكانت أشبه بجواز سفرٍ إلى الحياة اليومية. في أول زيارة لـسوبرماركت Pak'nSave ، وقفت لمياء تتأمل رفوف الحليب الطويل مندهشة أمام الرفوف المليئة بأنواع مختلفة من الجبن والحليب" .هنا كل شيء منظم، حتى علب الحليب مرقمة!" قالت وهي تختار علبة حليب كامل الدسم .

منطقة Wentworth Park في ألباني هي منطقة سكنية حديثة تتميز بما يلي: - الهدوء والنظافة: شوارعها واسعة، مخصصة للمشاة وراكبي الدراجات، مع مساحات خضراء في كل مكان. - المرافق الحديثة مركز تسوق Albany Mall القريب يوفر كل الاحتياجات، بالإضافة إلى ملاعب رياضية ومكتبة عامة. في هذا البيت، وهذا الحي، بدأنا ننسج ذكريات جديدة. لم نعد لاجئين، ولا غرباء، بل أصبحنا جزءاً من هذا المكان الذي منحنا فرصة ثانية . من شقة الإيجار الصغيرة إلى بيت الأحلام في ألباني، ومن الخوف من المجهول إلى الثقة بالمستقبل، كانت رحلتنا في نيوزيلندا مثالاً على أن الحياة يمكن أن تبدأ من جديد، حتى بعد كل ما فقدناه . لم نكن نعرف شيئاً عن سكان نيوزيلندا الأصليين شعب الماوري قبل وصولنا،

سوى صوراً في الكتيبات السياحية عن رقصات الهاكا ووشوم الوجه. لكن أول لقاء لنا مع رجل ماوري في سوق أوتارا في أوكلاند كان درساً في الكرم . كان يقف خلف طاولة يبيع منحوتات من خشب الكاوري، وعندما سمعنا نتحدث العربية، أومأ إلينا بابتسامة عريضة !Kia ora" :أنتم جدد هنا، أليس كذلك؟" (كلمة "كيا أورا" تعني مرحباً بلغة الماوري) . عرض علينا قطعة خشب صغيرة منحوتة على شكل طائر كيوي. "هذه هدية لابنكم الصغير.. إنها تجلب الحظ". لمياء نظرت إليّ متسائلة، فأضاف: كل المهاجرين كانوا يوماً غرباء مثلنا . منذ ذلك اليوم، تعلمنا أن الماوري رغم تاريخهم المرير مع الاستعمار هم أكثر النيوزيلنديين ترحيباً بالوافدين. في حفلاتهم التقليدية (الهاكاريه)، كانوا يصرون على تعليمنا كلمات بسيطة بلغتهم، ويقدمون لنا هاونجي (وجبات مشوية تحت الأرض) كرمز للمشاركة . أما "الكيوي البيض (كما يطلقون على النيوزيلنديين من أصل أوروبي)، فكانوا يدهشوننا يومياً بتعاملهم الذي يجمع بين الاحترام والبساطة . ذات مرة، بينما كنت أحاول ركن السيارة في موقف محل البقالةWestfield Albany ، نسيت أن المقود على اليمين فاصطدمت بالرصيف. قبل أن أتمكن من الخجل، طرق زجاجي رجل ستيني: "لا تقلق يا صديقي، لقد فعلت الأمر ذاته عندما عدت من لندن "! حتى الشرطة كانت تعاملنا بتفهم. في إحدى المرات، أوقفتني دورية لأنني انعطفت من المسار الخطأ. عندما رأوا رخصتي قالوا: "خذ وقتك.. السلامة أهم من

الغرامة ." لم يكن تغيير اتجاه المقود مجرد مسألة تقنية، بل كان تحدياً وجودياً !في الأسبوع الأول، كنت أفتح باب السيارة بأيدي مرتعشة، وأنا أحدث نفسي: "اليسار هو الجديد لليمين.. اليسار هو الجديد لليمين" - ذات صباح، دخلت طريق السريع بالاتجاه المعاكس! السيارات كانت تصفر، لكن أحداً لم يصرخ أو يشتم. توقفت سيدة بسيارتها البيضاء وأرشدتني إلى مخرج آمن بيدين مرتعشتين من التوتر، لكن بابتسامة صبور. - حتى حسين كان يضحك: "بابا، أنت تقود كأنك في لعبة فيديو ."! .لكن نيوزيلندا علمتنا أن الأخطاء مقبولة طالما نتعلم منها. بعد ثلاثة أشهر، كنت أقود بثقة كأنني ولدت هنا . أول ليلة في ألباني، خرجنا نحن الثلاثة إلى الحديقة الخلفية لننظر إلى النجوم قالت لمياء لقد اختفى نجم الجدي كانت الكويكبات الجنوبية محيرة حتى القمر كان مقلوباً بالنسبة لنا !المياء قالت وهي تلتف بمعطفها "كأننا نعيش في كوكب آخر.. حتى الظل هنا يسقط في الاتجاه المعاكس . كان فرق التوقيت مع العراق كابوساً عاطفياً عند الساعة ٨ مساءً في أوكلاند، يكون الوقت ١٠ صباحاً في بغداد.. أي أننا عندما نريد الاتصال بأهالينا، يكونون في وسط دوامهم. - في أيام العيد، كنا نضبط المنبه للساعة 3 فجراً لنتمكن من تهنئة الأقارب قبل نومهم. ذات مرة، اتصلت بي أختي أم احمد وهي تبكي: "علاء، لماذا تظهر لي كأنك تعيش في المستقبل؟ ."حينها لم تكن برامج التلفاز العربية تنقل عبر الأنترنيت فكنا نشعر أننا نعيش في زمن منفصل. نيوزيلندا علمتنا أن

الغربة ليست مسافةً بين الأوطان، بل هي مسافة بين العادات. لكنها أيضاً منحتنا أعيناً نرى بها العالم مقلوباً. فاكتشفنا أن الجمال موجود في كل الاتجاهات . ذات يوم، دعانا جارنا النيوزيلندي ديفيد إلى مهرجان الشواء السنوي في مزرعته. هناك، بينما كان يشرح لي كيف أن العشب النيوزيلندي الغني بالمعادن يعطي اللحم نكهته الفريدة، قال وهو يقلب قطع أل lamb chopsعلى الشواية "هذه الأغنام لا تعرف طعم الأعلاف المصنعة.. لهذا لحمها حلو كالعسل ."كان الكريسماس الأول أغرب ما مررنا به. بينما كان العالم الشمالي يحتفل بالشتاء، كنا نحتفل على شاطئ البحر- شجرة الكريسماس مزينة بأصداف البحر. - وجبة العيد عبارة عن باربيكيو بحري مع سلطة مانغو. - حتى بابا نويل في الإعلانات التلفزيونية كان يرتدي شورتاً !."هذا ليس عيداً. هذا نزهة!" كما قالت جدة حسين ماما ماجدة عندما أرسلنا لها الصور عبر البريد . في ٣١ كانون الأول/ديسمبر من عامنا الأول في نيوزيلندا، اصطحبنا رؤوف وعائلته إلى شاطئ ميشن باي Mission bayفي أوكلاند. كانت الساعة العاشرة مساءً، لكن الأطفال يلعبون بالكرة تحت أشعة شمس لم تكتمل غيابها بعد" .اليوم سنكون أول البشر الذين يودعون العام القديم!" قال رؤوف وهو يوزع علينا عصير الكيوي .عند منتصف الليل، انفجرت الألعاب النارية فوق برج سكاي تاور، حين صعدتُ إلى منصّة المشاهدة في سكاي تاور، أحسست أنّ المدينة كلها انكشفت دفعة واحدة الميناء يعانق الجزر الخضراء، والسفن الصغيرة

تبدو مثل نقاط بيضاء تتحرك ببطء فوق صفحة الماء. من ارتفاع ٣٢٨ مترًا، يتحوّل الناس إلى خطوط دقيقة، والطرق إلى خيوط فضية تمتدّ نحو الأفق. في الداخل، كان المطعم الدوّار يتيح لي أن أرى أوكلاند من كل الجهات: من البراكين الخاملة التي تحرسها من بعيد، إلى الغابات التي تنساب حول أطرافها. مع كل دورة، كان المشهد يتبدّل وكأنني أقرأ فصول كتابٍ عن مدينة تسعى إلى أن تلمس السماء. أما عند الغروب، فقد ارتسمت لوحة نادرة لون برتقالي يغرق البحر، أضواء خجولة تبدأ بالظهور في الشوارع، والبرج نفسه يتحول إلى منارة تُعلن أن أوكلاند مدينة لا تنام. بينما كنا نحتسي الشاي على الرمال الدافئة. نظرت إلى ساعتي الساعة ١٢:00 في أوكلاند = الساعة ٠٤:00 صباحاً في بغداد . ضحكت لمياء" أهالينا في بغداد ما زالوا يحظرون صحون عشاء السنة الجديدة. ونحن هنا نستقبلها قبلهم بكل هذا الوقت. نيوزيلندا علمتنا أن الزمن نسبي فالسنة الجديدة تبدأ عندنا أولاً، والشتاء يأتي في تمزز / يوليو، واللحم الطازج ليس رفاهية، بل نمط حياة. هنا، حتى الطبيعة تسير بعكس ما تعودنا عليه.. فتعيد تعريفنا للسعادة ".

عندما حصلتُ على عرض العمل من أبو ظبي، وقفنا نحن الثلاثة أمام بيتنا في ألباني نُودع الأشجار التي زرعناها بأيدينا. كانت شجرة الليمون الصغيرة قد بدأت تُنتج أول ثمارها، وكأنها ترفض أن نرحل دون أن تقدم

لنا هدية الوداع .حسين، الذي كان قد بلغ الثانية عشرة عاشرة من عمره، لفّ ذراعيه حول جذعها وقال لن أتذوق ليموناً بهذه الحلاوة إلا هنا ."في المطار، بينما كنا نستقل الطائرة المتجهة إلى الخليج، نظرتُ من النافذة لأرى جزر هوراكي Hauraki islands تختفي تحت الغيوم. نيوزيلندا، التي علمتنا كيف نبدأ من جديد، كانت الآن جزءاً من ماضينا .

أبو ظبي.. سطور من الزمن الجميل

كانت الشمس تميل نحو الغروب، مُطلقةً أشعتها الذهبية على واجهة كورنيش أبو ظبي، حيث تلامس مياه الخليج الهادئة الرمال البيضاء في رقصةٍ لا تنتهي. وقفت هناك، كأن الزمن توقف بي، عائدًا بذاكرتي البعيدة، حين كانت أبو ظبي تُخطّط بجرأةٍ لأن تكون تحفةً عمرانيةً تليق بأحلام قادتها . تعود بي الذكريات إلى صيف ١٩٨٥، حين قررت أن أزيّن عودتي إلى الوطن بزيارةٍ لشقيقتي في الإمارات. كنت قد أنهيت للتوّ دراستي للدكتوراه في باريس، تلك المدينة التي علمتني أن العمارة ليست حجارةً تُرصّف، بل روحٌ تُخلق. لم أكن أعلم أن رحلتي تلك ستكون البوابة إلى فصلٍ جديد من حياتي . كانت الرحلة عبر الخطوط الجوية الباكستانية، توقفت في القاهرة قبل أن تهبط بي في مطار دبي القديم، الذي كان آنذاك مجرد مبنى بسيط، لكنه كان ينبض بوعودٍ مستقبلية. استقبلني زوج أختي، الراحل عمار الصفار، الذي أخذني في جولةٍ عبر مدن الإمارات، كأنه

يقرأ من كتابٍ لم يُكتب بعد. الشارقة ببساطتها التراثية، دبي بشرايينها التجارية النابضة، أبو ظبي بجمالها الهادئ، والعين بحدائقها التي تروي حكايات الزمن الجميل .بعد عقدٍ من الزمن، عدت إلى أبو ظبي، لكنها لم تكن تلك المدينة التي رأيتها أول مرة. لقد تحولت إلى ورشة عملٍ ضخمة، حيث تُبنى الأحلام بحرفيةٍ لا تعرف المستحيل. كنت كبير المهندسين حينها، أشرف على مشاريع ستُغيّر وجه الإمارة إلى الأبد .كان الكورنيش لوحةً فنيةً تُرسم يومًا بعد يوم. تحوّل من شريطٍ رمليٍ بسيط إلى حديقةٍ ترفيهيةٍ تتنفس عبرها المدينة. كنت أرى في كل نخلةٍ غرسناها، وفي كل ممرٍ شيدناه، سطرًا من سطور التاريخ .كنا نخطط لجزيرة السعديات وكأننا ننحت تمثالًا للجمال. لم أكن أعلم أنها ستكون يومًا موطنًا لمتحف اللوفر أبو ظبي، لكننا كنا نؤمن بأنها ستكون جوهرةً تليق بهذه الأرض . كنا نضع الخطط على الطاولة، ونحن نعلم أننا نصنع شيئًا استثنائيًا .

لو عدنا مئة عام إلى الوراء، لوجدنا أبو ظبي قريةً صغيرةً يعيش أهلها على صيد اللؤلؤ. ثم جاء النفط، وجاء الشيخ زايد، فتحولت الرمال إلى ذهب، ليس تحت الأرض، بل فوقها .السبعينيات كانت سنوات التأسيس، حيث شُقت الطرق، وبُنيت المدارس، ووُضعت اللبنات الأولى . في الثمانينيات والتسعينيات: توسعت المدينة كأنها كائن حي، ينمو بسرعةٍ تذهل العين .

وفي الألفية الجديدة: أصبحت أبو ظبي تحفةً معماريةً، اليوم، وأنا أرى أبو ظبي وقد أصبحت أيقونةً عالمية، أدرك أنني كنت جزءًا من حكايةٍ أكبر مني. لقد علمتني هذه الأرض أن العمران ليس مجرد بناء، بل هو إرثٌ يُخلّد . ستبقى أبو ظبي في ذاكرتي كصفحةٍ من كتاب حياتي، كتبتها بأنامل الحلم، وحبر الإصرار، وورق الأمل. وكما قال الشيخ زايد "رحمه الله إن المال لا قيمة له إذا لم يُستثمر في خدمة الشعب ".

كانت أبو ظبي في عام ١٩٩٨ مختلفةً تماماً عن نيوزيلندا. كل شيء هنا يلمع تحت الشمس الحارقة: - الشوارع العريضة التي تسير عليها سيارات الدفع الرباعي الفاخرة. - الجزر الاصطناعية التي تُبنى أمام أعيننا. في أحد الأيام، بينما كنت أشرب القهوة مع مجموعة من المهندسين العراقيين، قال لي الدكتور كاظم، وهو أستاذ جامعي هُجّر من البصرة: "يا زميل، هنا المال كثير.. لكن الروح غريبة. أنا أُجهز أوراقي للهجرة إلى كندا ." كلماته



علقت في ذهني كإبرة بوصلات تشير إلى اتجاه جديد. بعد سنة في أبو ظبي، بدأت أرى أن كندا قد تكون الحل ابننا حسين يحتاج إلى نظام

تعليمي مستقر. - لمياء تريد بلداً يُشبه نيوزيلندا في هدوئه وطبيعته. - أنا أبحث عن مكانٍ لا يجعلني أشعر أنني "مغترب مؤقت ." ذات ليلة، بينما كنا نشاهد برنامجاً وثائقياً عن مونتريال، قالت لمياء: "هناك ثلوج مثل عمان.. لكنهم يعرفون كيف يعيشون معها ."بدأنا نجمع الأوراق مرة أخرى، وكأننا نعيد تمثيل نفس المسرحية مع شخصيات مختلفة.

في عام ٢٠٠٥، وخلال فترة عملي أمينًا للعاصمة بغداد، قمتُ بزيارةٍ رسمية إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث التقيتُ برئيس بلدية دبي وبمسؤولي دائرة الأشغال في إمارة أبو ظبي. كانت الزيارة مناسبةً لتبادل الخبرات في مجالات الإدارة الحضرية وتطوير البنية التحتية، في وقتٍ كانت فيه بغداد تتطلع إلى النهوض من سنوات الخراب وتحتاج إلى دعمٍ فني ومعرفي. أدهشني حينها المستوى. الرفيع من التنظيم والدقة في تنفيذ المشاريع العمرانية في دبي وأبو ظبي، والنظرة المستقبلية التي تحكم التخطيط الحضري هناك. كان الحوار مهنيًا صادقًا، يعكس روح التعاون العربي، وقد أدركتُ أن التجارب الناجحة لا



زيارة دولة الإمارات العربية المتحدة

تولد صدفة، بل تقوم على رؤية وإرادة واستمرارية في العمل.

رحلة الحج الى مكة والمدينة

كان صباح اليوم الخامس من ذي الحجة عام ١٤٢٢هـ الموافق لعام ٢٠٠١م في أبو ظبي مختلفاً. هبت نسمات خفيفة تحمل عبق الأمل، كنا نستعد لرحلة العمر. الحقائب محكمة الإغلاق، والقلوب مفتوحة على مصراعيها لاستقبال نفحات الحج. "هل تتذكرين يا لمياء يوم زفافنا وكيف حلمنا بهذه اللحظة؟" ابتسمت وعيناها تلمعان بالدموع: "والله يا لاء، اليوم نحقق الحلم... ليس لنا فقط، بل لحسين أيضاً." حسين، الفتى اليافع، كان يتأمل المطار بفضول. "بابا، كيف سنصل إلى مكة؟" سنطير أولاً إلى جدة يا بني، ومن هناك سنسير بالسيارة إلى مكة المكرمة. هكذا كانت رحلات الحجاج تقليدياً." بعد هبوط الطائرة في مطار الملك عبد العزيز بجدة، أخذنا سيارة أجرة تعبر الطريق السريع الذي يربط جدة بمكة. كانت المناظر الطبيعية تتحول تدريجياً من السهول الساحلية إلى التلال الصخرية، ثم إلى الجبال الشامخة التي تحيط بمكة. "انظروا! لافتات مكة بدأت تظهر!" صرخ حسين متحمساً. ابتسم السائق قائلاً: "أهلاً بكم في أرض الله الحرام." عند وصولنا إلى مكة، لفت انتباهنا ازدحام غير مسبوق. كانت المملكة العربية السعودية تستعد لاستقبال ملايين الحجاج رغم الأجواء الدولية المتوترة بعد أحداث أيلول /سبتمبر. لكن هنا، في أرض السلام، لم يكن هناك سوى صلوات تتعالى وقلوب تتجه إلى السماء. كانت

ساحات الحرم الشاسعة تعج بالحجاج من كل لون ولغة، لكنها أقل ازدحاماً مقارنة بالسنوات اللاحقة. لم تكن التوسعات الضخمة قد اكتملت بعد، لكن الأجواء كانت



أخّاذة. الأضواء الذهبية للمسجد الحرام تنعكس على وجوه الواقفين، والكعبة المشرفة تتوسط البناء كجوهرة سوداء تتلألأ تحت قبة السماء. "يا رب، هذا هو بيتك. هذه هي كعبتك!" همست لمياء بين دموع محاولة لمس المشاعر التي فاضت بها. حسين نظر إلى الأعلى، حيث النجوم تكاد تلامس مآذن الحرم. "أشعر وكأنني في حلم، بابا. في التاسع من ذي الحجة، وقفنا على جبل عرفة تحت شمس حارقة، لكن رياحاً لطيفة كانت تمنحنا جرعات من النقاء. الحجاج يبكون ويتضرعون، والبعض منهم يحمل مظلات تقيهم حرارة الشمس. "اللهم إن كنت قد ظلمت نفسي أو ظلمت غيري، فاغفر لي." دعيت بخشوع. حسين، الذي كان يحمل قارورة ماء بيده، نظر إلى الأفق حيث امتدت خيام الحجاج إلى ما لا نهاية. "أمي، هل كل هؤلاء سيدعون مثلنا؟". "نعم يا حبيبي، هنا الجميع سواسية." بعد انتهاء مناسك الحج، توجهنا إلى المدينة المنورة عبر الطريق الذي يربط بين المدينتين. كانت الرحلة تستغرق حوالي خمس ساعات، مروراً بمناظر

صحراوية خلابة تتناثر فيها بعض القرى الصغيرة. "بابا، هل سنزور قبر النبي ﷺ حقاً؟" سأل حسين بلهفة. "نعم يا بني، وسنزور أيضاً مقبرة البقيع حيث يرقد الكثير من أهل البيت عليهم السلام والصحابة رضي الله عنهم ." عند وصولنا إلى المدينة المنورة، كان أول ما لفت انتباهنا هو المنارة الشاهقة والقبة الخضراء التي تعلو قبر النبي ﷺ. كان المسجد النبوي يمتاز بهدوئه وجماله المعماري الفريد.



الأعمدة الرخامية البيضاء تنتظم في صفوف متوازية، والسقف المرتفع يعكس صدى الأذان بشكل مهيب. عند الدخول إلى الروضة الشريفة (ما بين المنبر والقبر)، شعر الجميع برهبة لا توصف. تقدمنا نحو الحجرة النبوية، حيث يرقد النبي ﷺ مع صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما".السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله..." بدأت لمياء تردد بصوت خافت بينما الدموع تنهمر على خديها. حسين وقف مذهولاً، ثم سأل "أبي، كيف يبدو القبر من الداخل؟" إنه مغطى بستائر خضراء جميلة يا بني، ولا يرى أحد ما بداخله، لكننا نعلم أن رسول الله ﷺ يرقد هنا مع أصحابه." بعد الصلاة في المسجد النبوي،

توجهنا إلى مقبرة البقيع التي تقع على بعد مسافة قصيرة. كانت البقيع تمتد على مساحة شاسعة، تضم آلاف القبور المغطاة بالحصى البسيط. بعضها يحمل شواهد بسيطة، هنا ترقد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام والإمام الحسن بن علي عليه السلام والعديد من الصحابة الكرام، وأمهات المؤمنين، رضي الله عنهم أجمعين وقفنا عند المدخل وقلت لحسين: "هنا يرقد من عاشوا مع النبي ﷺ أو جاهدوا في سبيل دينه." حسين نظر حوله باحترام: "هل يمكننا الدعاء لهم يا أبي؟"بالطبع يا بني، بل إن الدعاء عندهم مستجاب بإذن الله." قبيل مغادرتنا المدينة المنورة، جلسنا في الروضة الشريفة نتأمل اللحظات الأخيرة".يا علاء، كيف سنعود إلى حياتنا العادية بعد كل هذا النور؟" سألت لمياء".لن نعود كما كنا... الحج يغير الإنسان"، أجبتها وانا امسك بيدها ويد حسين. وفي طريق العودة إلى جدة ثم أبو ظبي، كان كل منا يحمل في قلبه ذكريات لن تُمحى شعرت بأني وُلدت من جديد. لمياء وجدت السلام الذي طالما بحثت عنه. حسين عاد بقلب مليء بالإيمان، عازماً على العودة كلما استطاع. رغم مرور أكثر من عقدين على تلك الرحلة وتفاصيلها بقيت محفورة في قلوبنا. فالحج ليس مجرّد رحلة جسدية، بل هو رحلة أرواح تلتقي عند بيت الله، ثم تعود إلى الدنيا بحكايات تروى للأجيال. قبل دخولنا المدينة المنورة، توقفنا عند مسجد القبلتين الذي يقع على بعد ٤ كيلومترات من المسجد النبوي. كان المبنى الأبيض البسيط يخفي وراءه قصة عظيمة من

التاريخ الإسلامي. "هذا يا حسين أحد المساجد القليلة في العالم التي تحمل اسمين! بناه الصحابة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكان المسلمون يصلون فيه نحو بيت المقدس كما كانوا يفعلون في مكة." "ثم ماذا حدث بابا؟" سأل حسين باهتمام. "في السنة الثانية للهجرة، بينما كان النبي ﷺ يصلي الظهر هنا، نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي: {قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: ١٤٤]. فتحول النبي ﷺ أثناء الصلاة مع المصلين من جهة القدس إلى الكعبة! ومنذ ذلك اليوم سُمي هذا المكان بمسجد القبلتين. عند دخولنا، لاحظت المحرابين - أحدهما باتجاه القدس والآخر نحو مكة. وقفت لمياء عند المحراب القديم وهي تلمس الحجر بخشوع":تخيلوا، هنا وقف المسلمون وهم يغيرون اتجاه صلاتهم في لحظة واحدة بأمر الله هذا التغيير لم يكن مجرد اتجاه جغرافي. لقد كان اختباراً للمؤمنين، كما قال تعالى:

{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ} [البقرة: ١٤٣].

كندا... الوطن الجديد

في صباحٍ مشمس من مطلع عام ٢٠٠١، حملنا أمتعتنا وأحلامنا إلى مطار أبو ظبي، ونحن نقفز فوق خيوط القلق والأمل. تسلّقت بنا الطائرة الفرنسية إلى عنان السماء، فهبطت بنا مؤقتًا في باريس حيث انتظرنا ثلاث ساعات، ثم واصلنا الرحلة نفسها نحو أرض جديدة، كندا. عندما غادرنا الطائرة في مطار Pearson، شعرنا أن الوسادة الكبيرة من الثلج والضباب تُطمئن قلوبنا وتُخبرنا أنّ فصلًا جديدًا قد بدأ.

كان المطار ينبض بالحياة والوجوه المتعجلة، وخارجه امتدت مدينة تورونتو مترامية على ضفاف الأحلام؛ التي تفتح ذراعيها للقادمين. استأجرنا أولاً شقة مفروشة في منطقة تدعى مسيساكا قريبة من Square One، ذلك القلب التجاري الذي بدا لنا وكأنه منارةٌ صغيرة تُعلمنا أين نضع خطواتنا الأولى.

أبقى الكنديون أسماء القبائل الأصلية على عدد من المدن والمناطق – مثل **ميسيساكا – (Mississauga)** تقديراً واحتراماً للشعوب الأصلية التي سكنت هذه الأراضي قبل وصول المستوطنين الأوروبيين. فهذه الأسماء ليست مجرد كلمات، بل تحمل في طياتها تاريخاً طويلاً وثقافةً عميقة تعبّر عن علاقة السكان الأصليين بالطبيعة والمكان. من خلال الحفاظ على

هذه الأسماء، تسعى كندا إلى الاعتراف بجذور البلاد الأصلية وتكريم إرث الأمم الأولى (First Nations) التي كانت لها مساهمة أساسية في تشكيل هوية كندا الحديثة. كما أن إبقاء هذه الأسماء يُعدّ وسيلة للحفاظ على الذاكرة التاريخية والتذكير المستمر بأن هذه الأراضي كانت موطناً لشعوب وثقافات عريقة منذ آلاف السنين.

استأجرنا سيارة حيث أن رخصة سوقنا الإماراتيّة ستمنحنا بعض الوقت من الحرية على الطرق. كانت الأوراق والإجراءات الإدارية امتحانًا آخر للحياة وأكملنا أوراق الإقامة، وتلقفنا بطاقات التأمين الصحي التي بدت كأوراق عهدٍ بحمايةٍ جديدة. استخرجنا بطاقة الإقامة الدائمة؛ لحظةٌ رسمت على وجوهنا ارتياحًا هادئًا. ذهبت أنا ولمياء إلى مراكز الامتحان وقطعنا خطوات التعلم لاجتياز اختبار القيادة، وكانت دماؤنا تهفو لأن نعطي حسين حياةً أكثر أمانًا واستقرارًا.

تسلّمنا بطاقة الإقامة الدائمة في كندا، وكانت تلك اللحظة أشبه بفتح نافذة على مستقبلٍ جديد .بطاقة صغيرة، لكنها حملت في طياتها وعدًا بالأمان، وبداية لمسار طويل من الاندماج والتجدد. كنا نحمل في قلوبنا بغداد، بتاريخها العريق، بجسورها وأسواقها، بذكريات الطفولة وصدى المآذن، وها نحن نخطو أولى خطواتنا في وطنٍ جديد، مختلف في ملامحه، لكنه رحبٌ في إنسانيته.

حين حصلنا على بطاقة الإقامة الدائمة في كندا عام ٢٠٠١، شعرنا أن الأرض البعيدة التي كنا نراها في الخرائط قد تحوّلت إلى وطنٍ حقيقي، وطنٍ لا يسألنا من أين جئنا، بل يسألنا ماذا نحمل من قيم وأحلام. في تلك اللحظة، تذكّرتُ قول الله تعالى في سورة النساء":ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة "كأن الآية كانت تخاطبنا، نحن الذين غادرنا بغداد وفي القلب غصة، وفي اليد حفنة من الذكريات. وجدنا في كندا سعةً في القانون، وسعةً في الكرامة، وسعةً في الحلم. لم تكن الهجرة خيانةً للجذور، بل كانت امتدادًا لها، بحثًا عن تربةٍ جديدة تنبت فيها القيم ذاتها التي نشأنا عليها: الاحترام، العمل، والرحمة. سجلنا حسين في مدرسةٍ تناسب عمره، وكنت أراقب بقلقٍ مزيجُه شوقٌ وأمل، كيف سيتأقلم مع مدينة جديدة وهي المدينة الرابعة التي ينتقل اليها وهو في عمره بعد عمان في الأردن وأوكلاند في نيوزلندا وأبو ظبي ويكوِّن صداقاتٍ ستدفئ قلبه في شتاء بعيدٍ عن موطنه. ثم، بعد أسابيع من التجوال والتأقلم، انتقلنا إلى شقة دائمة قريبة من مدرسة حسين، وكأن المدينة نفسها أرادت أن تضعنا في كنفها حول مصدر الطمأنينة الأول ابننا. في ليالٍي كنا نجلس فيها أمام نافذتنا الصغيرة، نرى أضواء الشوارع تتلوى وتسبح، وأنين الريح يخترق أطراف الأشجار، كنا نتحدث عن البدايات: عن الخوف الذي شاهدناه عند السفر، عن العبور من مطارٍ إلى آخر، عن الصفحات الإدارية التي وقعت عليها أيدينا، وعن لحظات الانتصار

الصغيرة البطاقة، الرخصة، المدرسة. كان كل ذلك ينسج قصةً جديدة، قصة عائلة هجرت لتبتدع لنفسها وطنًا بالعمل والصبر، فتتحول مدينةٌ غريبة إلى بيتٍ يحتضننا، وإلى مستقبلٍ نمتلكه بأيدينا.

ثلج كندا

في اول شتاء في كندا، كان للثلج لغةٌ خاصة فهو ليس مجرّد فصلٍ أبيض يمرّ، بل **حكاية تتجدّد كل عام**، تبدأ مع أول ندفة تهبط في صمت، وتنتهي



حين يذوب آخر أثرٍ منها في ربيعٍ متأخر. حين تتساقط الثلوج، يصبح كل شيءٍ نقيًا، كأن العالم يبدأ من جديد. البيوت الحمراء تختبئ تحت الغطاء الأبيض، والأشجار تنحني في خشوع، والهواء يمتلئ برائحة البرد التي توقظ الذاكرة. لكن خلف هذا الجمال، هناك تعبٌ يوميّ: مجارف، وأحذية سميكة، وأنفاس تتصاعد كالدخان. ومع ذلك، فإن الكنديين يتعاملون مع الثلج كما يتعامل الشعراء مع الكلمات يزيلون الزائد ليكشفوا الجمال. وفي كل صباحٍ مغطّى بالثلج، تشعر أنك تشارك في طقسٍ مقدّس بين الإنسان والطبيعة، بين **البياض والنور، والبرد والدفء الإنساني** الذي لا ينطفئ.

كندا: بدايات الاكتشاف

بعد أشهر وحين استقرّت بنا الحياة في كندا، اخترنا أن تكون أولى رحلاتنا نحو شلالات نياجرا، ذلك المعلم الطبيعي القريب من مسكننا على مسافة لا تتجاوز مئة كيلومتر. الطريق إليها كان قصيرًا، لكن المشهد الذي انتظرنا هناك كان كفيلًا بأن يفتح صفحة جديدة في علاقتنا مع هذا الوطن. سمعنا هدير المياه قبل أن نراها، وما إن اقتربنا حتى واجهتنا قوة الطبيعة في صورتها الأبهى مياه تتساقط من علوّ شاهق بلا توقف، رذاذ يتصاعد ليبلل وجوهنا، وقوس قزح يتشكل في الأفق كأنه توقيع الطبيعة على هذا المشهد الخالد. وقفنا معًا، كعائلة مهاجرة، نشعر أن هذا ليس مجرد شلال، بل رمزٌ لاستقبالنا الأول في كندا. بينما كنت أتابع هدير المياه في نياجرا وهي تهوي بلا توقف، خطرت ببالي صورة دجلة في بغداد. النهر الذي كان يمنح الحياة ويُغني الأرض بالخصب، هو نفسه الذي كان يفيض أحيانًا ويهدد بيوتها. أدركت أن الماء في كل مكان يحمل الوجهين: العطاء والخطر، وأن المدن العريقة لا تنجو إلا إذا عرفت كيف تتعايش مع قوتهما معًا. لكن كندا لا تُختصر في طبيعتها وحدها. لذلك واصلنا اكتشافها عبر مدنها.

توجهنا إلى العاصمة أوتاوا، وهناك أمضينا يومين نتأمل مبنى البرلمان بأبراجه القوطية وساحة "Peace Tower" التي ترمز إلى الاستقرار

والذاكرة. بدت لنا أوتاوا مدينة هادئة، شوارعها مرسومة ببساطة مدروسة، ومساحاتها الخضراء تمنحها طابعًا متوازنًا بين الرسمي واليومي. شعرنا أننا أمام قلب سياسي هادئ، بعيد عن صخب العواصم الكبرى، لكنه يختزن رمزية بلد واسع. من أوتاوا واصلنا إلى مونتريال، المدينة التي منحتنا شعورًا خاصًا بالألفة بفضل لغتها الفرنسية التي نتقنها جميعًا. أمضينا هناك ثلاث ليالٍ بدت كأنها عودة إلى فصل من حياتنا السابقة في فرنسا، لكن على أرض جديدة. مونتريال مدينة متعددة الطبقات: في النهار تراها مدينة حديثة بأبراجها الزجاجية وميادينها المزدحمة، وفي الليل تسحرك "المدينة القديمة" بأزقتها المرصوفة وكنائسها الباروكية. شعرتُ كمخطط حضري أن مونتريال تحمل تحديًا حضاريًا نادرًا: كيف تحافظ على هويتها الفرنسية وسط محيط أنجلوسكسونية قوي؟ كانت المدينة بالنسبة لنا جسرًا بين ثقافتين، ومكانًا يمنح المهاجر إحساسًا أنه ليس غريبًا تمامًا. في شوارع مونتريال، حيث تتجاور الفرنسية والإنكليزية في كل لافتة وكل محادثة، تذكرت بغداد التي عاشت يومًا تنوعًا حضاريًا شبيهًا: عربيًا، وفارسيًا، وتركياً، وغربياً. لكن بغداد، على عكس مونتريال، لم تُحسن دائمًا أن تجعل هذا التنوع جسرًا للقوة، بل تحول أحيانًا إلى جدران من الخلاف. هنا، شعرتُ كمهاجر أن الهوية لا تُبنى بالانغلاق، بل بالقدرة على جعل التعدد ثروة. ثم واصلنا رحلتنا إلى مدينة كبيك، (Québec City)الجوهرة المطلة على نهر سان لوران. أسست عام ١٦٠٨، وتُعد من أقدم المدن في

كندا وأميركا الشمالية هي عاصمة مقاطعة كبيك وتحتفظ بهويتها الفرنسية بلهجتها، ثقافتها، وعمارتها، حتى أن سكانها يلقّبونها بـ "العاصمة الوطنية".

قضينا يومين في المدينة القديمة (Vieux-Québec) وقلعتها الشهيرة شاتو فرونتناك (Château Frontenac) التي تهيمن على المشهد كحارسة للزمن والأسوار التاريخية التي تطوّق المدينة تجعلها المدينة الوحيدة المحصّنة في أميركا الشمالية شمال المكسيك. هنا، كل شارع ضيق مرصوف بالحجر يحملك إلى قرون مضت، وكل بيت ملون أو مقهى صغير يذكّرك بروح أوروبا. المدينة بدت لنا لوحة نابضة بالتاريخ، لكنها تحمل نكهة كندية خاصة. ونحن نتجول بين أزقتها، شعرنا أن الهجرة ليست قطيعة مع الماضي، بل امتداد له في أرض جديدة. هكذا، من هدير نياجرا إلى صمت أسوار كبيك، كانت رحلتنا الأولى إعلانًا غير مكتوب أن كندا لا تُعرف من خريطة، بل تُكتشف خطوة بخطوة، وأن العائلة المهاجرة لا تبحث فقط عن مكان تسكنه، بل عن وطن يكتسب معناه من المدن والطبيعة معًا.

تورونتو مدينتنا المضيافة

بعد تلك الرحلات الأولى التي أخذتنا إلى نياجرا والشرق الكندي، عدنا لنواجه مدينتنا مسيسّاكا في تورونتو، الكبرى المكان الذي اخترناه مقرًّا

للاستقرار وبداية حياتنا الجديدة. إذا كانت نياجرا قد قدّمت لنا وجه كندا الطبيعي، وأوتاوا وجهها الرسمي، ومونتريال وكيبيك وجهها التاريخي، فإن تورونتو قدّمت لنا وجهها الحاضر، بكل ما فيه من طموح وتنوع وتناقضات .تورونتو مدينة لا تعرف الصمت. أبراجها الزجاجية ترتفع في أفق يزداد امتلاءً كل عام، وبرج:" CN " يظل شاخصًا كرمز للحداثة والهوية الكندية الجديدة. التخطيط الحضري هنا يعكس واقع مدينة عالمية: طرق سريعة تحيط بها، أحياء سكنية واسعة الامتداد، ومركز مالي وتجاري ينبض بالحياة ليلًا ونهارًا. ومع ذلك، وسط هذا الصخب، تحتفظ تورونتو بوجه إنساني؛ حدائقها العامة على امتداد المدينة، ومساحاتها المفتوحة على بحيرة أونتاريو تمنحك لحظة هدوء وسط ازدحام المدينة.



بالنسبة لنا كعائلة مهاجرة، كانت تورونتو المكان الذي تداخلت فيه الهويات. في شارع واحد تسمع عشرات اللغات، وتجد مطاعم من كل مطابخ العالم. لم نشعر أننا غرباء، لأن الغربة نفسها. هنا تكاد تكون قاعدة مشتركة؛ الجميع جاء من مكان آخر، والجميع يبحث عن جذور جديدة. على المستوى الشخصي.

مدينتنا الجميلة مسيسّاكا Mississauga

كنتُ أنظر إلى ميساسيكا بعين المهندس والمخطط الحضري. رأيتُ فيها مدينة تتوسع بلا توقف، تتصارع مع تحديات النقل العام، والسكن، والتكامل بين أحيائها. لكنها في الوقت نفسه مدينة تتعلم أن تكون مرنة، تتسع للجميع، وتجد في تنوعها مصدر قوة بدلًا من أن يكون عبئًا. أما على المستوى العائلي، فقد كانت ميساسيكا مدرستنا الأولى في الاندماج. هنا درس حسين، هنا وجدنا أصدقاء من ثقافات متعددة، وهنا بدأنا نشعر أن الوطن ليس مجرد أرض جديدة، بل شبكة علاقات وذكريات تُبنى يومًا بعد يوم. مسيسّاكا Mississaugaجذورها أقدم من أن تكون مجرد مدينة حديثة؛ أرض سكنها شعب أل Anishinaabe المعروف بـ "مسيسّاكا) "من العبارة الأصلية التي تُنطق تقرِيبيًا(Misi-zaagiing ، أي «أهل مصبّ النهر



الكبير» أو «السكان على ضفاف المجرى الكبير»، وكانوا يعيشون ويصطادون ويتنقلون في هذه المنطقة طيلة قرون قبل وصول المستوطنين الأوروبيين. أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وعرفت المنطقة اسمها وتشكّلت بلداتها وقرىً صغيرة على طول طرق التجارة والمرور إلى بحيرة أونتاريو تحولت

المنطقة تدريجيًا مما كان يُعرف بـ "Toronto Township" في القرن التاسع عشر إلى كيانٍ حضريٍ موحّد.

أُنشئت بلدية مسيسّاكا كبلدة مُنظمة في أواخر الستينات (١٩٦٨) ثم نالت صفة المدينة[6] خلال أوائل السبعينات (١٩٧٤)، ما مثّل خطوة رسمية في مسارها نحو التحول العمراني والصناعي. مسيسّاكا قرينٌ لتورونتو تقع غربها مباشرة وتشكل جزءًا أساسيًا من منطقة تورونتو الكبرى .(GTA) العلاقة بين المدينتين علاقة اعتمادية متبادلة مسيسّاكا توفّر مساكن وبنية تحتية لآلاف العاملين الذين يتنقلون إلى تورونتو يوميًا، وفي الوقت نفسه تستفيد من قربها الاقتصادي والتجاري من مركز الأعمال في تورونتو ومطار بيرسون الدولي. وصلات الطرق السريعة وخدمات النقل العام مثل (GO Transit) تربط المدينتين تعد مدينة مسيساكا إحدى المناطق الحضرية المهمة ضمن النسيج الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة تورونتو الكبرى.

---

[٦] من الناحية التخطيطية نطلق كلمة مدينة عندما يصبح التجمع السكاني نقطة جذب إقليمي، ويمتلك بنية تحتية متكاملة، وتنوعاً وظيفياً في استعمال الأرض.,وفي كندا يجب تجاوز عدد السكان ١٠,000 نسمة وما فوق

منذ بداية الألفية الجديدة، شهدت المدينة تطورًا مستمرًا على ضفاف بحيرة أونتاريو، حيث تتداخل الطرق والسكك الحديدية وتبرز الميادين بجوانبها المتعددة. تتمتع المدينة بموقع استراتيجي قريب من تورونتو ومطار بيرسون الدولي، وقد ساهمت البنية التحتية للنقل والسياسات التخطيطية الحضَرية في دعم النمو المنظم للمدينة. تضم مسيساكا شبكة من الفرص الاقتصادية جذبت مراكز توزيع وشركات مختلفة وعدداً من الخدمات، مما ساهم في نمو الأحياء وازدياد عدد السكان الذين يبحثون عن الاستقرار وفرص العمل. شهدت المدينة هجرة داخلية وخارجية عززت التنوع الثقافي وزادت الكثافة السكانية، وارتفع الطلب على أنماط متنوعة من المساكن، من المنازل العائلية إلى الشقق القريبة من وسائل النقل والمرافق الأساسية.

تُعد مدينة مسيساكا نموذجًا حضريًا يوفر مجموعة واسعة من الخدمات والمرافق التي تستجيب لاحتياجات الأسر وتدعم جودة الحياة اليومية. تضم المدينة مؤسسات تعليمية متنوعة تشمل المدارس والكليات، بالإضافة إلى مكتبات تقدم مصادر معرفية غنية ومراكز مجتمعية توفر مجموعة أنشطة في الرياضة والفنون وبرامج موجهة لجميع الأعمار. كما تشهد المدينة اهتمامًا بالمساحات الخضراء عبر الحدائق والمسارات المطلة على الواجهة المائية والمحميات الطبيعية التي تدعم التنوع البيئي، إضافةً إلى الملاعب التي تعزز قيم التعاون واللعب لدى الأطفال. أحياء

تتشكل، مدارسٌ تفتح أبوابها، ومراكزُ صحيةٌ تُعزّز مناعتها، بينما تواصل المدينة رسم معالمها كموطنٍ دافئٍ في قلب منطقةٍ كبرى.

تعودنا ان نتناول طعام الغذاء في مطاعم عربية في نهاية الأسبوع ثم صارت تورونتو، بزيارتنا المتكررة كصفحةٍ واسعةٍ نقرؤها معًا ببطءٍ ودهشة. كانت المسافة بين مسيسّاكا وتورونتو مجرد رحلةٍ قصيرة على الطريق، لكن المدينة نفسها تشعرك في عالمٍ آخر أفقٌ من ناطحات سحابٍ زجاجية يلمع في النهار، وشوارعٌ تعجّ بالمشاة، ومزيجٌ من اللغات والألوان ينساب في الأزقّة والساحات. كل زيارة كانت درسًا بصريًا في الهندسة العمرانية؛ ساحات عامة تعانق المباني، واجهاتٍ متباينة تروي تاريخ الحي وحيويته، وطرقٍ مُعاد تصميمها لتخدم المشاة والدراجين قبل أن تخدم السيارات. شهدت تورونتو تحولًا من مناطق صناعية إلى مجمعات سكنية وتجارية، ونفذت مشاريع تجديد حضري زادت كثافة وسط المدينة وأضافت مساحات عامة على الواجهة المائية. تمازجت المباني الحديثة والتاريخية لتشكل نسيجًا حضريًا متنوعًا يحافظ على هويته ويتطور باستمرار، كما لعبت خطوط النقل دورًا رئيسيًا في تغيير أسلوب الحياة والتوسع في المدينة. في العام التالي، بدأ حسين دراسة تخطيط المدن بجامعة Ryerson، مما جعلنا نشعر بالفخر ونتعرف أكثر على مدينة تورونتو. خلال زياراتنا معه، شرح لنا كيف تتطور الأحياء من مصانع

قديمة إلى مجتمعات نابضة، وأوضح طرق تصميم الشوارع والمساحات العامة لتدعيم الحياة الاجتماعية.

أصبحنا نلاحظ ونقرأ تفاصيل المدينة عبر معالمها العمرانية والثقافية؛ بدءًا من الكريدور الثقافي، وهو ممر يجمع المؤسسات الفنية، مرورًا بالأحياء الساحلية المطلة على البحيرة، وصولًا للعناصر الحضرية مثل المقاعد والإنارة والواجهات. ساهمت هذه الجولات في فهمنا لدور التصميم الحضري في تحسين تجربة العيش والمشي داخل المدينة. تقدم المدينة خدمات رعاية طويلة الأمد ورعاية منزلية لضمان الدعم الصحي للأسر. وتعمل البلدية على تطوير البنية التحتية وتجديد وسط المدينة ورفع الكثافة السكانية، مع الحفاظ على البيئة والمجتمع. يدعم هذا الهيكل الإداري مجتمعاً متنوعاً يزخر بالفعاليات الثقافية والمهرجانات التي تعزز من مستويات الترابط الاجتماعي وتثري الحياة اليومية للسكان. وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى ترسيخ مكانة مدينة مسيساكا كوجهة مفضلة للعائلات، مع استمرار المدينة في النمو ومساهمة السكان بشكل فعّال في رسم ملامح فصول جديدة في تاريخها الحضري.

بعد عودتي من بغداد نهاية عام ٢٠٠٥ سّست شركة **Urban Reform Consultant** عام ٢٠٠٦ كمؤسسة هندسية استشارية تُعنى بإدارة المشاريع وتطوير المدن وفق معايير عالمية تجمع بين الخبرة التقنية

والرؤية الإنسانية. كانت الفكرة امتداداً لرحلة مهنية بدأت في بغداد، واستمرّت في المهجر بعقلية عراقية مؤمنة بأن المعرفة لا تتوقف بالحدود، وأنّ الإبداع الحقيقي يُترجم حين يُمنح صاحبه بيئة حرة وآمنة للعمل.

لقد كانت هذه الشركة مثالاً على ما يمكن أن يقدّمه العراقي أينما حلّ؛ فحين تتوفّر له الظروف المناسبة، يُصبح منتجاً ومبدعاً، لا ينغلق على ذاته، بل يسهم في بناء مجتمعه الجديد بروحٍ من الانتماء والمسؤولية. في الغربة، لم تكن Urban Reform Consultant مجرد شركة استشارية



هندسية، بل مساحةً لاستمرار الحلم العراقي في الإصلاح والعمران، وللتعبير عن عقلٍ مهجريّ ظلّ يرى في كل مدينةٍ فرصة لإعادة اكتشاف معنى المدينة ذاتها.

زيارة الغرب الكندي- مقاطعة ألبرتا

بعد عامين من استقرارنا في كندا، قررنا أن نفتح فصلًا جديدًا من رحلتنا لاكتشاف هذا الوطن الواسع. كان ذلك في شهر تموز، حين خترنا أن نتوجه بالطائرة نحو الغرب الكندي، إلى مدينة كالكاري (Calgary) التي تقع في غرب كندا، عند نقطة التقاء البراري مع جبال الروكي.

كالكاري بوابة الغرب الكندي ومدينة التناقض الجميل بين ناطحات السحاب الحديثة ومروج البراري الممتدة عند أقدام جبال الروكي. أمضينا ليلتين هناك نتعرف على مدينة مختلفة في روحها عن مدن الشرق التي زرناها سابقًا. كالكاري بدت مدينة عملية، متأثرة بتاريخها كمركز للطاقة والنفط، لكنها في الوقت نفسه تحتفظ بملامح الغرب الكندي، بأسواقها، ومبانيها المتوسطة الارتفاع، ومساحاتها المفتوحة على سهول لا تنتهي لكن مقصدنا الأعمق لم يكن كالكاري وحدها، بل مدينة (Banff)هي جوهرة جبال الروكي الكندية بنف وعظمة الطبيعة البرية ورقة المشهد السياحي. حيث تبدأ الطبيعة الكندية في الكشف عن سرّها الأعظم. الطريق من كالكاري إلى بَنف كان بحد ذاته مشهدًا متغيرًا؛ من سهول ممتدة إلى جبال الروكي التي ترتفع فجأة أمامك كجدران شاهقة مكسوّة بالخضرة والثلوج. في بَنف، (Banff) أحسسنا أننا دخلنا عالَمًا مختلفًا: بحيرات بلون الفيروز، غابات كثيفة، وهواء نقي يذكّرك بأنك في حضرة

طبيعة لم تُفسدها يد الإنسان. والأروع من ذلك كان حديقة بَنف الوطنية، حيث تتجول الدببة بحرية في موطنها الطبيعي، غير مكترثة بالسياح الذين يلتقطون الصور من بعيد. كان المشهد بالنسبة لنا درسًا آخر في فلسفة كندا الطبيعة هنا ليست للزينة، بل كيان مستقل يُحترم، يُترك ليعيش وفق قوانينه الخاصة. قضينا أيامًا في بَنف (Banff)كأنها استراحة روحية. كنا نمشي بين الجبال ونقف على ضفاف البحيرات، وداخلنا شعور أننا لسنا مجرد زائرين، بل شهود على جلال الطبيعة في أنقى صورها. كانت تلك الرحلة امتدادًا لرحلتنا الأولى، لكنها أعمق وأكثر اتساعًا، إذ عرّفتنا على وجه آخر لكندا، وجهها الجبلي البري الذي يعلّمك التواضع أمام عظمة الخلق.

نحو فانكوفر عبر الجبال

بعد يومين من التجوال بين جبال **بَنف** (Banff)وقراها الصغيرة المحيطة، حيث كانت الطبيعة تُبهرنا في كل منعطف، قررنا أن نتابع الرحلة غربًا نحو مدينة فانكوفر (Vancouver) جوهرة الساحل الغربي لكندا، حيث يلتقي المحيط بالجبال، والتنوع الثقافي بالطبيعة البكر. الطريق لم يكن قصيرًا، لكنه كان كرحلة داخل لوحة متحركة؛ جبال الروكي ترافقنا بقممها المكللة بالثلوج حتى في قلب الصيف، والأنهار تنساب على جوانب الطريق كخيوط فضية متلألئة تحت الشمس. توجهنا في رحلة طويلة عبر الطرق

الجبلية، كان الطريق طويلاً، يمتد لمئات الكيلومترات عبر الجبال والغابات والأنهار، لكنه لم يكن طريقًا يُملّ؛ بل بدا كرحلة داخل مشهد سينمائي يتغير كل ساعة، توقفنا مرتين للمبيت في فنادق صغيرة على الطريق.

في كل مرة كانت التجربة مختلفة فنادق بسيطة، لكن موقعها وسط الطبيعة جعلها تبدو كمنتجع صامت بعيد عن العالم. أتذكر أن الليل في تلك المناطق كان له سحر خاص؛ هدوء مطبق لا يقطعه سوى خرير النهر أو صوت طائر يمرّ بين الأشجار، والسماء مرصعة بالنجوم بشكل لم نكن نراه في المدن الكبرى. كان شعورنا أننا نعيش لحظة عزلة مريحة، تمنحنا فرصة للتأمل في الرحلة وفي حياتنا الجديدة كعائلة اختارت أن تبدأ من هنا، في كندا. مع كل صباح، كنّا نعود إلى السيارة ونتابع الطريق. تدريجيًا بدأت الجبال تتراجع، وبدأ البحر يلوح من بعيد، كأنه يبشّرنا بالوصول. ومع اقترابنا من فانكوفر، أخذت الطبيعة تتداخل مع مظاهر المدينة: مرافئ ممتدة، جسور شاهقة، وأفق يتلألأ بأبراج حديثة خلفه المحيط الهادئ. الطريق من بَنف إلى فانكوفر لم يكن مجرد انتقال جغرافي؛ كان رحلة بطيئة في قلب كندا العميقة، حيث الطبيعة ما تزال سيدة المكان، وحيث يشعر المرء أن المسافات الطويلة ليست عائقًا، بل فسحة للتأمل والانتماء. حين دخلنا فانكوفر بعد ذلك الطريق الطويل عبر الروكي، شعرنا أننا أمام مدينة مختلفة عن كل ما رأيناه من قبل. هنا يتعانق البحر مع الجبل في مشهد يكاد لا يتكرر: من جهة أبراج زجاجية حديثة تعكس ضوء

الشمس، ومن الجهة الأخرى قمم جبال خضراء ترتفع كحائط طبيعي يحيط بالمدينة. وكأن فانكوفر أرادت أن تقول للعالم إنها ليست مجرد مدينة، بل لوحة مرسومة بعناية بين الطبيعة والعمران.

من الناحية الحضرية، بدت فانكوفر مدينة حديثة تخطط لنفسها بعينٍ على البحر وأخرى على الجبل. وسطها التجاري مليء بناطحات السحاب التي تجعلها تبدو كمدينة عالمية، لكنك لا تحتاج إلى أكثر من دقائق لتجد نفسك في متنزه أو على شاطئ مفتوح .ستانلي بارك، على سبيل المثال، بدا لنا كغابة داخل المدينة مسارات للدراجات والمشاة تمتد على طول الساحل، ومشاهد بانورامية تجمع بين المرفأ والأفق. ومن المحطات اللافتة في زيارتنا كانت جولتنا في منشآت الألعاب الأولمبية الشتوية التي أقيمت هنا عام ٢٠١٠. زرنا ميادين التزلج والمرافق التي ما تزال قائمة وتستعمل حتى اليوم. كانت تجربة مدهشة أن نرى كيف يمكن لمدينة أن تستثمر حدثًا رياضيًا عالميًا وتحوّله إلى جزء من حياتها اليومية وسياحتها. بالنسبة لنا كعائلة، كان الأمر أكثر من مجرد زيارة؛ كان بمثابة تأمل في إرثٍ عمراني ورياضي حيّ.

في شوارع فانكوفر لاحظنا تنوعًا بشريًا مذهلًا. مهاجرون من آسيا، وأوروبيون، وكنديون أصليون، جميعهم يعيشون في مدينة واحدة تتكلم بلغات متعددة. بالنسبة لنا كعائلة مهاجرة، كان هذا المشهد مطمئنًا: الغربة

هنا لم تكن استثناءً، بل كانت جزءًا من نسيج المكان. أما من ناحية الحياة اليومية، فقد بدت فانكوفر أكثر هدوء من تورونتو، لكنها أيضًا أكثر قربًا من الطبيعة. البحر دائمًا في الأفق، والجبال دائمًا في الذاكرة، وهذا التوازن بين صخب المدينة وهدوء الطبيعة هو ما جعلها تبدو مدينة مثالية للعيش أو للاستراحة.

وأنا أتأمل فانكوفر حيث الجبل يطل من الشمال والبحر يمتد من الغرب، شعرت بالأسى على بغداد .تلك المدينة التي كان يمكن أن تكون مثل فانكوفر، متصالحة مع دجلة وبساتينها، لكنها تركت عمرانها يلتهم ماءها وخضرتها. فانكوفر بدت لي مثالًا على ما يمكن أن يحدث حين يختار الإنسان أن يعيش مع الطبيعة لا ضدها. وحين أنهينا رحلتنا، ركبنا الطائرة عائدين إلى تورونتو، ونحن نحمل في ذاكرتنا صورًا يصعب نسيانها الجبال، البحيرات، الطرق الطويلة، وأفق فانكوفر الذي يجمع البحر والسماء. ولم تكن تلك آخر مرة نزور فيها هذه المدينة، فقد عدنا إليها بعد سنوات في رحلة ثانية، لنكتشف وجوهًا جديدة لها ونؤكد مرة أخرى أن المدن العظيمة لا تكشف أسرارها من زيارة واحدة.

زيارة مقاطعات الأطلسي في الشرق الكندي

بعد أن جُبنا مدن الشرق الكبرى في رحلتنا الأولى، واستكشفنا جبال الروكي وفانكوفر في رحلتنا الثانية، قررنا في رحلتنا الثالثة أن نتجه شرقًا، إلى مقاطعات الأطلسي حيث البحر حاضرٌ في كل تفاصيل الحياة. بدأنا الرحلة بالطائرة إلى هالي فاكس، (Halifax)عاصمة مقاطعة نوفا Nova Scotiaعلى الساحل الشرقي لكندا، وتُعد من أقدم وأهم الموانئ في أمريكا الشمالية. ونافذة الأطلسي التي جمعت بين تاريخ البحر وروح المدينة الحديثة. أسسها البريطانيون عام ١٧٤٩ كقاعدة عسكرية وتجارية، ومنذ ذلك الحين ارتبط اسمها بالبحر والهجرة والدفاع بدت المدينة مختلفة عن كل ما عرفناه في كندا شوارع تنحدر نحو المرفأ، وأبنية متوسطة الارتفاع تحرص ألا تحجب الأفق البحري، وأجواء تعكس هوية بحرية صافية. لكن ما جعل زيارتنا لا تُنسى كان دخولنا إلى متحف الأطلسي البحري، حيث خُصص قسم كامل لـ قصة الباخرة تيتانك (Titanic) وهي واحدة من أكثر الحكايات التي بقيت عالقة في الذاكرة الإنسانية، بين العظمة التكنولوجية والكارثة المأساوية. داخل القاعة المظلمة، وقفنا أمام قطع أصلية انتُشلت من أعماق البحر: سترات نجاة باهتة اللون، أدوات شخصية صغيرة، وأوانٍ مكسورة تحمل أثر الحياة

اليومية التي توقفت فجأة في تلك الليلة من عام ١٩١٢. كانت هناك صور للضحايا وقوائم بأسمائهم، تجعل الكارثة أقرب إلينا من مجرد تاريخ بعيد.

ما أثّر فينا جميعًا أن هالي فاكس لم تكن بعيدة عن الحادثة، بل كانت المدينة التي استقبلت الجثامين ودفن الكثير منهم في مقابرها. حسين وقف طويلًا أمام صورة أحد الأطفال الذين غرقوا، ثم التفت إليّ وسأل بابا، هل كان ممكن أن يُنقَذوا لو كانت السفينة أقوى؟ "بينما بدا الحزن على ملامحه وهو يتأمل سترات النجاة والأشياء الصغيرة التي تعود لركاب لم يعودوا. تلك اللحظة جعلتنا نرى الكارثة فهي ليست مجرد أرقام أو تواريخ، بل قصص بشرية ضاعت في البحر. ولم تقتصر ذاكرة اهالي فاكس على تيتانك وحدها، بل حملت لنا قصة أخرى عرفناها أيضًا في المتحف حول الانفجار العظيم في خليج هالي فاكس عام ١٩١٧، حين اصطدمت السفينة الفرنسية مونت بلانك، المحمّلة بالمتفجرات، بسفينة أخرى. وقع الانفجار الهائل الذي اعتُبر الأكبر في العالم قبل اختراع القنبلة الذرية، فدمّر جزءًا واسعًا من المدينة وأودى بحياة ما يقارب ألفي شخص. صور البيوت المدمّرة والوجوه المنكوبة التي شاهدناها أعطت انطباعًا أن هذه المدينة لم تكتفِ بذاكرة بحرية واحدة، بل كُتبت سيرتها بالبحر مرارًا وبالدمع والنار.

خرجنا من المتحف ونحن نحمل ثِقلاً في القلب، لكن أيضًا وعيًا أعمق بأن زيارة هالي فاكس لم تكن مجرد اكتشاف لمدينة ساحلية، بل وقوف أمام ذاكرة إنسانية مشتركة، يذكّرنا البحر من خلالها بأنه يمنح الحياة بقدر ما يأخذها.

وفي لحظة صمت، قفزت إلى ذهني بغداد؛ مدينتي التي عاشت كوارثها الخاصة، من فيضانات وزلازل وحروب، لكنها رغم الجراح عرفت أن تنهض من جديد. كما حملت هالي فاكس ندوب البحر والنار، حملت بغداد ندوب التاريخ والدم، وكلاهما تعلّم أن البقاء ليس في الهروب من المأساة، بل في القدرة على تجاوزها وبناء حياة فوق أنقاضها.

متحف الهجرة Pier ٢١

من أبرز المحطات التي أثرت فينا خلال وجودنا في هالي فاكس كانت زيارتنا إلى متحف الهجرة في Pier ٢١ ، ذلك المبنى الذي لم يكن مجرد قاعة عرض، بل بوابة عبَر منها مئات الآلاف من المهاجرين إلى كندا بين عامي ١٩٢٨ و١٩٧١. هناك أدركنا أننا نقف في مكان ليس له معنى رمزي فقط، بل هو مسرح حقيقي لقصص الهجرة التي شكّلت هوية كندا الحديثة. دخلنا إلى القاعة الرئيسية، فوجدنا أنفسنا وسط إعادة تمثيل دقيقة للحظة الوصول صور قديمة بالأبيض والأسود، قاعات الاستقبال،

غرف الفحص الطبي، وذكرى عربات القطار التي كانت تقل المهاجرين إلى الداخل الكندي.

في تلك الأيام، كان القادمون يُصنَّفون فور وصولهم: فحص جسدي سريع يحدد إن كانوا أصحاء صالحين للعمل، أما من بدا عليهم التعب أو المرض فكان يُعزل في غرف الحجز، بانتظار قرار إدخالهم أو إعادتهم. لقد كان مشهدًا صريحًا يكشف أن الهجرة لم تكن دومًا وعدًا بالحرية، بل اختبارًا قاسيًا على عتبة الوطن الجديد. ما شدّ انتباهنا نحن كعائلة مهاجرة هو الصور التوثيقية للمهاجرين .كانت الوجوه المتكررة في الصور أوروبية الملامح رجال ونساء وأطفال يحملون حقائب صغيرة ونظرات متعبة، لكننا لاحظنا شيئًا لافتًا لم نرَ بينهم مهاجرين من ذوي البشرة السوداء، ولا حتى أشخاصًا يضعون نظارات طبية. بدا وكأن صورة "المهاجر النموذجي" التي أراد المتحف – أو التاريخ – أن يوثقها، هي صورة محدودة، تُمثّل أوروبا البيضاء أكثر من تنوع العالم. تساءلنا في تلك اللحظة هل كان ذلك انعكاسًا لسياسات الانتقاء الصارمة التي اتبعتها كندا حينها؟ أم كان مجرد اختيار توثيقي للصور التي بقيت؟ وقفنا طويلًا أمام هذه الصور، نحاول أن نقرأ في الوجوه ما وراء الصمت. كانوا مثلنا مهاجرين يبحثون عن بداية جديدة، لكن القيود التي أحاطت بهم في لحظة الوصول كانت أشد قسوة مما نعيشه نحن اليوم. شعرتُ أن تجربتنا،

رغم صعوبتها أحيانًا، أكثر رحمة من تلك البدايات القاسية التي واجهها من سبقونا.

ما جعل هذه الزيارة أكثر إثارة للتأمل هو معرفتنا أن سياسة الهجرة الكندية لم تبدأ بالانفتاح على غير الأوروبيين إلا بعد عام 1967، حين أُقِرَّ نظام النقاط الذي ألغى التمييز على أساس العِرق أو الأصل القومي، واستبدله بمعايير موضوعية مثل التعليم، الخبرة، واللغة والذي وصلنا لكندا بموجبه. قبل ذلك التاريخ، كانت كندا تُفضّل المهاجرين القادمين من أوروبا الغربية والوسطى، بينما تضع قيودًا مشددة على القادمين من آسيا، إفريقيا، أو الشرق الأوسط. وهذا ما يفسر تلك الصور الوثائقية التي شاهدناها في المتحف وجوه أوروبية مكررة، بلا تنوع يُذكَر، وكأن كندا آنذاك لم تكن ترى في العالم إلا جزءًا محدودًا يصلح ليكون مواطنًا فيها. أما بعد التغييرات الكبرى في سياسات الستينيات، بدأت ملامح المهاجرين تتنوع تدريجيًا، لتصبح كندا كما نعرفها اليوم فسيفساء متعددة الثقافات والأعراق.

بالنسبة لنا، لم يكن هذا مجرد درس في التاريخ، بل كان مرآة نرى فيها أنفسنا كجزء من هذه المرحلة الجديدة. لقد أدركنا أن هجرتنا لم تكن صدفة، بل ثمرة لتحوّل عميق جعل كندا بلدًا يحتضن التنوّع كقيمة، لا كاستثناء. ومن تلك اللحظة شعرنا أن قصتنا الصغيرة امتداد لحكاية أكبر،

حكاية وطن لا يزال يُعيد كتابة تعريفه كل يوم. في هالي فاكس، بين ذكرى تيتانك والانفجار العظيم عام ١٩١٧، شعرت أنني أقف أمام مدينة تكتب سيرتها بالبحر والدموع، لكنها لا تستسلم.

تذكرت بغداد التي عرفت كوارثها الخاصة، من فيضانات وزلازل وحروب. كلا المدينتين تعلمتا أن البقاء لا يكون في الهروب من المأساة، بل في القدرة على النهوض بعدها، وتحويل الجراح إلى ذاكرة للانبعاث. في اليوم الثالث لوصولنا الى هالي فاكس Halifax غادرناها عبر الغابات والطرقات الساحلية حتى وصلنا إلى سدني، المدينة الواقعة على جزيرة كيب بريتون



Cape Breton Island. عُرفت تاريخيًا بتعدين الفحم وصناعة الصلب، لكنها اليوم أكثر هدوء تفتح ذراعيها للزائر بوجه بحري وأفقٍ مفتوح على المحيط. كانت محطة عبور، ولكنها أيضًا نافذة على تاريخ العمل والصناعة في شرق كندا.

جزيرة الأمير إدوارد (Prince Edward Island)

بعد سدني أخذنا العبّارة بالسيارة إلى جزيرة الأمير إدوارد، أصغر مقاطعات كندا مساحةً وسكانًا، وأكثرها شاعرية.

جزيرة الأمير إدوارد **(Prince Edward Island)** هي واحدة من المقاطعات الكندية، وتعدّ **أصغرها مساحة**، لكنها تتميز بطابع فريد من الجمال الطبيعي والتاريخ الثقافي العميق تشتهر بتضاريسها المنبسطة وتربتها الحمراء الغنية بالحديد، وشواطئها الرملية الهادئة. هناك قضينا ليلة واحدة، لكنها كانت كافية لتُخلّد في الذاكرة: شواطئ حمراء، حقول خضراء ممتدة، وبيوت خشبية ملونة وكأنها خرجت من صفحات رواية. وليس غريبًا أن تُخلَّد الجزيرة عالميًا من بفضل رواية "آن في المروج الخضراء (Anne of Green Gables) "التي كتبتها الكاتبة لوسي مود مونتجومري، والمستوحاة من حياة الجزيرة التي تمثل فضاءٌ للصفاء والذاكرة الأولى، حيث الطبيعة تُعيد الإنسان إلى ذاته؛ فهي ليست مجرد جزيرة، بل ذاكرةٌ خضراء تطفو على بحرٍ من الحنين.

مع بزوغ الصباح، أخذ الطريق يمتدّ أمامنا كخيطٍ من ضوءٍ فوق الماء، حتى بلغنا جسر الكونفدرالية(Confederation Bridge) ، ذاك الشريان الذي يصل **جزيرة الأمير إدوارد** بالبرّ الكندي عبر **مضيق نورثمبرلاند** .يمتدّ

الجسر قرابة **اثني عشر كيلومترًا ونصفًا** فوق مياهٍ باردةٍ تعانق الأفق، وقد افتُتح عام **١٩٩٧** ليكون أطول جسرٍ في العالم فوق مياهٍ متجمّدة.

كان عبوره يشبه عبورًا بين عالمين: من سكون الجزيرة الحالم إلى صخب الحياة الحديثة؛ من عزلةٍ تُشبه الحلم إلى يقظةٍ تُشبه الحنين. هناك، في منتصف الجسر، بدا البحر مرآةً للذاكرة، تعكس ما يُترك خلفك وما ينتظرك أمامك.

نيوبرنزويك New Brunswick

كانت وجهتنا التالية **مدينة سانت جون (Saint John)** في **نيوبرنزويك**، المدينة التي تحمل لقب **أقدم مدينةٍ تأسست رسميًا في كندا** عام **١٧٨٥**.أمضينا فيها **ليلتين** تتداخل فيهما رائحة البحر مع عبق التاريخ؛ ففي مينائها العتيق تتجاور **حكايات المهاجرين والبحّارة** مع أصداء الحروب القديمة التي مرّت من هنا ثم انحسرت كالموج.

لكنّ المشهد الأجمل كان عند **خليج فَندي(Fundy)** ، حيث تشهد الطبيعة استعراضًا فريدًا لقوّتها؛ هناك يتنفّس البحر مدًّا وجزرًا هو الأعلى في العالم، وكأنّ الماء ذاته يختبر حدود حضوره وانسحابه أمام عيوننا. كان البحر هناك يتنفس بصوت مرتفع، صعودًا وانحسارًا، وكأنه يعيد صياغة مفهوم الزمن نفسه.

بعد هذه الجولة التي جمعت بين التاريخ والطبيعة والأدب، عدنا بالسيارة إلى هالي فاكس، ثم عبر الطائرة عائدين إلى تورونتو. كانت الرحلة دائرة مكتملة من الموج إلى الموج، ومن الماضي إلى الحاضر، ومن مدينة إلى أخرى، لكن جميعها نسجت معًا لوحة واحدة عن شرق كندا، حيث يلتقي البحر بالتاريخ والذاكرة. وهكذا غادرنا شرق كندا، تاركين خلفنا مدنًا صغيرة تطل على الأطلسي، لكن أثرها ظل كبيرًا في الذاكرة؛ فهنا، حيث البحر يكتب فصوله على الشواطئ، تعلمت أن المدن قد تكون بحجم القلب، لا بحجم الخرائط.

لحظة المواطنة... حين اتسع القلب لوطنين

بعد ثلاث سنوات، من وصولنا لكندا وقفنا أمام القاضي الكندي نردّد قسم المواطنة، بقلوبٍ امتزج فيها الامتنان بالحزن النبيل، حزن على وطنٍ تركناه مضطرين، وامتنان لوطنٍ احتضننا دون شروط.

شعرنا أن الغربة قد تحوّلت إلى شراكة، وأننا لم نعد ضيوفًا، بل جزءًا من نسيج هذا البلد المتعدد الثقافات. حملنا بغداد في قلوبنا، وزرعناها في تفاصيل حياتنا اليومية، في اللغة التي نتحدث بها في البيت، وفي القصص التي نرويها لأطفالنا عن دجلة والرصافة والكاظمية.



لم تكن كندا بديلاً عن العراق، ولا عن بغداد التي تسكن الذاكرة مثل نهرٍ لا ينضب؛ بل كانت امتدادًا لذلك الحلم الذي لم يمت، بل غيّر مساره كما يبدّل النهر مجراه حين تعترضه الصخور. لم نغادر الوطن بقدر ما حملناه معنا في تفاصيلنا الصغيرة: في اللغة التي تهمس بها قلوبنا، في نكهة القهوة التي لا تزال تفوح بطعم الأمس، وفي الحنين الذي يسكننا كظلالٍ لا تفارقنا.في هذا البلد المتعدد الثقافات، لم نكن غرباء تمامًا، بل جزءًا من نسيجٍ إنسانيٍ واسع تتقاطع فيه اللغات والوجوه والذكريات. تعلمنا أن الهوية ليست جواز سفرٍ ولا علماً يُرفع، بل جذورًا تمتدّ في الذاكرة، وأغصانًا تنفتح نحو المستقبل. وهكذا، صارت كندا بالنسبة إلينا فضاءً جديدًا لزراعة الأمل، حيث نحمل معنا **عبق دجلة** في الشمال البارد، ونسقي به **تربة جديدة** تنبت فيها الحكايات بلغتنا، وتزهر بالحنين الذي لا يذبل. إنها ليست منفى، بل **وطنٌ موازٍ**، ينمو بين الماضي والمستقبل، بين الشرق والغرب، بين ما كنّا عليه وما نصبحه كل يوم.

مسيساكا... جالية ووطن مصغّر

في مدينة **مسيساكا** التي احتضنتنا لأكثر من عقدين، وجدنا معنى الاستقرار بعد رحلة طويلة من الترحال.

على أرضها التقينا بأصدقاء جمعتنا بهم المودة والذكريات، ومع مرور السنين أصبحت الجالية العراقية هنا أشبه بعائلة كبيرة، منسجمة في اختلافها، تحترم خصوصية الآخر وتحتفي بتنوّعه.كثيراً ما تجمعنا فعاليات ثقافية واجتماعية تذكّرنا بالعراق الذي نحمله في قلوبنا، عراق الناس الطيبين والمجالس الدافئة، فنعيش لحظاتٍ نستعيد فيها الوطن بوجوهٍ وأحاديثٍ تعبق بالحنين

.





الولايات المتحدة الأميركية

زرت الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة في عام ١٩٧٧ في رحلة عمل قصير لمدة أسبوعين، حيث زرت شيكاغو وديترويت أعقبتها زيارات عديدة مع عائلتي بعد كانت أولى خطواتي نحو الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧٧. حين حملتني رحلة عمل قصيرة امتدت لأسبوعين إلى مدينتين صناعيتين نابضتين بالحياة: شيكاغو وديترويت. لم أكن أدري آنذاك أن تلك الزيارة العابرة ستكون بوابة لرحلات عديدة لاحقة، بعضها مع عائلتي بعد هجرتنا إلى كندا عام ٢٠٠١، وبعضها الآخر في إطار مهامي الرسمية والأكاديمية.

هكذا تراكمت الذكريات، بين عمل وسياحة وعلم، لتصوغ خيوط علاقة متينة مع مدن عبرت فيها كزائر، وبقيت آثارها في ذاكرتي كدارس ومخطط ومراقب للتحولات الحضرية هجرتنا الى كندا عام ٢٠٠١ وكذلك زيارات رسمية وأكاديمية متعددة.

شيكاغو (Chicago)

. لم تكن الرحلة مجرّد عبورٍ للمحيط الأطلسي، بل كانت عبوراً إلى عصرٍ جديد. ذلك العام، ١٩٧٧، حملني وزميلي المهندس كريم نعموا على أجنحة

الخطوط الإسكندنافية نحو العالم الجديد، مع توقّفٍ قصير في مونتريال، المدينة التي لم أكن أعلم أنها ستصبح وطني لعقدين قادمين. عندما انحدرت الطائرة نحو مطار أوهير، بدت شيكاغو كمسرحية ضخمة تُنيرها أنوار النيون والحركة. المدينة، التي نهضت من رماد حريقها الكبير في القرن التاسع عشر، كانت تُعلن عن نفسها بجرأة. الشوارع الواسعة، والمباني ذات الواجهات الزجاجية، ورائحة البيتزا الممزوجة بعوادم السيارات، كلها خلطت مشاعر الدهشة بالغربة. لكن روح شيكاغو الحقيقية كانت تُختزل في



ذلك البرج الأسود البني الذي يرتفع كإبرة في أفق المدينة. برج سيرز، بطرازه المعماري الحديث، لم يكن مجرد بناية، بل كان بياناً هندسياً عن أحلام أمريكا غير المحدودة. حتى أن كريماً، ببرودته الهندسية المعتادة، لم يتمالك نفسه حين قال: "هذا ما سيصبح عليه المستقبل.. أبراج تلامس السماء."! . لكنّ المحطة الأكثر إبهاراً كانت شيكاغو، بضوضائها الحضارية، وقلبها النابض ببرج سيرز (Sears Building)، ذلك العملاق الذي لامس السحاب بغروره المعماري، مُتوجاً نفسه كأطول بناية في العالم آنذاك لم أكن أعرف أنني سأشهد تحفةً أخرى من تحف أمريكا الحديثة مطعم

"البرج الدوّار" في سيرز، حيث تدور الأرض تحت قدميك بينما تظلّ النجوم ثابتةً فوقك. الصعود إلى الطابق ١٠٣كان تجربةً قريبة من الخيال. المصعد السريع الذي حملنا بدا كأنه يخترق الزمن، ومع كل طابق كنا نشعر أن ثقل التاريخ يخفّ عن كاهلنا، وكأننا نتخلص شيئًا فشيئًا من جاذبية الأرض. وحين وصلنا إلى الشرفة الزجاجية المخصّصة للمراقبة، تحوّلت المدينة العملاقة أسفلنا إلى مجرد خريطة منمّقة حيث تبدو الشوارع شبكة ذهبية تمتد بلا نهاية، والبحيرة كصفحة زرقاء هادئة تلمع تحت ضوء الغروب. أحيانًا كانت السحب تدنو لتعانق الزجاج، فنشعر أننا نطفو بين السماء والأرض. أخرجت كاميرتي الخاصة والتقطت بعض الصور للمدينة من هذا الارتفاع، عندما اقترح كريم أن نتناول العشاء في المطعم الدوّار في الطابق ٩٩، ظننتُ أنه يمزح. كيف لطاولةٍ أن تدور بك بينما أنت جالسٌ تأكل؟ وصلنا إلى قاعةٍ دائرية، مفروشةٍ ببساطة أنيقة، تكاد لا تشعر بحركتها لولا أن شيكاغو كانت تتدفّق ببطء خارج النوافذ. الطاولة بجوار الزجاج، والمفرش الأحمر، والشمعدانات الفضية، كلها تفاصيلٌ من عالم آخر. حتى الطاهي، بملابسه البيضاء، بدا كأنه رجلٌ من المستقبل. اختَرتُ سمك السلمون المدخّن، بينما فضّل كريم شريحة لحم "شيكاغو ستايك" الشهيرة. مع كلّ لقمة، كانت المدينة تلفّ حولنا كشريط سينمائي: نهر شيكاغو يتلوّى مثل ثعبان فضّي، والضوء الذهبي للمباني يذوب في بحيرة ميشيغان. سألتُ كريماً: "ألا تشعر بالدوار؟"، فأجاب ضاحكاً: "الدوار

الوحيد هنا هو دَوَران الحضارة من حولنا!". بعد ساعة، أدركتُ أن العجيب ليس حركة المطعم، بل أن العالم كلّه يدور، ونحن فقط من نكتشف ذلك هنا! اليوم.

مدينة ديترويت

قبل العودة الى بغداد، زُرت مدينة ديترويت مع كريم، حيث يعيش الكثير من العراقيين زرنا أقارب كريم الذين يقيمون في المدينة، بدت أكثر قسوة من شيكاغو. لكنّ دفء عائلة كريم، وأصوات موسيقى "موتاون" التي تملأ الأحياء، أعطتها روحاً مختلفة. تذكرتُ وأنا هناك مقولةً لشاعر أمريكي: "المدن كالبشر… بعضها يرقص، وبعضها يبكي."في بدايات القرن العشرين، كانت ديترويت تغلي كمرجلٍ صناعي يلفظ أدخنة المصانع ويستقبل عمال العالم بأذرع مفتوحة. هنا، حيث ولدت صناعة السيارات الأمريكية، ولدت أيضًا مجتمعات مهاجرة حملت معها أحلامًا وذكريات لم تكن لتخطر ببال هنري فورد نفسه. بين هذه الجاليات، جاء العرب والعراقيون يحملون في حقائبهم طعم التمر ورائحة الزعتر، وبحثًا عن فرصة في مصانع "فورد" و"كرايسلر" و"جنرال موتورز ." شعرت في ديترويت أن للعراقيين هناك حضورًا خاصًا يلمسه الزائر في تفاصيل الحياة اليومية من المحلات الصغيرة التي تبيع الخبز الطازج، إلى المقاهي التي تجمع الشبان على أحاديث عن الوطن البعيد. أجواء المدينة امتزجت

فيها الغربة بالألفة، فالحنين إلى بغداد كان حاضرًا في الضحك والدموع، وفي القصص التي يتداولها الجميع عن السفر والعودة والأمل. زرنا متحف هنري فورد حيث التقت أحلام المهاجرين بآلات الثورة الصناعية. في المتحف، وقفت أمام خط تجميع السيارات الأول، متخيلًا آلاف العراقيين والعرب وهم يعملون هنا قبل قرن. الآلات الضخمة كانت صامتة الآن، لكنها ما زالت تحكي قصصًا عن عرق المهاجرين الذين بنوا أمريكا بعظامهم. في زاوية من الزوايا، عرض فيلم وثائقي يظهر عمّالًا عربًا يصلون المصانع في الخمسينيات، وجوههم مغطاة بالغبار وعيونهم مليئة بالأمل . في منزل أحد أقارب كريم في ديربورن، جلسنا حول مائدة غنية بالدولمة والكباب والقهوة بالهيل. تحدثنا عن بغداد القديمة، عن شط العرب، وعن ديترويت التي أصبحت ملاذًا لهم قال "جئنا لأن المصانع كانت تبحث عن أيدٍ تعمل، وبقينا لأن القلب يبحث عن أيدٍ تحتضنه ."ديترويت لم تكن مجرد محطة هجرة، بل كانت لوحة رسم عليها المهاجرون أحزانهم وأفراحهم، ومتحفًا مفتوحًا يحكي كيف يمكن للإنسان أن يصنع من الغربة وطنًا، ومن الذكريات جذورًا.

رحلة إلى مدن ساحل المحيط الهادئ

كانت رحلة عائلية، عام ٢٠١٢ لاكتشاف مدن الساحل الغربي وما تحمله من بريق ودهشة. خططنا للزيارة في سفرتنا هذه لوس أنجلوس مدينة

الحلم وسان فرانسيسكو بجسرها الأحمر المعلّق، وبورتلاند الخضراء الهادئة، وسياتل التي يختلط فيها المطر الدائم برائحة القهوة العالمية ولاس فيغاس،

لوس أنجلوس، (Los Angeles)

هبطت بنا الطائرة في **لوس أنجلوس**، مدينةٍ تتلألأ تحت شمسٍ لا تغيب، كأنها خُلقت من الضوء نفسه. هنا يتقاطع البحر بالصحراء، والواقع بالوهم، والفن بالحياة. في كل شارعٍ رائحة أفلامٍ لا تُعد، وصدى أحلامٍ لا تنتهي.

قضينا يومين كاملين بين معالمها الشهيرة، وكان أبرزها شارع النجوم (Hollywood Walk of Fame)، ذلك الرصيف الممتدّ على مدّ البصر، حيث تنقش أسماء الممثلين والمخرجين والمطربين على نجومٍ نحاسية لامعة. بدا المشهد أشبه بمتحفٍ مفتوحٍ للزمن، تمشي فوقه الأقدام بينما تبقى الأسماء خالدة لا تُمحى. هناك، وسط الحشود والكاميرات والموسيقى المنبعثة من المقاهي، تشعر أنك تسير في قلب صناعة الحلم الأميركي؛ كل زاوية تنطق بالوعد والخيال، وكل وجه يحمل ملامح من يسعى إلى فرصة، إلى مشهدٍ واحد قد يغيّر حياته. ومع ذلك، خلف بريق الأضواء، يلوح وجهٌ آخر للمدينة: وجه التعب والانتظار، ذلك الحلم الذي لا يتحقق للجميع. في لوس أنجلوس تدرك أن الحلم ليس فقط ما تصنعه

هوليوود على الشاشة، بل أيضًا ما يحمله الناس في قلوبهم من **رغبةٍ في البقاء** والنجاة والاعتراف .هناك، بين صخب الأضواء وهدير السيارات، تتعلّم أن الجمال أحيانًا يخفي ظله، وأنّ الشهرة قد تكون شكلًا آخر من العزلة.

لاس فيغاس (Las Vegas)

من لوس أنجلوس، أقلعنا بالطائرة إلى لاس فيغاس في قلب صحراء نيفادا. لم تستغرق الرحلة سوى ساعة واحدة، لكنها كانت كافية للانتقال من مدينة السينما إلى مدينة الأسطورة. قضينا يومين في تلك المدينة المدهشة. دخلنا بعض القاعات الكبيرة المخصصة للّعب والترفيه، حيث تصطف مئات المكائن بصفوف متراصة تصدر أصواتًا وإشارات ضوئية لا تهدأ، بينما تنتشر مناضد اللعب وقد التفّ حولها الزوّار من مختلف الأعمار والجنسيات. لم نكن هناك للمقامرة، بل للاطلاع واكتشاف هذا العالم الذي يثير فضول كل من يسمع باسم "عاصمة الترفيه." كانت لمياء تنظر حولها بدهشة إلى ضخامة المكان وتنظيمه، بينما حسين يتنقل بين القاعات وكأنه يعيش مشهدًا سينمائيًا. أما أنا، فقد رأيت في فيغاس صورة مصغرة لعالم الاستهلاك المفرط، مدينة صنعت لنفسها أسطورة تقوم على الصخب والسرعة والضوء لكنها في الوقت نفسه تكشف كيف يمكن للإنسان أن يحوّل الصحراء القاحلة إلى مركز يجذب ملايين البشر كل عام. وفي

المساء، كان "The Strip"ارع المدينة الرئيسي مزدحم بالأضواء والفنادق العملاقة التي تحاكي العالم: أهرامات مصر، برج إيفل مصغّر، وقصور أوروبا الوسطى.

وقفنا طويلًا أمام نافورة بيلاجيو الراقصة، نتابع الماء وهو يتحوّل إلى ضوءٍ ونغمٍ في آنٍ واحد، يتمايل على الموسيقى ويصعد عشرات الأمتار في السماء ثم يعود متكسرًا على سطح البحيرة الاصطناعية في مشهدٍ يخطف الأنفاس. كانت لحظة ساحرة اختلط فيها الجمال بالصخب، والدهشة بالإنهاك،



وكأن المدينة كلها تتنفّس من قلب تلك النافورة. في تلك اللحظة، بدا أن الماء نفسه يرقص ليُخفي العطش الحقيقي للمدينة؛ عطشها إلى الهدوء، إلى لحظة صدقٍ بعيدًا عن الأضواء. ومع ذلك، لا يمكن إلا أن تنجرف بسحرها، فهي مدينة تُتقن الإغراء والفرجة، وتعرف كيف تخاطب الحواس قبل الفكر. وبينما كانت الموسيقى تعلو والمياه ترقص، خُيِّل إليّ أن المدينة تهمس لزوّارها" *:أنا مدينة لا أنام، لأنني أخشى أن تنطفئ أضوائي إن أغمضتُ عينيَّ"* . هكذا، في قلب الصحراء، تنهض **لاس فيغاس**

كمعجزةٍ من ضوءٍ ووهم، مدينةٍ تصنع الجمال من الزيف، والفرح من التعب، وتحوّل الفراغ إلى احتفالٍ دائم. لكنها، وسط بريقها الصاخب، تذكّرنا بأن الحلم، مهما تألق، يحتاج دائمًا إلى عينٍ يقظةٍ كي تراه على حقيقته فليس كل ما يلمع في الضوء ذهبًا، ولا كل ما يبهج يُطمئن القلب.

بعد يومين من الأضواء الصاخبة في لاس فيغاس، عدنا إلى لوس أنجلوس هناك استأجرنا سيارة وانطلقنا بالسيارة شمالًا نحو سان فرانسيسكو، عبر الطريق الساحلي الشهير Pacific Coast Highway، الذي يمتد لمسافة ٦١٥ كيلومترًا تقريبًا ويُعد من أجمل طرق العالم. مررنا بمدينة ماليبو، Malibu حيث الشاطئ الذهبي والمنازل الفاخرة المطلة على المحيط. الطريق الممتد بمحاذاة المحيط الهادئ بدا وكأنه لوحة لا تنتهي، الأمواج تتكسر على الصخور، والهواء المحمّل برائحة البحر يرافقنا طوال المسير. مررنا في طريقنا على مدينة ماليبو، تلك البلدة الساحلية الصغيرة التي تحولت إلى منتجع للنخبة والمشاهير. منازلها البيضاء المتناثرة على التلال بدت كأنها شرفات تطل مباشرة على زرقة المحيط، بينما الشاطئ الممتد منحنا فرصة للتوقف والتأمل. جلست لمياء على مقعد خشبي تحدّق في الأفق، بينما حسين انشغل بجمع بعض الأصداف كتذكار. أما أنا، فكنت أقول في نفسي إن هذا الطريق وحده يكفي ليكون رحلة، حيث يتعانق البحر مع الجبل وتصبح القيادة تجربة من التأمل. ومن ماليبو Malibu تابعنا الطريق الطويل نحو سان فرانسيسكو، المدينة التي تحمل صورة

مميزة في الخيال الجمعي: الجسر الأحمر المعلق، التلال الصاعدة والهابطة، والروح الليبرالية التي جعلت منها مركزًا للفكر والفن.

سان فرانسيسكو (San Francisco)

في سان فرانسيسكو، التي قضينا فيها يومين، كان أول ما شدّنا هو جسر غولدن غيت (Golden Gate Bridge) رمز الهوية لمدينة سان فرانسيسكو، والبوابة التي تعانق المحيط والمدينة معًا الذي بدا في ضباب الصباح لوحة معلقة بين البحر والسماء. لونه البرتقالي المائل إلى الأحمر (International Orange) اختير بعناية ليتباين مع الضباب الكثيف ويمنح الجسر شخصية مميزة. بينما كانت سيارتنا تنزلق فوق جسر غولدن غيت، بدا لنا وكأننا نعبر بوابة من حديد معلّقة بين البحر والسماء. الضباب كان يهبط من المحيط، يلتف حول الأسلاك العملاقة ويخفي أطراف الجسر، فلا ترى سوى البرجين البرتقاليين يطلّان من السحاب كحارسين أسطوريين. صوت المحرك يمتزج بصفارات السفن في الأسفل، والريح تتسلل من النوافذ لتملأ صدرك بإحساس أنك في مكان يتجاوز مجرد طريق. عند تلك اللحظة، بدا الجسر وكأنه ممر ذهبي نحو المجهول، يربط سان فرانسيسكو بفضاء مفتوح على المحيط والمغامرة. وأنا أقود سيارتي نزولًا في شارع لومبارد، (Lombard Street) شعرت كأنني أشارك في رقصة وضعت خطواتها قبل قرن. المنعطف الأول كان مفاجئًا، والثاني

أكثر حدة، ومع كل التفافة كنت أبطئ السير، أسمع حفيف العجلات فوق الطوب الأحمر، وأرى وجوه السياح مصطفّين على الأرصفة يلتقطون الصور. لم أكن أنا الهدف، بل هذا الشارع الذي حوّل قسوة الانحدار إلى لوحة بديعة. بين المنعطفات، كانت الزهور الملوّنة تتفتح على جانبي الطريق، كأنها تصفق للمسافرين في نزولهم .لكن ما أدهشني أكثر هو أن هذا الجمال لم يُخلق ليكون جمالًا فقط، بل وُلد من حاجة عملية. ففي عشرينيات القرن الماضي، كان المنحدر شديدًا لدرجة لا تستطيع العربات ولا السيارات الأولى التعامل معه. فكروا بحلٍّ بسيط وعبقري أن يحوّلوا الخط المستقيم المستحيل إلى ثماني منعطفات حادة تجعل النزول ممكنًا. هكذا اكتشفت وأنا في قلب الرحلة أنني لا أمر بشارع سياحي وحسب، بل أعبر تاريخًا صاغته الهندسة ليكون مفيدًا، ثم صاغه الزمن ليصبح رمزًا للجمال. وعندما خرجت من آخر منعطف، ابتسمت، وكأن السيارة وأنا معها قد أنهينا رقصة قصيرة، تركت في داخلي متعة لا تنسى.

زرنا الحي الصيني بألوانه وروائحه، وركبنا الترام القديم الذي ما زال يتسلق التلال منذ أكثر من قرن. ومن بعيد رأينا جزيرة ألكاتراز Alcatraz، صخرة رمادية وسط خليج سان فرانسيسكو، يلفّها الضباب أحيانًا ويكشفها أحيانًا أخرى، وكأنها تريد أن تخفي أسرار السجن الشهير الذي تحوّل إلى متحف.

كنت أعرف أنني أمام مكان صار رمزًا للرهبة والعزلة، لكنه في الوقت نفسه جزء حيّ من ذاكرة المدينة كان يومًا حصنًا عسكريًا، ثم سجنًا لا يُهرب منه، يضم أخطر المجرمين ويحيط به البحر كجدار من حراسة طبيعية. واليوم، وقد تحوّلت إلى متحف ومأوى للطيور البحرية، ما زالت تحمل في صمتها قسوة الماضي وسحر الطبيعة معًا، كأنها مرآة مزدوجة تعكس وجهي الإنسان السلطة والعزلة، والبحث الأبدي عن الحرية.

بورتلاند (Portland)

من سان فرانسيسكو أقلعنا بالطائرة إلى بورتلاند، في ولاية أوريغون الأميركية وهي مدينة هادئة تُعرف بـ "مدينة الورود." تقع عند التقاء نهر ويلاميت (Willamette River) مع نهر كولومبيا، وتحيطها جبال وسلاسل خضراء، ما يجعلها مدينة مفتوحة على الطبيعة من كل الجهات.

وسط المدينة يضم مباني متوسطة الارتفاع، محاطة بحدائق ومساحات مفتوحة، فلا تشعر أنك في مدينة خانقة فبورتلاند مدينة الدراجات الهوائية والمقاهي الصغيرة، حيث الثقافة المحلية تفضّل البساطة على البهرجة. كان في انتظارنا صديقي من الأمارات الشقيقة الدكتور ناصر، الذي أكمل دراسته في جامعة بورتلاند وما زال يزورها من حين لآخر.

بفضل نصيحته زرنا شلال ملتنوما (Multnomah Falls) واحد من أجمل الشلالات التي تجسد قوة الطبيعة ورقتها في آن واحد. يقع الشلال على نهر كولومبيا، على بُعد نحو ٥٠ كيلومترًا شرق مدينة بورتلاند ارتفاعه يصل إلى حوالي ١٨٩ مترًا، ما يجعله أعلى شلال في ولاية أوريغون وثاني أعلى شلال في الولايات المتحدة دائم الجريان. يتكون من مستويين شلال علوي شاهق ينحدر بشكل مستقيم، ثم شلال سفلي قصير أكثر نعومة، ليشكّلا معًا لوحة طبيعية بديعة. القريب، حيث تسقط المياه من ارتفاع شاهق وسط غابة كثيفة، مشهد يأخذ الأنفاس ويجعل الزائر يدرك أن الطبيعة هنا ليست خلفية للحياة، بل هي قلبها وروحها.

سياتل (Seattle)

غادرنا بورتلاند بالطائرة نحو مدينة سياتل (Seattle) عاصمة الشمال الغربي الأميركي، حيث يلتقي البحر بالمحيط، والغابات بالزجاج، والقهوة بالابتكار.

هناك التقيت بسالم زميل عمل قديم من بغداد، الذي استقر في هذه المدينة الجميلة. كان اللقاء حميميًا أعاد إلى الذاكرة أيام بغداد. برفقته زرنا برج سبيس نيدل Space Needle الذي يطل من ارتفاع ١٨٤ مترًا على المدينة والخليج، تصميمه المبتكر يجمع بين الهندسة المستقبلية وخفة

البنية المعدنية، ليبدو وكأنه طبق طائر يهبط على قاعدة رفيعة. مررنا في سوق بايك بلايس (Pike Place Market) في قلب مدينة سياتل فهو ليس مجرد سوق، بل مسرح يومي للحياة، تختلط فيه أصوات الباعة مع رائحة القهوة والبحر حيث يعرض الصيادون أسماكهم بأسلوب استعراضي. ولم نغفل زيارة معارض آبل (Apple Stores) ووادي السيليكون (Silicon Valley) اللذان يمثلان معًا صورتين متكاملتين من قصة التكنولوجيا الحديثة الأولى واجهتها المبهرة، والثانية مختبرها السري.

في معارض آبل هناك شعرت أنني أقف عند بوابة المستقبل، في مدينة تجمع بين صخب الأسواق وروح الابتكار. ليست مجرد محلات للبيع، بل فضاءات معمارية صُممت لتجسّد فلسفة الشركة البساطة، الشفافية، والانسيابية. واجهات زجاجية شفافة تجعل الداخل امتدادًا للشارع، وبعض المعارض تحولت إلى معالم سياحية بحد ذاتها،

فكتوريا (Victoria)

من سياتل ركبنا سفينة أقلتنا عبر مياه الخليج نحو مدينة فكتوريا (Victoria) عاصمة مقاطعة بريتيش كولومبيا، تحمل فعلًا لمسة أوروبية على الساحل الكندي؛ صغيرة بحجمها مقارنة بفانكوفر، لكنها كبيرة بسحرها الذي يجمع بين الأناقة البريطانية وروح الطبيعة الكندية. بدت

المدينة مختلفة تمامًا مبانٍ بطراز فيكتوري قديم، حدائق غنّاء، ومباني تطل على المرفأ بجلال. قضينا يومين زرنا خلالهما حدائق بوتشارت (Butchart Gardens) قرب مدينة فكتوريا هي بحق جنة مصغّرة على الأرض، حيث تمتزج يد الإنسان المبدعة بجمال الطبيعة الخام. تمتد الحدائق على مساحة واسعة كل ركن فيها مصمم ليكون لوحة مختلفة. زرنا الحديقة اليابانية عبر ممرات ضيقة وجسور خشبية على جداول مائية، تعكس صفاء الشرق والحديقة الإيطالية ذات التماثيل والنوافير والأناقة الهندسية المتناظرة. من فكتوريا توجهنا إلى مطار فانكوفر، حيث ركبنا الطائرة عائدين إلى تورونتو .وهكذا أسدلنا الستار على رحلة جمعت بين مدن متناقضة من بريق هوليوود وضجيج فيغاس، إلى أناقة سان فرانسيسكو وهدوء بورتلاند، ومن حداثة سياتل إلى رومانسية فكتوريا. لقد كانت رحلة علمتنا أن المدن ليست مجرد أماكن تُزار، بل تجارب تُعاش كل مدينة تمنحك صورة مختلفة للعالم، وكل محطة تترك في قلبك ذكرى لا تمحى.

في نهاية الرحلة، لم نكن نحمل معنا صورًا فقط، بل وعياً أعمق بالرحلة ذاتها :أن المدن ليست محطاتٍ في الجغرافيا، بل علاماتٍ على طريق الروح. فكل مكانٍ سكناه، أو مررنا به، ترك فينا أثرًا خفيًا؛ وكل حنينٍ حملناه معنا لم يكن عودةً إلى الوراء، بل سيرًا نحو فهمٍ أعمق لمعنى الانتماء والحرية.

واشنطن مدينة السلطة والذاكرة



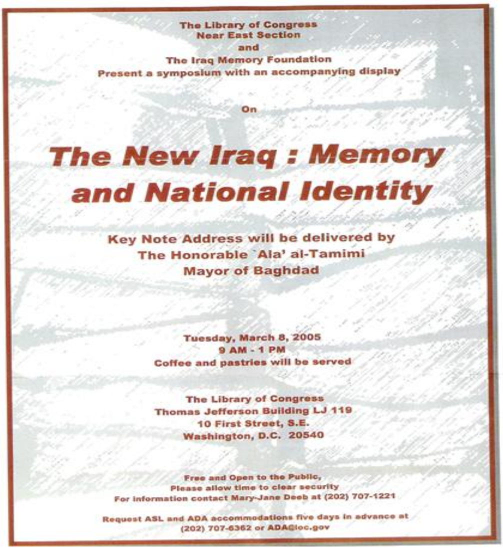
حين تطأ قدماك واشنطن العاصمة، تدرك سريعًا أنك في مدينة لا تشبه غيرها. فهي ليست مجرد تجمع عمراني ضخم، بل مسرح رمزي لسلطة سياسية ترسم ملامح العالم. شوارعها العريضة، ومبانيها الكلاسيكية ذات الأعمدة البيضاء، وحدائقها المنظمة بدقة، تمنحها مهابة تليق بعاصمة الإمبراطورية الحديثة. على طول المول الوطني يمتد تاريخٌ متحرك من نصب واشنطن الشاهق، إلى مقعد أبراهام لنكولن الحجري، إلى أروقة الكونغرس التي تعكس ثقل الديمقراطية الأمريكية. لكن خلف هذه المظاهر، تحمل واشنطن أيضًا روحًا أكثر هدوء. نهر بوتوماك Potomac River ينساب في صمت، يخفف من حدة الخطاب السياسي ويذكّر بأن الطبيعة تبقى الشاهد الأعمق على تحولات المدن.

زيارتي إلى واشنطن كانت صرخة باسم بغداد أمام مؤسسات العالم. ففي ١-٣ آذار/مارس ٢٠٠٥، شاركتُ كأمين لبغداد في أسبوع الماء العالمي الذي نظمه البنك الدولي، وقدّمت بحثًا عن واقع مشاريع الماء في بغداد والحاجة الماسة إلى الدعم لتأمين مياه الشرب لأكثر من سبعة ملايين

إنسان. داخل قاعات البنك الدولي، ناقشتُ مع الخبراء والممولين التحديات التي تواجه العاصمة: شبكات متقادمة، محطات متهالكة، ونقص في التمويل. خرج المؤتمر باتفاق على تخصيص منحة قدرها **٥٦.٥** مليون دولار لأمانة بغداد لتنفيذ مشروع طارئ يهدف إلى تأهيل وتطوير مشاريع تصفية مياه الشرب وتجديد الشبكات، إضافة إلى تجهيز قطع الغيار الضرورية لمواجهة الأزمة. لم تقتصر زيارتي على الملفات الفنية. ففي أروقة الكونغرس، التقيتُ بعدد من النواب وأعضاء اللجان، وشرحتُ لهم أن إعمار بغداد ليس شأناً محليًا فقط، بل قضية لها أبعاد إنسانية وسياسية. ومن أبرز اللحظات، لقائي مع السيناتور هيلاري كلينتون التي كانت وقتها عضوًا في مجلس الشيوخ. تبادلنا الحديث عن معاناة سكان بغداد، وأكدتُ لها أن الشعب العراقي بحاجة إلى دعم حقيقي يذهب إلى البنية التحتية لا إلى الشعارات. كانت لحظة رمزية؛ صورة تجمع بغداد الجريحة مع أحد الأصوات المؤثرة في السياسة الأمريكية. بعد انتهاء المؤتمر وفي 8 آذار حملتني رحلتي إلى قلب هذه المدينة لأقف في أعرق مؤسساتها مكتبة الكونغرس، حيث دُعيتُ لإلقاء الكلمة الرئيسة في ندوة حملت عنوان :

"The New Iraq: Memory and National Identity".

كانت الندوة ثمرة تعاون بين قسم الشرق الأدنى بالمكتبة ومؤسسة الذاكرة العراقية، بحضور باحثين أميركيين وعراقيين. داخل قاعة توماس جيفرسون العريقة، حيث الكتب والمخطوطات تملأ



المكان بهيبة تفوق أي قاعة مؤتمرات.، تحدثتُ عن بغداد كذاكرة وهوية . أردتُ أن أنقل إلى الحضور أن المدينة ليست جدرانًا وطرقًا فقط، بل نصٌّ مفتوح تكتبه الشعوب وتعيد قراءته الأجيال. لم تكن المناسبة مجرد ندوة أكاديمية؛ بل كانت رسالة رمزية بأن بغداد حاضرة في ذاكرة العالم، وأن إعادة إعمارها ليست مشروعًا عمرانيًا فحسب، بل فعل مقاومة للنسيان. خرجتُ من مكتبة الكونغرس وأنا أشعر أنني تركتُ في تلك القاعة جزءًا من بغداد، وأخذتُ معي يقينًا بأن المدن تعيش في حواراتها مع الآخرين. لم تكن زيارتي إلى واشنطن مجرد حضورٍ بروتوكولي لمؤتمر "أسبوع الماء العالمي"، ولا مجرد حديثٍ تقني عن مشكلات المياه التي كانت تؤرق

بغداد. كانت الزيارة أقرب إلى رحلةٍ في الذاكرة، حيث التقت قضايا المدينة العطشى مع وجوه التاريخ.

في أروقة مكتبة الكونغرس. هناك، بين رفوف الكتب العتيقة التي تحتفظ بذاكرة العالم، وجدت نفسي أستعيد صورة بغداد: مدينة النهرين التي صاغت هويتي، وذاكرةً لا تغيب مهما ابتعدت المسافات. كان الحديث عن بغداد في تلك القاعة الرفيعة ليس محاضرة عابرة، بل شهادة وجدانية. كنتُ أستحضر شوارعها وأنهارها، ووجوه أبنائها الذين عرفتهم في زمن الخدمة العامة، وأحاول أن أضعها في قلب النقاش العالمي حول الماء والتنمية. وكأن بغداد، رغم جراحها، كانت تجلس إلى جانبي، تستمع ثم تهمس لي: "قل لهم إنني ما زلت مدينةً للحياة، مدينةً للسلام. كنتُ أرى واشنطن من منظور آخر مدينة القرار التي تحدد مصائر الشعوب البعيدة. وبينما كنتُ أسير في محيط الكابيتول، كان السؤال يلازمني: كيف يمكن أن تصل أصواتنا – كعراقيين – إلى آذان صانعي القرار بعيدًا عن مصالحهم وحساباتهم؟، خرجت من واشنطن بشعور مزدوج: ارتياح لأنني أوصلت صوت بغداد إلى أعلى المنابر، وقلق لأن حجم الدمار كان يفوق أي منحة أو اتفاق. ومع ذلك، بقي الأمل حيًا بأن هذه اللقاءات ستثمر يومًا ما في حياة الناس الذين كنتُ أمثلهم.

بوسطن مدينة الجامعات والذاكرة

لا يمكن زيارة بوسطن دون أن تشعر أنها مدينة تشكّل العقل الأمريكي. مبانيها الحمراء، شوارعها الضيقة المتعرجة، وجسورها التي تعانق نهر تشارلز، كلها تحمل طابعًا يجمع بين التاريخ الاستعماري والعلم الحديث. إنها مدينة الجامعات بامتياز؛ ففيها هارفارد، MIT، وبقية المؤسسات التي تصنع الفكر والسياسة والاقتصاد العالمي. عندما تصل إلى جامعة هارفارد، التي تأسست عام ١٦٣٦، تلمس عبق التاريخ إلى جانب حداثة الفكر. كلياتها وحدائقها ومكتباتها ليست مجرد أبنية؛ إنها فضاءات للبحث عن الحقيقة. وقفتُ أمام مبنى Gund Hall في كلية الدراسات العليا للتصميم (Graduate School of Design)، حيث انعقد المؤتمر، وشعرت أنني أمام منبر عالمي يفتح أبوابه أمام التجارب المتنوعة، ومنها تجربة بغداد.

من ١٨ إلى ٢٠ أيلول ٢٠١٤، نظّم قسم الدراسات الحضرية بجامعة هارفارد في بوستن مؤتمرًا بعنوان:

"Identity, Sovereignty, and Global Politics in the Building of Baghdad: From Revolution through the Gulf War and Beyond"



شارك فيه مؤرخون، مخططون، معماريون، وسياسيون، لمناقشة كيف أن التطورات العمرانية في بغداد لم تكن مجرد مشاريع بناء، بل تعبيرًا عن صراع سياسي وهوياتي ممتد منذ الخمسينيات وحتى ما بعد الغزو الأمريكي. في الجلسة الأولى التي حملت عنوان

"Baghdad in Regional, National, and Global Context"، قدّمتُ بحثًا بعنوان:

"The Influence of Politics on Urban Development: The Past,Present, and Future of Baghdad." تطرّقتُ فيه إلى كيف أثّرت القرارات السياسية عبر قرن كامل على شكل بغداد، من تخطيطها الأولي تحت الحكم الملكي، مرورًا بتحولات الجمهوريات، وصولًا إلى ما بعد ٢٠٠٣. عرضتُ مشكلات المدينة من انهيار البنى التحتية، الازدحام المروري، والعشوائيات، ثم طرحتُ تصورات مستقبلية: هل تكون بغداد

عام ٢٠٣٠ مدينة عالمية صحية أم عشوائية كبيرة غير صالحة كعاصمة؟.بين أروقة المؤتمر، وأحاديث الباحثين من كل أنحاء العالم، شعرت أن بغداد لم تعد وحدها. لقد أصبحت قصتها جزءًا من حوار عالمي عن المدينة، الهوية، والسياسة. وفي المساء، حين مشيت على ضفاف نهر تشارلز، كانت ناطحات بوسطن المتلألئة تذكّرني بأن المدن لا تعيش على الخرائط وحدها، بل على الأفكار التي تصنع مستقبلها.

في رحاب معرض NACAفي فلوريدا

في زيارتي مع العائلة إلى مركز كينيدي للفضاء عام ٢٠٢٠، شعرت أنني أدخل إلى معبدٍ للعلم، لا إلى معرضٍ تقنيٍّ فحسب. هنا، حيث تمتزج هندسة المعدن بعبقرية الإنسان، تروي الصالات المهيبة قصةَ قرنٍ من التطور العلمي؛ من أيام **NACA** (*National Advisory Committee for Aeronautics*)، الهيئة التي تأسست عام ١٩١٥ لوضع أسس البحث العلمي في الطيران، قبل أن تتحوّل عام ١٩٥٨ إلى وكالة **NASA** (National *Aeronautics and Space Administration*)التي فتحت أبواب المجرّات أمام الخيال والعقل معًا. في القاعة الأولى، تتدلّى مجسّمات الصوار يخ الأولى التي اخترقت الصمت الكوني، بينما تُعرض على الشاشات مشاهد مصوّرة لرحلات "أبولو" و"أطلس" و"سبيس إكس"

الحديثة، فتبدو وكأنها فصول من ملحمةٍ إنسانية كُتبت بالنار والضوء. وقفت طويلاً أمام نموذج لمكّوك الفضاء **Atlantis**، وقد أُعيد تركيبه بدقّة مذهلة، بينما تحيط به صور الروّاد الذين خاطروا بحياتهم ليجعلوا المعرفة ميراثًا مشتركًا للبشرية .كان المعرض يقدّم العلم بلغةٍ شعريةٍ لا تقلّ جمالًا عن أيّ لوحةٍ فنية؛ فهو يحكي عن رحلة العقل البشري من



المروحة الخشبية إلى الأقمار الاصطناعية، ومن أدوات القياس البسيطة إلى التلسكوبات التي ترصد المجرّات البعيدة خرجت من المعرض وأنا أؤمن أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنّ التقدّم العلمي ليس ترفًا، بل قدرٌ إنسانيٌّ لا مفرّ منه، وأنّ ما يرفع الأمم هو العلم حين يُقرن بالخيال، والإرادة حين تُسند بالمعرفة. حين أقلعت بنا الطائرة عائدةً إلى كندا، تسلّل إلى ذهني وجهُ بغداد... بغداد التي لم تكن يومًا مدينةً عادية، بل سماءً زاخرةً بالنجوم والعقول النيّرة. هناك، قبل أكثر من ألف عام، ازدهر علم الفلك كما لم يزدهر

في أي مكانٍ آخر. ففي القرن الثامن الميلادي، زمن الخليفة المأمون (٨١٣–٨٣٣م)، أُنشئ في بغداد بيت الحكمة، ذلك الصرح العظيم الذي جمع العلماء من مختلف الأديان والأجناس، يدرسون السماء كما يدرسون الأرض. في تلك الحقبة، قام الفلكيون العرب والمسلمون بقياسات دقيقة لحركة الكواكب والنجوم، وصححوا جداول بطليموس الإغريقي، وابتكروا آلات فلكية مثل الأسطرلاب ومن بين أعظم هؤلاء العلماء البتّاني (Al-Battānī، ٨٥٨–٩٢٩م) الذي وضع جداول فلكية غاية في الدقة، والفرغاني (Al-Farghānī، ٨٠٥–٨٨٠م) الذي ألّف كتابه الشهير جوامع علم النجوم والحركات السماوية، والزرقالّي (Az-Zarqālī، ١٠٢٩–١٠٨٧م) الذي أدخل تصحيحات مهمة على حسابات مواقع النجوم. للمعلومات أن معظم النجوم التي نهتدي بها اليوم ما زالت تحمل أسماءً عربية، نُقلت كما هي إلى اللغات الأوروبية، لأن العرب هم الذين رصدوها ووصفوها بدقة. وحين نتأمل خريطة السماء اليوم، نجدها تنطق بالعربية، حتى وإن كُتبت بحروفٍ لاتينية. فليس صدفةً أن تُسمّى النجوم في اللغات الأوروبية بأسماءٍ مثل Aldebaranو Altairو Rigelو Deneb — فهذه كلها كلمات عربية الأصل. هذه الأسماء ليست مجرد ألفاظٍ عربية في خرائط فلكية، بل شواهد على مرحلةٍ كان فيها اللسان العربي لغة العلم الكوني .

مدنٌ على ضفاف التاريخ

زرت مدنًا ما زالت أبوابها الحجرية وساحاتها العامرة تحرس ذاكرة العصور؛ مدنًا تروي حكايات الإنسان مع الزمن، بين العظمة والانكسار، النهوض والانبعاث. في موسكو تقف الميادين شاهدة على هيبة التاريخ، أثينا تهمس بأعمدة الأكروبوليس عن ولادة الفلسفة، ومدن المغرب وتونس التاريخية ووارسو تنهض من أنقاض الحرب رمزًا للصمود. على ضفاف الدانوب تحكي بودابست قصتها، وفي دبلن يُقرأ التاريخ أدبًا وشعرًا. طوكيو تُعانق المستقبل من دون أن تترك ماضيها، وإسطنبول تتنفس على قارتين، فيما تظل لندن، بوجهها الإمبراطوري، تدير ساعة العالم.

تلك المدن ليست أحجارًا صامتة، بل ذاكرة العالم النابضة؛ كلُّ ميدانٍ فيها يحمل صدى خُطى مَن مرّوا، وكلّ جدارٍ يحفظ أنفاس قرونٍ من المجد والانكسار. نتجوّل فيها فلا نقرأ التاريخ فحسب، بل نقرأ أنفسنا في مراياه. فالمكان ليس ما نراه بأعيننا، بل ما يوقظه فينا من أسئلةٍ وحنين. في المدن التي صمدت وتحوّلت، نتعلّم أن الحضارة ليست نقيض الفناء، بل استمرار المعنى رغم العبور؛ وأن الإنسان، أينما عاش، يترك وراءه أثرًا يشهد عليه الحجر ويكمله الحلم .وهكذا تظلّ المدن على ضفاف التاريخ

شاهدةً على قدرة الروح البشرية على النهوض من الركام، وعلى صناعة الأبد من لحظةٍ عابرة.

موسكو ١٩٧٦ذكريات من زمن السوفيات

كانت الرياح الباردة تعانق وجهي لأول مرة حين وطئت قدمي أرض مطار "شيريميتيفو" Sheremetyveo قي ذلك الشتاء البارد من عام ١٩٧٦. وصلت من بغداد، حيث الدفء والنخيل، إلى موسكو، حيث الثلج يكسو كل شيء كذكرى بيضاء. كانت تلك رحلتي الأولى إلى عاصمة السوفيات، المدينة التي طالما سمعت عنها في نشرات الأخبار .زيارتي لموسكو استمرت لمدة سبعة أيام وأول مشاهداتي لموسكو المدينة التي يتداخل فيها الماضي العريق مع الحاضر النابض بالحياة. تأسست في عام ١١٤٧م، وأينما ذهبت، ستجد تحفًا معمارية تمزج بين التاريخ والحداثة. من أبرز المشاهد التي علقت في ذاكرتي كانت الكنائس الأرثوذكسية الجميلة التي تقف بشموخ بجوار المباني السوفيتية الضخمة، وكأنها تجسد مزيجًا فريدًا بين الروحانية والقوة. أحد الجوانب التي لفتت انتباهي هو تأثير الثورة البلشفية والتي حصلت في عام ١٩١٧م على طابع المدينة، حيث تركت بصمتها الواضحة على العديد من المعالم والشوارع. الكرملين كلمة روسية الأصل تُترجم إلى "قلعة" أو حصن، بني منتصف القرن الخامس عشر يتكون المبنى من قصر الكرملين الكبير وخمسة قصور أخرى وأربع

كاتدرائيات، وأبراج الكرملين وجدار يحيط بها وقد استخدم تاريخيا كمقر إقامة القيصر، قبل الإطاحة بالنظام الملكي كانت مدينة سانت بطرسبرغ عاصمة لروسيا حتى استولى البلاشفة على السلطة في أوائل القرن العشرين، ونقل العاصمة إلى موسكو في عام ١٩١٨، ثم أصبح الكرملين مركز الحكومة والسلطة في الاتحاد السوفيتي الجديد. يقع الكرملين في قلب موسكو، يحده نهر موسكفا من الجنوب وكاتدرائية القديس باسيل، والساحة الحمراء من الشرق وحديقة الإسكندر من الغرب. في صباح اليوم الأول، توجهت إلى الساحة الحمراء، التي لم تكن حمراء حقاً، بل بدت كسجادة رمادية مكللة بالثلج. قررت زيارة ضريح زعيم الثورة البلشفية في روسيا ومؤسس دولة الاتحاد السوفياتي فلاديمير لينين أحد أكثر الأماكن جذبا للمواطنين الروس والسياح الأجانب في الساحة الحمراء، ويقع بالقرب من جدار الكرملين الجنوبي في العاصمة موسكو، ويتمتع إلى جانب ذلك بأهمية تراثية وقيمة تاريخية كبيرة لمؤيديه. وقفت أمام ضريح لينين، ذلك المبنى المكعب المصنوع من الجرانيت الأحمر، حيث يرقد الزعيم السوفياتي محنطاً كتحذيرٍ من الموت.

دخلت في صف طويل من الزوار، معظمهم من الرفاق القادمين من جمهوريات الاتحاد السوفياتي، يرتدون معاطف سميكة وقد نزعوا قبعاتهم ويحملون نظراتٍ بين الإجلال والفضول. يسود الضريح جو بارد،

إضافة إلى إضاءة خافتة. يدخل الزوار إلى الداخل ويمرون بصمت ودون توقف أمام جسد لينين في وسط القاعة، وهو يرقد في تابوت زجاجي ببدلة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء، يلزم الرجال بنزع قبعاتهم عند دخول الضريح، ويمنع إدخال أي أجهزة للتصوير. وعندما رأيت جثمان لينين خلف الزجاج، شعرت بغرابةٍ لا توصف كأن التاريخ قد توقف هنا، وكأن الزمن نفسه رفض أن يمر .بعد ذلك، تجولت حول سور الكرملين، حيث الأبراج الحمراء تلوح كأسنان تنين قديم، وشعرت بثقل التاريخ يضغط على صدري. كانت المباني الضخمة، الكبير، تشع بقوةٍ صامتة، وكأنها تقول: "هنا تُصنع القرارات التي تهز العالم ".

بعد الظهر، مشيت نحو شارع كالانينا Kalinina (الذي يُعرف اليوم بشارع تفرسكايا Tverskya)، الشارع الرئيسي الذي يربط الساحة الحمراء بقلب موسكو الحديثة. هنا، بدت المدينة أكثر حيوية—متاجر مليئة بالبضائع (رغم أنها قليلة مقارنةً بالغرب)، مقاهٍ دافئة حيث يجلس الروس لشرب الشاي الأسود مع المربى، وسيدات مسنات يحملن حقائب شبكية مليئة بالخبز .تذكرت مقهى صغيراً دخلته، حيث جلست بجوار نافذة متعرجة من الصقيع، وشربت كوباً من "شاي الكار كاديه" الأحمر القاني. كان الروس حولي يتحدثون بهمس، وكأنهم يخشون أن تسمعهم الجدران. أحدهم نظر إليّ وقال: "أين أنت من؟" وعندما أجبت "من العراق"، ابتسم وقال: "أهلاً بالرفيق!" ثم سكت، وكأن هذه الكلمة كانت كافية لفهم كل شيء .مترو

موسكو تمثل قصور تحت الأرض ولا يُذكر الاتحاد السوفيتي دون أن يُذكر مترو موسكو، هذا المعمار الذي تجسّد فيه حلم البلاشفة ببناء "قصور للشعب" بدلاً من قصور القياصرة. حين نزلت إلى محطة "ماياكوفسكايا Mayakovskaya" كنتُ أدخل متحفاً لا محطة مترو. الثريات الكريستال تُنثر الضوء على أعمدة الرخام الوردي، والأقواس الفولاذية التي تتدلى منها مصابيح ذهبية كأنها استعارت بهاءً من قصر الشتاء. هنا، حيث كان العمال والجنود والفلاحون يمرون يومياً، كان الفن يصرخ: "هذا مجدكم! هذا جمالكم."! في اليوم التالي زرت المحطة الأكثر إثارة كانت "كييفسكايا". على جدرانها، امتدت لوحات فسيفسائية عملاقة تُجسّد بطولات الشعب البيلاروسي خلال الحرب الوطنية العظمى. هناك، حيث يتوقف المسافرون ليتأملوا الوجوه المصنوعة من الحجر والزجاج، كان التاريخ السوفيتي يُروى دون كلمات—صرخة صامتة تخلد الانتصار والألم معاً . أما محطة "نوفوسلوبودسكايا Novoslovodskaya"، فكانت تحفة أخرى. أقواسها الزجاجية الملوّنة، التي صممها فنانون من أجل "تجسيد جمال الاشتراكية"، كانت تلمع تحت الأرض كأحلام ملوّنة. كل لوحة زجاجية هنا تُظهر عالماً من الرموز مناجل، شعلات، وآلات ترمز إلى الصناعة والزراعة كلها تُذكر بأن هذا المكان بُني ليكون هيكلاً لعبادة الإنسان العامل .

وما لم يكن مرئياً للعيون كان أكثر إثارة بعض هذه المحطات تمتد إلى عمق ٨٠ متراً تحت الأرض. كنتُ أسير في الأنفاق وأنا أعلم أن هذه الأعماق لم تُختَر فقط لأسباب جيولوجية، بل لأنها صُممت لتصبح ملاجئ نووية خلال الحرب الباردة. كان الجمال هنا يحمل نَفَساً مزدوجاً يروي قصة الفن، ويخفي قصة الخوف .حين تركب مترو موسكو، لا تمر من نقطة إلى أخرى، بل تمر عبر زمنٍ متعدد زمن الثورة، زمن الحرب، زمن البناء. كل محطة هي فصل من ملحمة السوفيات، وكل عمود رخامي هو شاهد على حلمٍ كان يريد أن يصنع الجنة على الأرض . اليوم، بعد أن انتهى الاتحاد السوفيتي، بقي المترو شاهداً ليس فقط على ما أرادوه أن يكون، بل على ما كان: تحفة معمارية تروي أن الفن قد يولد من رحم الأيديولوجيا، لكنه يعيش طويلاً بعد موتها.

برج موسكو تحفة هندسية تتحدى الجاذبية

من زهرة القرنفل القوية وجذعها السميك، وُلدت فكرة برج أوستانكينو (Ostankino)في موسكو، شاهقًا بارتفاع ٥٤٠ مترًا كرمزٍ لقوة الهندسة السوفيتية وإبداعها. صُمم البرج ليشبه زنبقًا مقلوبًا جذع خرساني قوي يبلغ ارتفاعه ٣٨٥ مترًا، يتوج بدعم أنبوبي فولاذي بطول ١٥٥ مترًا يحمل هوائيات البث. لكن العبقرية الحقيقية تكمن في الأساسات حلقة خرسانية قطرها 60 مترًا تحمل وزنًا هائلاً يصل إلى 55 ألف طن، مع مركز ثقل يقع

على ارتفاع ١١٠ أمتار، مما يضمن استقرار البرج الشاهق وكأنه يتحدى قوانين الفيزياء. في اليوم الأخير، زرت برج أوستانكينو، أطول برج في أوروبا آنذاك. وأيقونة معمارية فريدة من نوعها ليس فقط في موسكو، بل وفى العالم، ويقع في شمال شرق موسكو. ابتدأت زيارتي من الطابق الأرضي حيث المعرض الدائم، ترى قصة البرج منذ أول رسم على الورق حتى اكتماله. صورٌ للمهندس المصمم وهو يحمل دفاتره، ونماذج مصغرة تظهر كيف نما البرج مترًا تلو الآخر، وشاشات تعرض التحديات الهندسية التي واجهت البناء من الرياح العاتية إلى صعوبة صب الخرسانة على ارتفاعات خيالية. صعدت عبر واحد من خمسة مصاعد رئيسية تنطلق من الطابق الأرضي إلى قمة البرج في ٥٨ ثانية فقط. في الطريق، تمر عبر شرفات دائرية تطل على موسكو كخريطة ممتدة من الأضواء والأحلام. في القمة، لا يوجد فقط أجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني، بل أيضاً مجمع كامل للأرصاد الجوية وخدمات الأمن، مما يجعل البرج مدينة عمودية تعمل بلا توقف. رأيت موسكو كلها المدينة المترامية الأطراف، حيث المباني السوفياتية الضخمة تختلط بالكنائس القديمة ذات القباب الذهبية. في الأفق، رأيت دخان المصانع يتصاعد، والأنوار تبدأ بالوميض مع حلول الظلام. شعرت للحظة أنني أرى إمبراطورية عظيمة، لكني تساءلت هل هي إمبراطورية آخذة في الصعود، أم في الانهيار.

حاولتُ التقاط صورة للمدينة من الطابق العلوي. فجأة، ظهر حارسٌ بقبعة سوفيتية رمادية، يصرخ بلغةٍ لم أفهمها إلا من إشاراته "(لا صور!). حاولتُ شرح أنني سائح، فجذب الكاميرا من يدي بفظاظة وأشار إلى لافتة مكتوبة بخط أحمر" ممنوع التصوير - المنطقة استراتيجية." احمد صديقي طالب الدكتوراه العراقي الذي رافقني زيارة البرج الذي كان يشهد الموقف، همس لي ساخراً "حتى السحاب هنا ممنوع تصويره!". غادرنا المكان وأنا أحمل كاميرتي خاوية، لكنّ صورة ذلك الحارس الغاضب بقيت محفورة في ذاكرتي أكثر من أي منظرٍ روسي. في اعلى البرج حيث المطعم الدوار والذي يقوم بدورة كاملة خلال 90 دقيقة طلبنا وجبة الطبق"[7] بيبف ستروغانوف Beef Stroganoff " مع فطائر "بيلميني Plmeni بينما كنت استمع لموسيقى تعزف الكمان الحي. البرج ليس



[7] وجبة الطبق هي شرائح رقيقة من لحم البقر مع البصل والفطر، مع الأرز الأبيض، أو البطاطس المهروسة، أو المعكرونة، ليجمع بين الثراء في النكهة والبساطة في المكونات.

مجرد هيكل معدني وخرساني - إنه قصيدة كتبتها أيادي المهندسين السوفييت، وإثبات أن الجمال والوظيفة يمكن أن يلتقيا في السماء.

غادرت موسكو بعد أيام في صباح ثلجي، وحقيبتي مليئة بالهدايا دمى ماتريوشكا[8]، Matryoshka doll وعلبة سجائر "بيلوموركانال"[9] Belomorkanalالتي احتفظت بها لسنوات كتذكار . اليوم، بعد أن سقط الاتحاد السوفياتي، وتغير شارع كالانين إلى اسم جديد، وتحولت موسكو إلى مدينة أخرى، أتذكر تلك الأيام وكأنها من زمنٍ موازٍ. زمن كان فيه العراقي يزور موسكو كرفيق، لا كسائح. زمن كانت فيه الثلوج تغطي كل شيء—تى الحنين نفسه.

أثينا عاصمة اليونان

في صيف عام 1978، حطّت قدماي على أرض أثينا، مدينة الأساطير، والآلهة، والديمقراطية الأولى. لم تكن المدينة آنذاك وجهة سياحية كاسحة

---

[8]هي مجموعة من الدمى الخشبية المجوَّفة، تُفتح واحدة لتكشف عن أخرى أصغر داخلها، حتى تنتهي بسلسلة من الشخصيات المتدرجة في الحجم. عادةً تُرسم بملامح امرأة ريفية ترتدي الزي الشعبي الروسي بألوان زاهية، وغطاء رأس تقليدي.

[9] هذه السجائر اشتهرت بتغليفها الأبيض والأزرق البسيط، وبنقش القناة على علبتها، وكأنها دعاية رسمية لتخليد "إنجاز" الدولة. كانت تُعتبر سجائر شعبية ورخيصة الثمن، دخنها ملايين العمال والجنود، حتى صارت جزءًا من صورة الحياة اليومية السوفييتية.

كما هي اليوم، بل كانت تعيش مرحلة انتقالية بين إرثها العتيق وحداثة تتشكل على مهل، في قلب زحام شوارعها المتعرجة وأحيائها التي تنبض بالحياة. أول ما شدّني في أثينا هو ذلك التباين الحاد بين العمارة القديمة المتهالكة، التي تروي فصولًا من التاريخ، والمباني الخرسانية الحديثة التي غزت الأحياء الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية، مُعلنة عن زمن آخر تسعى المدينة إليه. رغم الفوضى العمرانية والنمو السكاني السريع، احتفظت بعض المناطق بسحرها العتيق. في حي "بلاكا Plaka "، تهمس الأزقة الضيقة بلغاتٍ متعددة، وتتصاعد رائحة المسقعة "الموساكا Moussaka" من المطاعم الصغيرة، بينما تعزف آلة الب ألحانًا تقليدية توجّه القلب نحو الشجن. هناك، جلست في أحد المقاهي أحتسي قهوة يونانية مُرّة، متأملًا جبل الأكروبوليس يعلو المدينة مثل شاهدٍ خالد على ولادة الفكر الحرّ. صعدت ذلك الجبل في صباح مشمس، وكانت الحجارة تئنّ تحت خطاي، وكأنها تحمل ذاكرة آلاف الزوار من الفلاسفة والجنود والحالمين. كان معبد البانثيون، رغم تهدّمه، لا يزال يُشعّ بجلال لا يمكن للزمن أن ينتزع هيبته. كانت أعمال الترميم جارية، لكنها لم تحجب عني سحر المكان ولا صدى خطوات أثينا، الإلهة التي كانت ذات يوم تحرس هذه المدينة. لم يكن هناك متحف الأكروبوليس الحديث حينها، بل متحف صغير متواضع يضم بقايا تماثيل ورؤوس آلهة مقطوعة، بدت لي وكأنها تبحث عن أوطانها المفقودة. في ساحة سينتاغما، Syntagma Square

رأيت كيف تلتقي السياسة بالتاريخ أمام مبنى البرلمان، حيث يتبدل الحراس بزيهم التقليدي في طقس شبه مسرحي، بينما تتناثر حولهم طيور الحمام وأصوات الباعة. وإن أردت أن ترى أثينا كلها دفعة واحدة، فعليك بجبل ليكابي توس، حيث تتسع الرؤية لتشمل الأزقة والأسطح البيضاء، والبحر الذي يلوّح من بعيد. جلست هناك طويلًا، أستحضر أسماء سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وأتأمل كيف أن هذه المدينة، رغم البلى والتناقض، لا تزال تلهم من يزورها بفكرة: أن الحضارة لا تُقاس بجمال المباني فقط، بل بعمق الأثر. ورغم الزحام وندرة النظام في بعض مفاصل المدينة، أحسست بشيء يشدّني إلى أثينا. ربما هو التاريخ الذي يسير بلا كلل تحت الإسفلت، أو ربما هو الشعب الذي يتعامل مع الحياة ببساطة لا تخلو من الكبرياء.كانت أثينا في 1978 لا تزال تخطو نحو التحديث، لكنها تفعل ذلك على طريقتها ببعض الفوضى، بكثير من الروح، وبذاكرة لا تموت.

رحلتي إلى المغرب

خلال السنة الأولى من دراستي تعرفت على "عزيز"[10]، ذلك الشاب المغربي قال لي ذات يومٍ بابتسامةٍ دافئة: "لماذا لا تزور للسفرة خلال العطلة الربيعية وبعد شهرين، هبطت الخطوط الجوية الفرنسية

[10] لم يكمل عزيز دراسته حيث قتل في حادث مؤسف عام 1983 رحمه الله

القادمة من ليون في رحلة مباشرة إلى مطار مراكش، وكان عزيز في انتظاري بملابسه التقليدية التي تلفت الأنظار، "الجلابة" الزاهية بلونها الأبيض والكُحلي، و"البلغة" الجلدية التي تخطو على أرضٍ عتيقة. المدينة استقبلتني بعناقها الحار، بعبق التوابل المعلّق في الهواء، وبصوت الأذان الذي ينساب من مئذنة قريبة كأنه نداءٌ إلى روحٍ ضائعةٍ



وجدت مأواها. دار عائلة عزيز كانت لوحةً من الكرم. والده، الرجل الوقور الذي كان يدير أحد البنوك، تحدّث معي بلغة عربية واضحة، مطعّمة ببعض الكلمات الفرنسية، بينما قدّمت لي والدته طبق "التاجين باللحم والبرقوق" برائحة الزعفران واللوز، وقالت بلهجةٍ أمومية: "هذا بيتك، كلْ يا ولدي." شعرتُ كأنني بين أهلي. الأخ الأصغر لعزيز، "يوسف"، كان شغوفًا بسرد حكايات المدينة، بينما أخته "ليلى" أعدّت لنا الشاي بالنعناع في إبريقٍ فضّي، رفعته عاليًا كي يصنع الرغوة التي تُسمّونها "رأس

الشاي". في اليوم التالي، خُضنا معًا متاهة "سوق السمارين"، في قلب المدينة القديمة (المدينا) ويمتد من ساحة جامع الفنا شمالًا إلى مدرسة بن يوسف، ويعتبر الشريان التجاري الرئيسي في قلب مراكش النابض. السوق كان كحلمٍ ملون، تتدفّق فيه الحياة كالنهر. روّاده خليطٌ من الباعة الحرفيين، السياح الفضوليين، والنساء المُتغطيات بالجلابيات يحملن سلال الخُضَر. رائحة الخشب المعطّر تتصاعد من ورش النجّارين، وهم ينحتون الأبواب العتيقة بزخارفَ تُحاكي جنّات بلدي. سأريك المغرب الذي لا يعرفه السياح. لم أتردّد. خططنا للسفرة خلال العطلة الأندلس. عبر الممرّات الضيقة، كانت تُعرض "الفخّار الأزرق" من فاس، "المنسوجات الحريرية" المطرّزة بخيوط الذهب، و"القفطان المغربي" الذي يلمع تحت أشعة الشمس المتسلّلة عبر سقف القصب. توقّفت عند بائع التوابل، فأراني أكوامًا من الكركم، الكمون، والزعفران الذي يُلقّب بـ "الذهب الأحمر". بائعٌ آخر ناداني: "تعالَ! جربّ الحلوى المغربية!" فمدّ إليّ قطعةً من "الزلابيا" الذهبية، تذوب في الفم كحلاوة الذكريات. رتّب عزيز رحلةً بالسيارة عبر مدن الشمال. في "الرباط"، زُرنا صديقه "عمر"، الموظف في وزارة الثقافة، الذي أخبرني عن سرّ "الشّلوح" (الأسوار الموحّدة) التي تحيط المدينة. في "فاس"، استقبلنا "الحاج محمد"، تاجر السجاجيد العتيق، في داره التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر، حيثُ شربنا الشاي في "الريّاض" (الحديقة الداخلية) بين نوافير الماء ونخيل الواحة. أما "القنيطرة"

و"الدار البيضاء"، فقد كانتا محطّتين مختلفتين: الأولى هادئة كأن الزمان توقّف فيها، والثانية صاخبة بحداثتها، حيثُ التقيتُ بصحفيّين من أصدقاء عزيز في مقهى "لاكازا"، وتحدّثنا عن "السينما المغربية" الناشئة. في كلّ مدينة، كان الكرم هو العنوان: موائد عامرة، ضحكاتٌ تعلو، وعباراتٌ مثل "الله يبارك فيك" أو "مرحبا بيك في أي وقت". لم تكن زيارتي للمغرب مجرّد رحلة بين المدن والتاريخ، بل كانت أيضًا رحلة في عجائب اللغة العربية واختلافاتها المدهشة. فالكلمة الواحدة التي نعتبرها في العراق عاديةً، قد تتحوّل في المغرب إلى قنبلة موقوتة من الدلالات الطريفة أو المحرجة .في اليوم الثالث من وصولي، دُعيتُ إلى عشاءٍ في منزل أحد اقارب عزيز، حيثُ كان من بين المدعوين طبيبٌ عراقي يعيش في المغرب منذ سنوات. اسمه الدكتور علي الوردي ولا زلت اذكر اسمه لأنه يحمل اسم عالم الاجتماع العراقي المعروف الدكتور علي الوردي سعدت كثيرًا بلقاء مواطنٍ عراقي، وخصوصًا في بلدٍ غريب. بدأنا نتحدث عن العراق وأحواله، وكان يجلس على أريكه مقابلة لي وعندما أردتُ أن أُطلع الطبيب على بعض الأخبار المهمة، قلتُ له بصوت عال لأنه يجلس بعيد مني قليلا بحماس: دكتور.. أحجيلك باللهجة العراقية!

في الحال، لاحظتُ ابتسامةً خفيفةً تعلو وجهه، ثم اقترب مني وهمس في أذني: "يا أخي، انتبه! هنا 'أحشيلك' تعني شيئًا آخر..! سكتُ لحظةً محاولًا فهم ما يعنيه، ثم انفجر ضيوف المغاربة في الضحك. أخبرني عزيز

لاحقًا أن كلمة "أحشيلك" في اللهجة المغربية تعني "أُريك مؤخرتي"! تصوّروا موقفي وأنا أريد أن أقول له "أخبرك" فتحوّل الأمر إلى نكتةٍ تذكّرها الجميع طيلة الليل! لم تكن "أحشيلك" الكلمة الوحيدة التي أوقعتني في المشاكل. في اليوم التالي، ذهبنا إلى مقهى في مراكش، وعندما أراد النادل أن يأخذ الطلب، قلت له: "حبيبي، أريد شاي!" نظر إليّ النادل باستغراب، ثم قال لي عزيز: "هنا 'حبيبي' لا تُقال إلا بين العشاق أو الأصدقاء المقربين جدًا!" في العراق، نستخدمها كتعبيرٍ عادي مثل "يا عزيزي"، لكن في المغرب، قد تُفهم بطريقةٍ أكثر حميمية! بعد حادثة "أحشيلك"، أصبح الدكتور علي الطبيب العراقي ضيف الشرف في تفسير الفروقات اللغوية. قال لي ضاحكًا عندي قائمةٌ كاملةٌ من الكلمات العراقية التي تسبّبت لي بمشاكل هنا! مثلاً، لو قلتَ لمغربي 'شلونك؟' سيفهمها 'ش-لون-ك '(ما لونك؟). ضحكنا جميعًا، ثم بدأنا نتبادل الكلمات مثل "لعبة لغوية". أخبرتهم أن "مْعَلّـمة" في العراق هي المدرسة، أما في المغرب فهي "اللوح الخشبي" الذي يكتب عليه التلاميذ! حتى كلمة "قاعد" التي نستخدمها للدلالة على الجلوس، قد تُفهم في المغرب على أنها "مستمر"، مثل: "قاعد نأكل" (أنا مستمر في الأكل).

اللغة.. جسرٌ بين الثقافات

في نهاية الرحلة، أدركتُ أن هذه المواقف الطريفة لم تكن مجرّد أخطاء لغوية، بل كانت نوافذَ أطلّ من خلالها على ثراء اللهجات العربية. كل كلمةٍ تحمل حكاية، وكل التباسٍ يفتح بابًا للحوار والضحك. قال لي عزيز عند توديعي: "الآن صرت تعرف.. في المغرب، كلمة 'زعـلان' لا تعني 'غاضب' مثل العراق، بل تعني 'حزين'! فإذا قلتَ لأحدهم 'لا تزعل'، قد يظنّ أنك تعزيه! ضحكتُ وقلتُ له: "حسنًا.. لن أقول إلا 'ما نزعـلـش' ("ما نزعلش" تعني "لا أغضب" في المغرب، لكنها في العراق قد تُفهم كتهكّم!) "خوش" (في العراق تعني "جيد"، أما في المغرب فهي من أسماء القطط!). - "مقدح" (في المغرب تعني "متعب"، أما في العراق فهي ليست كلمة معروفة!). وهكذا، تعلّمتُ أن اللغة قد تجمعنا أحيانًا.. وتفرّقنا في أحيانٍ أخرى، لكنها دائمًا ما تتركنا مبتسمين! . عندما دخلتُ مطبخ والدة عزيز في مراكش لأول مرة، رأيتها تُعدُّ طبق الكُسْكُس" ببراعة، فصرختُ دون تفكير: "والله هذا مشابه للمَقلوبة عندنا في العراق!" نظرت إليّ مستغربةً، ثم بدأت تضحك عندما شرحت لها أن " المَقلوبة " هي أكلة عراقية من اللحم والخضار تُشبه الكسكس في ترتيب المكونات، رغم اختلاف التفاصيل. قالت وهي تضع يدها على صدرها: "هذا من بركة الأجداد.. حتى لو اختلفت الأسماء، فالقلوب تعرف بعضها!" في صباح اليوم التالي، قدّم لي والد عزيز "القهوة المغربية" بنكهة الهيل، فاندهشتُ لأنها تكاد

تكون مطابقةً قهوة "الزنجبيل" التي يشربها كبار السن في البصرة. عندما علّقتُ على التشابه، قال وهو يحرّك الملعقة في الإبريق النحاسي "العرب أينما حلّوا، يحملون معهم حبَّ الضيافة.. حتى لو اختلفت لهجاتنا، فطعم الكرم واحد!" .أثناء زيارتي حضرتُ عرسًا مع عزيز. عندما بدأ الموسيقيون يعزفون "الناي" والدربوكة،[11] شعرتُ بأنني في أعراس الجنوب العراقي! الفرق الوحيد هو أن المغاربة يرقصون "الكدرة" بينما نرقص نحن "الجوبي"، لكن الإيقاع ذاته، والفرح ذاته، حتى الأهازيج كانت متشابهة: اكتشفتُ أن التشابه يمتد إلى التفاصيل الصغيرة:1التبخير بالبخور في المغرب يُسمّى "التعطير"، وفي العراق "البخور"، لكن الفعل واحدٌ– تطهير البيت برائحة العنبر والخشب. "الجلّة" (الدائرة): سواء في مقاهي مراكش أو بغداد، يجلس الرجال في حلقةٍ لتبادل الأخبار، وكأنما الأرض تدور بهم بنفس الإيقاع. سمعتُ في دار عزيز حكاية "جحا المغربي" (المعروف باسم "جحا" أو "جهيمان")، وهي نفس النكات التي تحكيها جدّتي في بغداد مع تغيير الأسماء! لماذا هذا التشابه؟ التاريخ يروي القصة قال لي المؤرخ المغربي "د. عبد الرحيم" الذي التقيته في الرباط "هل تعلم أن القبائل العربية التي استقرّت في المغرب بعد الفتح الإسلامي جاءت معظمها من

---

[11] الدربوكة هي آلة إيقاعية منتشرة جدًا في العالم العربي والمغاربي، وتُسمى أيضًا **الطبلة** أو **الدمبك** في بعض البلدان.

العراق والحجاز؟ حتى أن بعض عائلات فاس تُلقّب نفسها بـ ‘البغدادي' العراقي أو 'البصري'! ". بعد عودتي الى ليون، أهداني عزيز "طاجينًا" من الفخّار، وقلتُ له: "سأطبخ فيه الباميا العراقية ضحك وقال العرب كالشجرة الواحدة.. قد تتباعد الجذور، لكنّ الثمار تحمل نفس العُصارة." حتى في الطب الشعبي: استخدام الحبة السوداء والعسل للعلاج .أخيرا اللغة قد تختلف، والمسافات قد تطول، لكنّ الذاكرة الجمعية للعرب تحمل نفس البصمات.. كأنما الأجداد تركوا لنا خريطةً مخفيّةً للتقارب!

عبق المغرب.. ذكريات لا تُنسى

لم تكن رحلتي الأولى إلى المغرب عام التي 1981 مجرّد زيارة عابرة، بل كانت انفتاحًا على عالمٍ جديد وبعد ما يقارب أربعة عقود قاربت الأربعين عامًا، عدتُ إلى المغرب، هذه المرة من بوابة باريس، ضمن رحلة إلى منطقة المغرب العربي شملت أيضًا تونس.

من باريس، حيث تنسجم الأضواء مع صخب الحياة، انطلقت رحلتي نحو المغرب، تلك الأرض التي تحمل في طياتها عبق التاريخ وسحر الثقافة. هبطت في مطار الدار البيضاء، واستقبلني هواء البحر المتوسط المنعش، محملاً برائحة التوابل والمأكولات الشهية .تواجدت في الدار البيضاء(كازابلانكا) ثلاثة أيام كانت كفيلة بأن تأسر قلبي. في اليوم الأول لوصولي تجولت في المدينة القديمة، حيث تملئني الألوان الزاهية وروائح

الأسواق. شوارعها الفسيحة كانت تعج بالحياة، وابتسامات أهلها كانت كفيلة بأن تزيل أي شعور بالاغتراب .

تأسست مدينة الدار البيضاء (كازابلانكا) في القرن 7 الميلادي، وكانت تُعرف حينها باسم "أنفا". على مر العصور، شهدت المدينة تحولات كبيرة، خاصة بعد أن أعيد بناؤها في القرن 19. في عام 1912، أصبحت الدار البيضاء مركزًا استعماريًا فرنسيًا، مما ساهم في تطورها السريع. اليوم، تُعدّ المدينة واحدة من أكبر المدن في المغرب، حيث تمتاز بمزيج من العمارة التقليدية والحديثة، مع معالم بارزة مثل جامع الحسن الثاني الذي يُعتبر من أكبر المساجد في العالم. في اليوم الثاني بدأت جولتي بزيارة جامع الملك الحسن الثاني على ساحل **الدار البيضاء** مباشرة فوق صخرة مطلة على المحيط الأطلسي، وكأن البحر يحيط به من ثلاث جهات. هذا الموقع يرمز إلى قوله تعالى" :*وكان عرشه على الماء*" ، لذلك اختير أن يُبنى المسجد على المحيط[12].كانت تفاصيله الدقيقة تروي حكايات من الزمن الجميل، حيث لمست عظمة الفن الإسلامي في كل ركن من أركانه. صممت

---

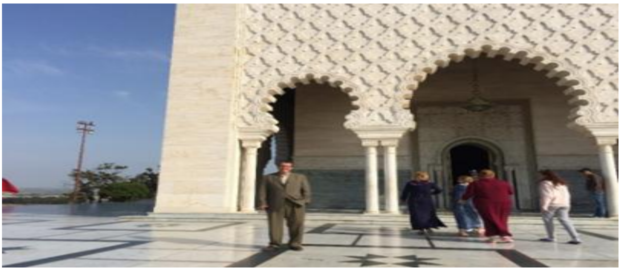
[12] افتُتح عام 1993.من تصميم المهندس الفرنسي ميشال بينسو، بمشاركة آلاف الحرفيين المغاربة. يتسع المسجد لنحو 25 ألف مصلٍ داخل القاعة، وما يقارب 80 ألفًا في الساحة الخارجية. المئذنة بارتفاع 210 أمتار، وهي الأعلى في العالم، ويُضاء في أعلاها شعاع ليزر يشير نحو مكة. زخارفه داخلًا وخارجًا من الزليج، الرخام، الخشب المنقوش، وكلها أعمال تقليدية يدوية مغربية.

المنارات والنقوش بدقة متناهية، مما جعلني أشعر وكأني في عالم آخر. بعد ذلك، بعد ثلاثة أيام غنية بالتجارب، غادرت الدار البيضاء إلى الرباط. صعدت إلى القطار في محطة أنيقة، حيث تتداخل الألوان مع أصوات المسافرين. كانت محطة القطار في الدار البيضاء تعكس حيوية المدينة، بينما محطة الرباط كانت أكثر هدوء وتنظيم المسافة بين المدينتين ليست بعيدة، حيث استغرقت الرحلة حوالي ساعة ونصف في درجة أولى مريحة، حيث استمتعت بمشاهد المناظر الطبيعية الخلابة التي تمر أمام عيني. وصلت إلى الرباط، حيث قضيت ثلاثة أيام أخرى في استكشاف عراقتها. المدينة مخططة بشكل حضري، حيث يمتزج القديم بالحديث تخطيط مدينة الرباط الحضري يعكس التنوع الثقافي والتاريخي للمغرب، مما يجعلها وجهة فريدة تستحق الزيارة. تتميز المدينة بمزيج من التاريخ والمعاصرة، حيث تحتضن العديد من المعالم المعمارية. زرت القصبة



الأوداية وهي معلمة تاريخية محصنة بُنيت في عهد المرابطين ثم الموحّدين فيها أزقة ضيقة مطلية بالأبيض والأزرق، أبواب ضخمة مثل *باب الأوداية*، وحديقة الأندلس الجميلة وهي من أجمل المعالم الأثرية المطلة على نهر أبي رقراق والمحيط الأطلسي.

بنيت مدينة الرباط في عام 1148 على يد عبد المؤمن بن علي، مؤسس دولة الموحدين في المغرب وكانت تُستخدم كقاعدة عسكرية. وكانت تعرف في البداية باسم رباط الفتح على مر العصور، تطورت الرباط لتصبح



عاصمة المغرب في عهد الملك محمد الخامس بعد الاستقلال في عام 1956. تجولت في شوارعها الواسعة، وزرت المقبرة الملكية قرب برج حسن المئذنة الشهيرة غير المكتملة من عهد الموحدين التي كانت تعكس هيبة التاريخ المغربي حيث الضريح دُفن فيه الملك محمد الخامس وابناه الملك الحسن الثاني والأمير مولاي عبد الله. المقبرة الملكية تحفةً معماريةً تجمع بين البساطة والعظمة. قبة الضريح الذهبية تلمع تحت الشمس، والحراس بزيّهم التقليدي يقفون صامتين كتماثيل التاريخ. قريبًا من هناك، "جامع محمد الخامس" بمنارته البيضاء الشاهقة، المنطقة المحيطة بالمقبرة الملكية كانت هادئة، وتحيط بها الحدائق الجميلة، مما أعطى انطباعاً بأن الزمن قد توقف هنا .زرت "المتحف الحديث"، رأيتُ لوحاتٍ تُعيد سرد الثورة الفنّية المغربية، حيثُ المزج بين التراث والحداثة. كل زاوية في الرباط كانت تخبرني قصة، وكل معلم كان يحمل عبق الذكريات. كان الأسبوع الذي قضيته رحلة عبر الزمن، حيث عاشت روحي في سحر

المغرب، بين الدار البيضاء العصرية والرباط التاريخية .كلا المدينتين، الدار البيضاء والرباط، تحملان في طياتهما قصصًا تاريخية غنية، وتعكسان تطور الثقافة المغربية عبر العصور المختلفة.

بعد قضاء أيام غنية بالتجارب في المغرب، أكملت سفرتي إلى تونس، حيث قمت برحلة جوية مباشرة من مطار الدار البيضاء إلى مطار قرطاج. كانت تلك الرحلة بمثابة جسر يربطني بين حضارتين غنّيتين، وسأشارك تفاصيل زيارتي إلى تونس لاحقاً.

سؤال التاريخ.. ماذا لو بقي العراق ملكياً؟

في صباح هادئ بمدينة تورونتو، وأثناء تنظيم أرشيف صور رحلتي إلى المغرب، استوقفتني صورة تاريخية للملك فيصل الثاني أثناء افتتاحه عدداً من المشاريع خلال أسبوع الإعمار في عام 1957. بينما ألقت الشمس بضوئها على بحيرة أونتاريو، تأملت في المشهد وطرحت تساؤلاً حول الكيفية التي كان يمكن أن يتطور فيها العراق فيما لو استمرت الملكية. من الناحية السياسية العائلة الهاشمية كانت وسيطاً مقبولاً بين السنة والشيعة في العراق (كما العلويون في المغرب بين العرب والأمازيغ). العائلة العلوية الحاكمة منذ 1666 نجحت في الحفاظ على استقرار نسبي رغم التحديات (فترة الاستعمار الفرنسي/الإسباني، ثورات الريف). وتحقيق نمو اقتصادي معقول. الناتج المحلي الإجمالي للمغرب 138 مليار دولار

(2023) رغم فقر الموارد. ومؤشر التنمية البشرية 0.683 بينما العراق 0.674 رغم ثروته النفطية.

اعتمد المغرب السياسة الخارجية المتوازنة حيث حافظ على علاقات جيدة مع الغرب والعرب دون انزلاق إلى صراعات إقليمية. بينما في العراق فقدان المئات من المليارات من الدولارات منذ 1980 بسبب الحروب من الناحية العمرانية لو استمرت سياسات تخطيط مجلس الأعمار لكانت العاصمة تشبه الدار البيضاء في بنيتها التحتية. قال لي صديق مغربي في الرباط "نحن لسنا أغنى دولة، لكننا نُدير الفقر أفضل من غيرنا". هذه العبارة تلخص فلسفة يمكن للعراق تبنيها واستعادة الهوية الجامعة للمواطن العراقي (كما فعل المغرب بمزج العربي والأمازيغي) وتحويل النفط من لعنة إلى نعمة عبر صناعات تحويلية.

إحياء التقليد الملكي في الاعتدال (دور ملكي رمزي فوق الأحزاب). المغرب علمني أن الاستقرار ليس هبة جغرافية، بل اختيار سياسي. العراق كان يمكن أن يكون 'مغرب المشرق'، لكن التاريخ كتب له مساراً آخر. ربما في المستقبل، عندما تهدأ العواصف، نرى بغداد كما هي مراكش.. مدينةً تروي حكاية أمة لم تنسَ أنها كانت يوماً مهد الحضارات." وغالبا ما أردد "الشعوب التي لا تحترم ماضيها، لن يكون لها مستقبل"

تونس... بين نكهة الشارع وصدى الثورة

لم تكن رحلتي إلى تونس في عام 2018 مجرّد زيارة سياحية، كانت مزيجًا من استكشاف التاريخ وتذوق النكهات وفهم نبض الشارع. هي رحلة للبحث عن إجابة لسؤال ظل يراودني منذ اندلاع الربيع العربي: *كيف أصبحت تونس بعد الثورة؟* كنت أريد أن أرى البلد الذي أطلق أول شرارة للتغيير في المنطقة، بعد الحادثة المأساوية للشاب محمد البوعزيزي الذي أضرم النار في نفسه، فاشتعلت الاحتجاجات الشعبية وأسقطت نظامًا دام عقودًا. نزلتُ في مطار قرطاج الدولي صباحًا، وكان هواء آذار بارداً يحمل رائحة البحر والياسمين منذ لحظة وصولي إلى مطار تونس قرطاج الدولي، كان أول سؤال وجهته إلى سائق السيارة الأجرة وهو رجلٌ مسنّ يُدعى الحاج علي، الذي أقلّني إلى الفندق" :*هل تحسّنت الأوضاع؟*" ابتسم ابتسامة خافتة وأجاب" :*لا... الاقتصاد لا يزال صعبًا، والناس تكافح يوميًا لتأمين قوتها* ".كانت هذه الجملة كفيلة بأن تضعني مباشرة أمام واقع البلاد أدار الراديو بصوت خافت، فانبعث صوت عبد الحليم حافظ يغني : "*رايحين يا بلادي*" ...، كأن الأغنية خرجت من قلب الثورة لا من أرشيف الإذاعة أقمت في فندق أفريقيا الواقع على شارع الحبيب بورقيبة، الشريان الرئيسي لتونس العاصمة. هذا الشارع أشبه بالشانزليزيه الباريسي بنكهة تونسية؛ أرصفة واسعة تظلّلها الأشجار، مقاهٍ مزدحمة، محلات أنيقة، وباعة جرائد يوزعون الصحف المحلية. في وسط الشارع،

ينتصب تمثال ابن خلدون، شاهداً على تاريخ فكري عريق. ومن هذا المكان تحديدًا انطلقت المسيرات الكبرى خلال الثورة، ما منح الشارع رمزية خاصة لدى التونسيين. في المساء تجولت في شارع بورقيبة الذي تحول الى فسيفساء من الألوان والأصوات؛ موسيقيون يعزفون، بائعو ورد، وأسر تتجول في أجواء آمنة وحيوية. في شارع الحبيب بورقيبة، رأيت المدينة تستيقظ من غفوة طويلة. على أرصفة المقاهي، كان الزمن يجلس مع جيلين شيوخ يلفّون النرجيلة كأنهم يروّضون الذاكرة، وشبابٌ يقرؤون صحف "الصباح" و"الحرية" كما لو أنهم يفتحون أجنحة فراشة خرجت للتو من شرنقتها. صباح اليوم الثاني تنقّلت في العاصمة وكأني أسير بين طبقات الزمن تونس العاصمة تجمع بين عناصر التاريخ والتراث والحداثة بأسلوب متوازن. تشتهر المدينة العتيقة بأسواقها المغطاة وأزقتها الضيقة التي تعكس عراقة المنطقة ورائحة التوابل والعطور المنتشرة فيها، كما تبرز الجهود المستمرة للحرفيين في الحفاظ على الصناعات اليدوية التقليدية المتوارثة عبر الأجيال. تضم المدينة العتيقة جامع الزيتونة ومساحات تعرض المنتجات المحلية تحت القباب التاريخية للعهد الحفصي. أما حي الحي المعروف اليوم باسم **العمران** (El Omrane)كان يُعرف في عهد الحماية الفرنسية باسم "Franceville"، أي "المدينة الفرنسية"، وذلك لأن منطقةً واسعة كان يسكنها أفراد من الجالية الفرنسي فيتميز بطراز معماري أوروبي يشير إلى حقبة تاريخية

استعمارية لا تزال حاضرة في ذاكرة المدينة. صادفتني صعوبات في فهم اللهجة التونسية فهي مليئة بالمفردات غير المألوفة لي كعراقي. كثيرًا ما كنت أجد صعوبة في فهم بعض الجمل، لكن معرفتي باللغة الفرنسية كانت جسرًا سهّل التواصل، خصوصًا أن اللهجة التونسية تتخللها كلمات فرنسية تعود إلى الحقبة الاستعمارية. في اليوم الثالث، وخلال التنقل باستخدام سيارة أجرة بين عدد من الأحياء الحديثة المنتشرة على جانبي الطرق الواسعة والتي تظهر فيها ملامح الطراز الأوروبي في العمارة والمقاهي



والمباني الحكومية. الأحياء الساحلية مثل حلق الوادي والكرم تتسم بامتزاج رائحة البحر برائحة القهوة، وتستخدم الشواطئ كمكان للتجمعات الأسرية والشبابية. أما ضفاف البحيرة فتضم مجموعة من الفنادق الزجاجية التي تعكس مظاهر التطور العمراني الحديث.

في اليوم التالي، رافقني صديقي زياد، الصحفي الشاب الذي التقيته في مقهى "الصفصاف" الى سيدي بوسعيد. صعدت بنا الحافلة ببطء على التلة، حتى بدت لنا البيوت البيضاء ذات الأبواب الزرقاء كأنها أحجار

شطرنج نُثرت على ربوة سماوية. تقع سيدي بوسعيد على ربوة مطلّة على خليج تونس على بعد نحو ٢٠ كلم شمال العاصمة، وتُعدّ أول موقع محميّ في العالم (منذ 1915). تأسست في العصر الحفصي، وسُمّيت باسم المتصوف أبو سعيد الباجي (1156–1231م)،[13] الذي اختار هذا الجبل الصغير للاعتكاف والعبادة. القرية يُوحّدها لونان الأبيض للجدران والأزرق القاني للأبواب والنوافذ، وهو طراز أندلسي تبناه أبو سعيد لما له من دلالة روحية وجمالية، مستلهمة من زرقة البحر المتوسط.

قال زياد اللون الأزرق يطرد الحشرات وكذلك الطغاة"!جلسنا في القهوة العالية أو(Café des Nattes) على الشرفة المطلة على خليج قرطاج، حيث تتراقص قوارب الصيد على لحن الموج. النادل قدّم لنا شايًا بالنعناع في كؤوس مزركشة، وراح يحدثنا عن البارون رودولف، المستشرق الذي أقام قصره هنا وأسّس أول أوركسترا عربية. في تلك البلدة التي تتماهى مع السماء والبحر، وقفتُ أمام ضريح الولي الصالح أبو سعيد الباجي. الضريح بسيط تحيط به أشجار الزيتون، وكأن القديس لا يزال يحرس قريته التي سُميت باسمه. زياد همس لي" كان يختلي هنا للعبادة. واليوم نختلي

---

[13] **سيدي بوسعيد الباجي** هو وليّ صوفي عاش في القرن 13م، استقر على تلة تطل على البحر شمال تونس العاصمة، فصار مقامه نواة لقرية تحولت لاحقًا إلى أجمل أيقونات تونس البيضاء والزرقاء .

بالحرية." أحسست أن سيدي بوسعيد ليست فقط بلدة شاعرية، بل أوّل موقع محميّ في العالم، بنيت على منحدر يطل على قرطاج، حيث كان القرطاجيون يصنعون السفن ويحرسون البحر. ولطالما كان جبلها – الذي سُمي لاحقاً بجبل المنار – منارة فعلية للمراقبة والدفاع، قبل أن يتحوّل إلى مكان للروح والجمال والمعمار الذي لا يعرف غير لونين الأزرق القاني والبياض الناصع. الضريح القائم اليوم هو زاوية عتيقة بزخارف وعثمانية، تتوزع غرفها حول ساحة داخلية، وتتزين أعمدتها وجدرانها بلمسات من الرخام الملوّن، على طراز معماري مشترك بين تونس والجزائر والمغرب.

القيروان بين عبق التاريخ ونور المئذنة

في اليوم الثالث، توجهت إلى مدينة القيروان. عند استفسار موظف الاستقبال عن وجهتي في الفندق، أشار قائلاً: "لا يُمكن لأي شخص أن يدّعي معرفته بتونس دون زيارة القيروان. "غادرتُ العاصمة تونس برفقة سائق محلي، متجهين جنوبًا نحو مدينة القيروان، التي يصفها التونسيون بأنها قلب الإسلام في المغرب العربي.

الطريق كان يتلوى بين الحقول الخضراء وبساتين الزيتون، وكأن الطبيعة هناك قررت أن ترافقك بمشهد يليق برحلة وحين بدت لي منارة جامع عقبة بن نافع من بعيد، شعرت كأنني أدخل في سفرٍ عبر الزمن. تقع مدينة القيروان على بعد حوالي 160 كيلومترًا من العاصمة التونسية، وقد

تأسست عام 50 هـ (670 م) بواسطة القائد عقبة بن نافع بهدف أن تكون قاعدة الفتوحات في شمال إفريقيا. تطورت المدينة من معسكر سكري إلى مركز علمي وديني، حيث نشأ فيها علماء الفقه واللغة وحفظة القرآن الذين انتقلوا لاحقًا إلى مناطق المغرب والأندلس. عند الوصول إلى وسط المدينة، تظهر أمام الزائر مئذنة جامع عقبة بن نافع المعروف أيضًا باسم "الجامع الكبير". تم بناء هذا الجامع منذ تأسيس مدينة القيروان، وخضع للترميم والتوسعة عبر مختلف الحقب الزمنية، مع الحفاظ على عناصره الأصلية. يمتد الجامع على مساحة واسعة، وتحيط به أسوار عالية وبوابة خشبية كبيرة تؤدي إلى صحن واسع تحيط به أروقة مقوسة. تعتبر المئذنة من أقدم المآذن في العالم الإسلامي، وهي مربعة الشكل ومبنية بالحجر الكلسي، وقد أُنشئت في القرن التاسع الميلادي. أما بيت الصلاة، فيتميز بسقف خشبي مزخرف بزخارف هندسية وأعمدة رخامية جُلبت من مواقع أثرية رومانية وبيزنطية، مما يمنح البناء طابعًا معماريًا تاريخيًا متنوعًا. كان الجامع خلال فترة حكم الأغالبة مركزًا مزدهرًا لتدريس المذهب المالكي، وتمكن من الصمود أمام التغيرات الزمنية والصراعات التي شهدتها المنطقة، مما جعله يمثل إرثًا تاريخيًا يعود إلى ثلاثة عشر قرنًا. لا تزال باحة المسجد تحتضن أنشطة متنوعة مثل حركة الأطفال بين الأعمدة الرومانية وقراءة كبار السن لكتب الفقه في الأماكن الظليلة. بعد أداء جولة في أروقة الجامع، قادني السائق إلى السوق القريب في

المدينة العتيقة للقيروان .هناك، تداخلت الروائح والألوان في مشهد لا يمكن أن تخطئه العين الزربية القيرواني سجاد يدوي الصنع بألوان زاهية ونقوش متقنة، تعكس مهارة الحرفيين المحليين. أواني النحاس مصقولة ولامعة، تعكس الضوء كما لو أنها تحفظ شمس القيروان بداخلها. التوابل أكوام من الكمون، والكركم، والفلفل الأحمر، والهريسة المشهورة بنكهتها الحارة.

الباعة هناك ودودون، لا يكتفون بعرض بضاعتهم، بل يروون لك قصصها؛ كيف حاكوا الزربية، أو كيف ورثوا محلهم عن آبائهم وأجدادهم داخل السوق، التقيت بالحاج محمد الفقيه، بائع الزرابي العتيقة. دعاني إلى قهوته الصغيرة، وأخرج سجادة يدوية مطرّزة. قال وهو يفرشها أمامي":كل عقدة هنا، صلاة في هذا المسجد... السجاجيد والزرابي تحفظ ما لا تحفظه الكتب." قبل الغروب، تذوقت في متجر "بن غانم" الشهير أول قطعة مقروض في حياتي. ضحك البائع حين أظهرت دهشتي":وصفة عمرها ألف سنة... مثل تونس، قديمة، لكنها فجأة تصبح حلوة"! وأنا أستعد لمغادرة القيروان، التفتت عيناي نحو المئذنة مرة أخيرة، فبدت لي وكأنها تودعني برسالة صامتة :*هنا، التاريخ ليس مجرد ذكرى، بل هو حي في الحجارة، في الأسواق، وفي قلوب الناس*. زيارة القيروان وجامعها الكبير كانت أشبه برحلة عبر الزمن، من فجر الفتح الإسلامي إلى حاضرٍ لا يزال يحافظ على جذوره. هي مدينة تمنحك أكثر من مشهد سياحي؛ تمنحك

فرصة لتلمس روح الحضارة التي عبرت من هنا نحو آفاق بعيدة. في يومي الأخير، عدت إلى مقهى "الصفصاف" جلس بجواري الدكتور منصف، أستاذ التاريخ المتقاعد، وهمس لي وهو يدوّر ملعقة السكر في قهوته هنا، في 17 كانون الأول/ ديسمبر، عام 2012 دخل شاب يبكي... محمد البوعزيزي أحرق نفسه.

عرفنا حينها أن ناراً اشتعلت في القلب، ولن تنطفئ بسهولة".خرجنا عند الغروب، ورأينا مجموعة من الشباب يعلّقون لافتة كتبوا عليها: "تونس تبدأ من هنا رفعتُ كاميرتي، والتقطت صورة، وفي الخلفية كانت شمس المغيب تنحدر خلف مبنى وزارة الداخلية. رغم سحر العاصمة وجمال بحرها، يظل الواقع الاقتصادي والسياسي حاضرًا في الأحاديث اليومية. الثورة منحت حرية أكبر، لكن أحلام الازدهار لا تزال تصطدم بتحديات المعيشة. ومع ذلك، يبقى الشعب التونسي متمسكًا بابتسامته وكرم ضيافته، وكأنهما سر بقائه وصموده. زيارتي إلى تونس كانت مزيجًا من استكشاف التاريخ وتذوق النكهات وفهم نبض الشارع. هي مدينة تستطيع أن تمنحك في يوم واحد رحلة من أزقة القرون الوسطى إلى مقاهٍ عصرية تطل على البحر، وكل ذلك تحت سماء متوسطية دافئة ورحابة شعب لا يزال يؤمن بأن الغد يمكن أن يكون أفضل. غادرت تونس، وفي حقيبتي: حفنة من تراب القيروان وضعتها في ظرف بريد صغير. سجادة صغيرة من متجر الحاج محمد، تعقدها زرقاء بلون أبواب سيدي بوسعيد. صورة

معلقة في مكتبي لشباب شارع بورقيبة... ما زالوا يبتسمون. لكنني حملت الأهم في قلبي: سؤالٌ يشبه الياسمين: هل يمكن للحرية أن تزهر بعد العاصفة؟ تونس 2011 لم تكن مجرّد رحلة... كانت درسًا حيًّا في أن التاريخ لا يُقرأ فقط، بل يُعاش، وتُكتب فصوله على جدران المدن، وتُروى حكاياته في رشفات قهوة، وتُختتم صفحاته بلون غروب على شاطئ البحر.

وارسو عاصمة بولندا

في شتاءٍ بعيد من منتصف الثمانينيات، حملتني قدماي من باريس إلى وارسو، كمن يسعى للقاء مدينة يعرفها، يشعر بها تناديه من وراء الجدران المحطمة. لم تكن الرحلة آنذاك مجرّد انتقال جغرافي، بل أشبه باجتياز بوابة نحو الماضي، حيث التاريخ لا يُروى في الكتب، بل يُشمّ في هواء الشوارع، ويُلمس في الحجارة التي بقيت رغم كل شيء.

وارسو آنذاك لم تكن تبتسم. كانت مدينة تسير على عكازين من ذاكرة الحرب وإرث الاشتراكية. الخرسانة الرمادية تطغى، والشوارع كأنها لم تُخلق للبهجة، بل للانضباط. ومع ذلك، شعرت بها تنبض، بحياءٍ، خلف جدران الطوب والثلج. سكنت في فندق صغير يطل على "ستاري ميستو" – المدينة القديمة – التي أُعيد بناؤها بعناد، حجراً، بعد أن دمرها النازيون بنسبة 85% خلال انتفاضة عام 1944. أعاد البولنديون رسم تفاصيلها

بدقة مذهلة، مستندين إلى لوحات رسامَين إيطاليَين من القرن الثامن عشر، وإلى ذاكرة أهاليها. كل واجهة، كل شرفة، كل باب خشبي كان يروي رواية. لا عن زمن الرفاه، بل عن زمن الرفض... رفض الفناء. وفي ميدان القلعة الملكية، وقفت أمام نصب عمود الملك سيغيسموند Sigismund الواقع بالقرب من نهر فيستولا الذي نُقل عاصمته إلى وارسو عام 1596، ليجعلها مركزًا للقرار. التمثال، الذي تهشّم وسقط في زمن الحرب، عاد ليقف بعد التحرير، وكأن المدينة أعادت له توازنه كما أعادت لنفسها الحياة.

في تلك الأيام، وارسو كانت تشبه وجهًا عجوزًا لا يخجل من تجاعيده. كانت لا تزال تحت وصاية السوفييت، وقصر الثقافة والعلوم –هدية ستالين – كان يعلوها كظلٍّ ثقيل. هذا المبنى، الذي يضم أكثر من 3,000 غرفة وبارتفاع يتجاوز 230 مترًا، كان وما زال موضع جدل بين أهل المدينة، بعضهم يراه وصمة، وبعضهم يراه شاهدًا، لكن أحدًا لا ينكر حضوره الطاغي. أربعة عقود مرّت، وعدت. وعدتُ لا لأبحث عن المدينة القديمة، بل لأتحقق مما إذا كانت الذاكرة قد انتصرت على النسيان.

في عام 2004، وحين كنت أمينا لبغداد زرت العاصمة البولونية وارسو بدعوة رسمية من عمدة وارسو في وقت كانت فيه البلاد تخطو خطواتها الأخيرة نحو الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي حيث وقعت مع عمدة وارسو، ليخ كاتشينسكي[14] ، خطاب نيات بشأن إبرام اتفاقية تعاون بين وارسو وبغداد باعتبارهما مدينتين شقيقتين. ودعيت رئيس بلدية وارسو لزيارة بغداد استقرار الوضع السياسي في العراق. حين وصلت وارسو شعرت كما لو أنني أزورها لأول مرة. المدينة التي عرفتُها بالأبيض والرمادي، تلونت. لم تعد تحتمي بالصمت، بل تتحدث بلغات كثيرة. الشوارع أكثر اتساعًا، والمباني الزجاجية تتلألأ كأن المدينة قررت أخيرًا أن تنظر في المرآة وتبتسم. في وسط المدينة، حيث كان الانضباط الشيوعي يفرض سطوته، ظهرت أسواق حديثة مثل "زلوتي



لقاء الرئيس البولوني ليش كالانازكي

تارساي"، مركز تجاري أنيق يتقاطع فيه الزجاج مع الضوء، بجوار محطة القطار المركزية التي أصبحت قلبًا نابضًا بالحركة. وفي الضواحي التي

---

[14] ليخ كاتشينسكي (Lech Kaczyński) هو اسم يرتبط مباشرةً بمدينة وارسو، لأنه شغل منصب عمدة وارسو بين عامي 2002 و2005 قبل أن يُنتخب رئيسًا لجمهورية بولندا (2005–2010). كاتشينسكي يُذكر كثيرًا أيضًا بسبب نهايته المأساوية فقد تُوفي في حادث تحطم طائرة ق عام 2010 مع زوجته وعدد كبير من المسؤولين البولنديين

كانت بالأمس رمادية، تنفّست الحداثة، حيث بنيت ناطحات سحاب تضم مقرات شركات تكنولوجيا واتصالات. لكن الأجمل كان في قلب المدينة القديمة. شوارعها ما زالت كما هي، لكن الحياة دبّت فيها من جديد. ساحاتها تحتضن المعارض الفنية، والموسيقى تتسلل من نوافذ المقاهي. حتى قصر الثقافة والعلوم الذي كان يومًا عبئًا، أصبح معلمًا سياحيًا، يحتضن معارض واحتفالات، وكأن المدينة استأنست بدلًا من أن تلعنه. سرتُ على ضفاف نهر فيستولا،Vistula النهر الذي قسّم المدينة لكنه لم



يفرّق أهلها. هنا أدركت أن وارسو لم تنسَ، لكنها تعلمت أن تسامح. التحولات التي مرت بها وارسو لا تُقاس فقط بالمباني، بل بالناس. في الثمانينيات، كانوا يمشون بوجوه مغلقة. اليوم، تراهم يضحكون، يستمعون للموسيقى في الحدائق، يقودون سيارات ألمانية، ويأكلون السوشي في مطاعم يابانية. لا أحد يُخفي ذاكرته، لكنهم اختاروا أن لا يعيشوا داخلها. من الناحية التخطيطية، أثارت إعجابي قدرتهم على المزج بين الأصالة والتجديد. المدينة التي تبلغ مساحتها نحو 517 كم²، زاد سكانها بشكل معقول في أربعة عقود، لكن التوسع الحضري حدث على نحو مدروس، لا عبثي. خطوط المترو،

التي بدأت متأخرة، أصبحت شريانًا حيويًا، والترام ما زال يحتفظ بهويته، لكنه بات أسرع وأنظف.

في وارسو، نزلت إلى عمق المدينة عبر ممرٍّ يقود إلى **مترو وارسو**، ذلك الشريان الحديدي الذي يخترقها من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، كأنه **يرسم نبضها الجديد بعد أن تعافت من رماد الحرب** .كانت الجدران النظيفة تُعيد صدى الخطوات، والهواء المعبّق برائحة المعدن يحمل حكاية مدينةٍ نهضت من تحت الأرض مرتين: مرة من تحت الأنقاض، ومرة عبر أنفاق المترو التي أعادت وصل أحيائها ببعضها. في العربة، وجوه من كل الأعمار والملامح: شيوخ بعيونٍ تحمل ذاكرة الحصار، وشباب بعيونٍ تلمع بحلم أوروبا الجديدة. خلف النوافذ، تتوالى المحطات كصفحات كتابٍ حضري، تروي فصولًا من تحوّل المدينة من رماد التاريخ إلى صلب الحداثة.

حين خرجت من محطة المترو، كانت وارسو تبدو أكثر هدوء واتساعًا. شعرتُ أن هذا المترو ليس وسيلة نقلٍ فحسب، بل **رحلة رمزية في عمق الزمن**؛ نزولٌ إلى ذاكرة المدينة وصعودٌ إلى حاضرها، عبورٌ بين ماضٍ يحرسه الحجر ومستقبلٍ يصنعه الإنسان.

للمهندس في داخلي، كانت وارسو بمثابة درس في "إعادة البناء الذكي". ليست مجرد مدينة رمّمت مبانيها، بل أعادت رسم روحها. ومما يثير التأمل

أن بولندا الدولة التي خرجت من رحم الفقر والجراح كانت شريكة في تصميم مستقبل بغداد في السبعينيات، عبر شركة .Polserviceمشهدان يتقاطعان: مدينة تنهض رغم الانهيار، وأخرى تتلكأ رغم الإمكانيات. في اليوم الأخير، وقفتُ على نهر فيستولا أراقب أفق المدينة عند الغروب. الأضواء تنعكس على سطح النهر، وعربات الترام تمر بانتظام، والمارة يعبرون إلى بيوتهم. هناك، على ضفة الحنين، شعرت أن المدن، مثل البشر، لا تُقاس بحجم الجراح، بل بطريقة التئامها. وارسو لم تكن مدينة زرتها مرتين، بل مدينة علّمتني أن الإرادة أقوى من الدمار، وأن الذاكرة لا يجب أن تُدفن تحت الأنقاض، بل تُزرع في واجهات الأبنية، وفي عيون الناس، وفي موسيقى الأكورديون التي ما زالت تعزف على ناصية الشارع. خرجت منها، وكأنها طبعت في داخلي درسًا لا ينسى يمكن للمدن أن تُقصف، أن تُنهب، أن تُهان، لكنها إن أرادت، تستطيع أن تبني من الرماد نوافذ تُطل منها على الضوء.

بودابست عاصمة المجر

في خريفٍ صافٍ من عام 1982، كنت أحتاج استراحة قصيرة من زخم باريس ودراستي العميقة في الهندسة. قررتُ أن أزور بودابست، تلك المدينة التي طالما سمعت عنها، لكني لم أرها من قبل. لم أكن أعلم أنني ذاهب إلى مكان سيترسّب في الذاكرة كما يترسّب الذهب في قاع نهر

صافٍ، وأنّ تلك المدينة المنقسمة اسميًا إلى "بودا" و"بست"، ستوحّد فيّ الإحساس بالدهشة والسكينة معًا. وصلت إلى المدينة مساءً، وكان نهر الدانوب يلمع تحت أضواء الجسور، كأنّه شريان من ضوء يقسم المدينة لا ليفرّقها، بل ليمنح كلّ جزء منها مرآة للآخر. في تلك اللحظة، شعرت أنني في حضرة مدينة تعرف كيف تروي حكاياتها، لا بالكلمات، بل بالأحجار والماء. أقمتُ في فندق على الجانب الغربي، في "بودا"، من المدينة، حيث القصور القديمة والكنائس التي تروي عصور الملوك والنبلاء. وفي الصباح، صعدت إلى قلعة بودا، ومن شرفة القصر الملكي، رأيت "بست" تمتدّ في الأفق، مدينة مسطحة نسبياً لكنها مليئة بالحياة، تعكس شمس الخريف على نوافذها وسقوفها، فتبدو كأنها تبتسم لي. المشهد الذي خطف قلبي أكثر من أي مشهد آخر، كان جسر السلسلة الشهير(Chain Bridge) ، الممتد بين الضفتين، تحرسه الأسود الحجرية، وتحتضنه المدينة كما تحتضن الأمّ طفلها الوحيد. عبرته مشيًا، ببطء، وأنا أراقب المراكب تمرّ أسفلي، والناس يعبرون حولي، وأصوات الحياة تتقاطع مع ضوء الشمس الشتوي الذي يتسلل برقة إلى وجهي. في تلك الليلة، وانا أسير على جسر "السلسلة"، وأنظر إلى المدينة المضاءة بانعكاسات الذهب على الماء. شعرت أن هنغاريا بلدٌ يحمل جراحه بكرامة، ويخبئ قصصه في تفاصيل صغيرة... في كأس نبيذ لا يرتطم، وفي اسم عائلة يُكتب أولًا، وفي رشّة

ماء باردة في عيد الفصح تذكّرهم بأن الحياة، رغم قسوتها، لا تزال قادرة على أن تكون مبهجة.

في "بست"، زرت مبنى البرلمان المجري، واحد من أجمل ما رأيت من مباني السلطة في أوروبا. مبنى شامخ، مزخرفٌ كأنه قطعة من الدانتيل الحجري، مشغولٌ بحرفية معمارية لا تُخطئها عين مهندس. هناك، أدركت كيف يمكن للسياسة أن تتجسّد في شكل هندسي، وللماضي أن يتكلّم بلغة الفن. ومن ساحة الأبطال إلى حمّامات سيشيني الحرارية، بدت لي بودابست وكأنها مدينة قرّرت أن تكون جسرًا بين الشرق والغرب، بين النمساوية الرفيعة والعثمانية الدافئة، بين الأرثوذكسية والحداثة، بين ما كان وما سيكون.

جمال المدينة لم يكن فقط في أبنيتها، بل في روحها، في موسيقى الشوارع، في نكهات مطبخها، وفي كرم ناسها. كان الناس ودودين بشكل لافت، يبتسمون لك بصدق، يساعدونك حين تتوه، ويشيرون لك إلى المطعم المحلي الأفضل دون تكلّف. وعندما جلست مساءً في مقهى صغير يطل على نهر الدانوب على إحدى ضفّتي النهر، أستمع لعازف كمان شاب يؤدي ألحانًا حزينة لم أعهدها، شعرت بشيء داخلي يتحرّك، كما لو أن هذه المدينة الهادئة تتحدث إليّ عبر النهر، وتخبرني":كل ما تبحث عنه من

توازن، من حلم، من تأمّل... يمكن أن تجده هنا، بين ضفتي بودا وبست، وبين ضلوعك أنت" .

لم تدم إقامتي أكثر من أسبوع لكنها كانت كافية لأن تترك المدينة بصمتها عليّ. غادرتُ بودابست، لكن النهر بقي يتحدث في ذاكرتي، وجسر السلسلة ظلّ يربط بين صورٍ داخلية لم تكن قد ارتبطت من قبل. وبعد أكثر من أربعة عقود، عدتُ إليها مع عائلتي في زيارة قصيرة، شعرت أنني عدت إلى مدينة صديقة، تحدّثك دون أن ترفع صوتها، وتمنحك الجمال دون أن تتفاخر. *مدينة تنساب كما ينساب النهر بهدوءٍ. زيارتنا* إلى بودابست كانت ضمن مسار رحلة ستنقلنا الى دبلن عاصمة. وصلنا إلى العاصمة المجرية في يومٍ رمادي من أيام أوروبا الشرقية، وكان نهر الدانوب يشقّ المدينة بهدوء أرستقراطي، يفصل بين بودا وبست، لكنه لا يفرّق بين روحين تعانقتا منذ قرون. بودابست لا تُشبه المدن الغربية التي زرتها من قبل. فيها شيء من الأسى الأنيق، من العظمة المتعبة، ومن الجمال الذي لا يتصنّع. كنت أمشي على ضفاف النهر، وأنظر إلى جسر السلاسل المعلّق كأنّه وتر موسيقي بين ضفّتين، وفي ذهني تعبر صور من التاريخ الاحتلال العثماني، الثورة المجرية، حقبة الاتحاد السوفيتي، ثم الاستيقاظ من كل ذلك بلا صراخ، بلا فوضى فقط بهدوء الدانوب.

صعدتُ إلى قلعة بودا، وهناك بدا لي أن الزمن نفسه قد توقّف ليراقب المدينة من الأعلى. القصر الملكي ما يزال شامخًا، والمشهد من فوق لا يُنسى: نهر يجري كما لو أنه يُراجع ماضيه، ومدينة مقسومة في الجغرافيا، موحدة في النبض. في الأسواق القديمة، كان عبق الماضي يختلط برائحة القهوة ونغمات آلة القانون المنبعثة من عازف متجول. في عيون الناس، لمحت حنينًا لمجد قديم، وإصرارًا على الحلم، كأنهم يعرفون أن عاصمتهم ليست فقط مكانًا، بل حالة وجدانية. زارعي الذكريات مثلي، لا يفتشون عن المعالم فقط، بل عن التفاصيل المقاهي الصغيرة التي تشبه صالونات فكرية، الحمّامات الحرارية التي ورثوها من العثمانيين الطرقات التي تمشي فيها الأحذية بحذر وكأنها لا تريد أن توقظ الذاكرة. في حيّ القلعة، وقفتُ طويلًا أمام مبنى البرلمان، تحفة هندسية تشبه الأساطير. كأنه كنيسة، أو قصر، أو متحف، أو كل ذلك معًا. لكنّه، في النهاية، رمز لمدينة تؤمن بأن الجمال يمكن أن يكون جزءًا من السلطة، لا مجرد ترفٍ معماري.

بودابست علّمتني أن المدن التي مرت بأوجاع كثيرة، تتكلّم بصوت منخفض، لكنها تروي حكايات لا تنتهي. ولعلّ هذا ما شدّني إليها: ذلك التوازن بين الشموخ والانكسار، بين الذاكرة والأمل، بين الحاضر المتماسك والماضي المتصدّع. حين غادرتها، شعرت أنني لا أغادر مدينة، بل أغادر فصلًا غير مكتمل من رواية.

وعدتُ نفسي أن أعود، لا كعابر، بل كمقيم ولو ليوم، أراقب شروق الشمس على ضفّة الدانوب، وأصغي لذلك الهمس الخفي الذي لا يسمعه إلا من تعلّم الإنصات لنبض المدن.

دبلن عاصمة ايرلاندا

وصلنا دبلن عصرا كان المطر الخفيف ينهمر مثل نايٍ خافتٍ على أرصفة المدينة، والضباب يتسلل بين نوافذ الطوب الأحمر كأنه حارس الحكايات القديمة. منذ اللحظة الأولى، شعرت أنني في مدينة لا تتحدث بصوتٍ عالٍ، بل تهمس وبأن ما سأراه ليس مشاهد عمرانية فحسب، بل سطورًا من رواية، كُتبت يومًا ولم تكتمل. وصلنا إلى دبلن قادمين من بودابست، ورأسي لا يزال مشبعًا بروعة عاصمة المجر، بتلالها وقلاعها ونهر الدانوب الذي يروي حكايات أوروبا الوسطى. لكن ما إن وطئت قدماي أرض دبلن حتى أحاطتني المدينة بنظرة أخرى مختلفة؛ لم تسألني عن العمران أو عن الجسور والقصور، بل همست لي عن الشعر، عن اللغة، عن الروح.

من الناحية الحضرية، تبدو دبلن مدينة متوسطة الحجم مقارنة بالعواصم الأوروبية الكبرى، لكنها غنية بملامحها الخاصة. يقطعها نهر ليفي (Liffey) الذي يقسمها إلى شطرين، وتربط بينهما جسور حجرية وحديدية كأنها مفاتيح صغيرة لعبور الزمن. شوارعها في الوسط التاريخي ضيقة ومرصوفة بالحجر، تزدحم بالمقاهي والحانات القديمة، بينما تمتد الأحياء

الحديثة إلى الأطراف لتكشف عن وجه مدينة معاصرة تنمو بهدوء دون أن تفقد روحها. تضم المدينة مزيجًا من العمارة الجورجية ذات الأبواب الملوّنة، وأسلوب العمارة الفيكتوري التي ما زالت حاضرة في المباني الحكومية، إضافة إلى أحياء جامعية وحدائق عامة تمنحها طابعًا إنسانيًا ودافئًا .جامعة ترنيتي، بباحتها العريقة ومكتبتها الضخمة، ليست مجرد مؤسسة تعليمية، بل معلم حضاري يجمع بين العلم والتراث. في دبلن، لا تقودك الشوارع وحدها، بل تقودك الكلمات التي خرجت من أفواه الشعراء والكتّاب الذين عاشوا هنا، من جيمس جويس إلى ويليام بتلر .

في الأزقة، وفي الحانات القديمة، وحتى بين جدران الجامعة، ثمة ظلال أدبية ترافقك كأنها دليل خفي، يذكّرك أن هذه المدينة لم تُبنَ فقط بالحجارة، بل بالحروف أيضًا. السكون هنا ليس فراغًا، بل موسيقى صامتة، تتركك في حوار داخلي مع نفسك، وكأن دبلن أرادت أن تقول: "أنا مدينة الكلمة قبل أن أكون مدينة المكان".أقمنا في فندق صغير قريب من شارع أوكونيل، وكنا نبدأ صباحا بمشي طويل على ضفاف نهر ليفـي، كنت أراقب الماء الرمادي يعكس سكون المدينة، والوجوه العابرة تُخفي خلف خطواتها قصصًا ربما كتبها *جيمس جويس* أو حلم بها *صامويل بيكيت*. ولم أكن لأفوّت زيارة متحف جويس، حيث تتكاثف الأسطر فوق الجدران، وتتسلل الجمل من الروايات إلى الأزقة. شعرت حينها أن الأدب هنا ليس فنًا، بل هو جغرافيا بديلة، خفية، تُدركها القلوب قبل العيون. تجولت في كلية

ترنيتي، أقدم جامعات إيرلندا، وبداخلها مكتبة ضخمة تشبه كاتدرائية للمعرفة، رائحة الورق العتيق فيها كانت تُسكر، كأنك تتنفس أعمارًا من الحكمة.

هناك، رأيت *كتاب كِلز*، التحفة المضيئة التي تعود للقرون الوسطى، فشعرت أنني أمام شاهد على أن الكتابة كانت دائمًا مقاومة ضد الزمن، ضد الصمت، ضد الموت. الناس في دبلن، مثل طقسها هادئون، لكن دافئون حين تقترب. يروون النكتة كأنها قصيدة، ويذكرون التاريخ وكأنهم كانوا جزءًا منه. دخلت أحد المقاهي القريبة من شارع تمبل بار، وجلست أرتشف قهوتي بينما كانت الموسيقى التقليدية تنساب بهدوء من زاوية خشبية، والعجوز خلف الطاولة يقرأ صحيفة وكأن العالم يتباطأ هنا، بإرادته.

في المساء دخلنا مطعمًا صغيرًا يعجّ بالروّاد المحليين. كان الضحك يعلو ثم يخفت، وكؤوس الجعة تتصادم كما لو أنها تُحيّي الحياة رغم قسوتها. جلستُ أصغي لاختلاف النبرات، لكلمات تتنقّل بين الحب والحرب والسياسة، لكن ما شدّني أكثر لم يكن الكلام، بل ذلك الصمت الإيرلندي الذي يتخلل الأحاديث: صمتٌ حزين، جميل، حكيم، كأنه جزء من نسيج المكان. في كل زاوية من دبلن يطل التاريخ من قلعة دبلن التي كانت مقرًا للحكم البريطاني، إلى مبنى البريد العام الذي حملت جدرانه آثار انتفاضة عام 1916. حتى الحانات الشعبية هنا، ليست مجرد أماكن للترفيه، بل

فضاءات اجتماعية تراكمت فيها الحكايات والأغاني والقصائد. لكن الوجه الأبرز لدبلن يبقى الأدب؛ فهي مدينة منحها كتّابها هويتها العالمية. هنا عاش وكتب جيمس جويس، وويليام بتلر ييتس الشاعر الحالم الذي حاز نوبل، وشيموس هيني الذي أعاد للشعر الإيرلندي صوته في القرن العشرين. لهذا السبب أعلنتها اليونسكو "مدينة الأدب "عام 2010، لتصبح واحدة من العواصم القليلة التي يُقرأ تاريخها بقدر ما يُرى في عمرانها. دبلن إذن ليست مدينة للحجر وحده، بل مدينة للكلمة، حيث تتعانق الأبواب الملوّنة والصفحات المكتوبة، ويظل الشعر والنثر فيها بوصلة لفهم المكان. غادرت دبلن في صباح غائم، والمطر ما يزال ينهمر على الأرصفة. لكنني حملت في حقيبتي شيئًا جديدًا حساسية مختلفة للزمن، احترام أعمق للكلمة، وإيمان أن المدن، مثل البشر، تحتاج أن تُفهم لا فقط أن تُبنى.

كوبنهاغن عاصمة الدنمارك

في صيف عام 1979، حملتني الرحلة إلى كوبنهاغن، العاصمة الإسكندنافية التي لا ترفع صوتها، ولا تستعرض عظمتها، بل تهمس لك بحقيقتها. لم تكن المدينة تروّج لنفسها كما تفعل العواصم الكبرى، بل كانت تقف بثقة خلف نوافذها الزجاجية، وممراتها المائية، وهدوئها الآسر.

كوبنهاغن لا تبهر... إنها تُقنع. تُقنعك أن الجمال يمكن أن يكون بسيطًا، وأن النظام ليس قيدًا، بل راحة، وأن التصميم الذكي لا يصرخ، بل يهمس بلغة

الكفاءة والذوق. وصلتُ إليها على متن طائرة الخطوط الجوية العراقية التي غادرت بغداد وتوقفت في وارشوا لفترة قصيرة تأملت كوبنهاكن من نافذة الطائرة كان البحر ساكنًا، وبدت كوبنهاغن في الأفق كمدينة وُلدت من ضوءٍ مائل وزرقة هادئة. ما إن وطأت قدماي أرضها حتى شعرت بنظافة المكان، بحرص الناس على النظام، وببساطة التصميم التي تخفي تحتها عقلًا دقيقًا. أقمت في فندق صغير قرب ساحة قاعة المدينة (Rådhuspladsen)، حيث يلتقي الماضي بالحاضر، وتبدأ الحياة اليومية في التدفّق كأنها نهر منتظم. كانت الشوارع تعجّ بالدراجات الهوائية، في مشهدٍ منسّق يوحي أن الإنسان هنا ليس عدوًا للمدينة، بل شريك لها. هذا التوازن بين الإنسان والمكان هو ما جذبني كمهندسٍ شاب؛ لطالما حلمتُ أن تعيش المدينة وسكانها في وئام. زرت حدائق تيفولي، التي تحمل عبق القرن التاسع عشر. كانت الحديقة مزيجًا من بهجة الطفولة وسكينة البالغين، حيث تُضاء الأنوار ليلًا بأناقة خافتة، وتدور الأراجيح في إيقاع لا يزعج النهر المجاور. وهناك، تذكرت شيئًا قاله أحد المعماريين: "إذا استطعت أن تصمم فرحًا دون ضجيج فأنت تفهم المدينة".وهذا تمامًا ما فعلته كوبنهاغن. في صباحٍ آخر، تجوّلت قرب الحي البحري(Nyhavn) ، حيث تتراصّ البيوت الملونة بمحاذاة القناة، وتعكس وجوهها في الماء مثل ذاكرة مطمئنة. جلستُ في مقهى صغير، أحتسي القهوة، وأراقب الزوارق تنساب بهدوء، وكأنها صفحات كتاب لا يريد أن يُغلق.

ما أثار دهشتي هو غياب التفاخر. لا أبراج شاهقة، ولا مبانٍ تتحدّى الجاذبية، بل كل شيء هنا له وظيفة، وكل مساحة محسوبة، لا لغرض الجمال فقط، بل لخدمة الحياة اليومية. حتى قصر أمالينبورغ، مقر العائلة المالكة، لا يفرض نفسه، بل يندمج في نسيج المدينة، كأن الملكية هنا تختار التواضع على الاستعراض. في كوبنهاغن، تأملت فكرة أن المدينة ليست ما نراه فقط، بل ما نشعر به ونحن نتحرك فيها. شعرتُ أن كل زاوية قد خُطّطت بعناية، لكن بحب، لا بصرامة؛ كل مساحة عامة هي دعوة للراحة، لا للاستعراض؛ وكل تفصيل من إنارة الشوارع إلى تصميم المقاعد يعبّر عن احترام الإنسان.

في أواخر أيلول/سبتمبر عام 1989 زرت مرة ثانية كوبنهاغن، عاصمة الدنمارك الهادئة التي تمتزج فيها الموانئ القديمة مع سكينة الشمال الأوروبي. لم تكن زيارتي هذه كسائح عابر، بل كنت أجلس في قاعة مضاءة بالضوء الخافت مع نخبة من العلماء والباحثين من إنجلترا وبلجيكا والدنمارك، مشاركًا في الاجتماع الأول للجنة العلمية الدولية RILEM TC DRG121-، المعنية بمتانة الخرسانة المسلحة.

كنت حينها أمثل مجلس البحث العلمي في العراق، أحمل معي خبرة باحث ومهندس، وأيضًا شعورًا بالمسؤولية أن أكون صوت بلدي في هذا المحفل الدولي. كان موضوع النقاش ساخنًا ببرودة الشمال: كيف يمكن أن نصون الخرسانة المسلحة من التدهور وتآكل الحديد، وكيف نضع نماذج دقيقة لتقدير عمر الخدمة للمنشآت التي ينهض عليها عمران المدن والجسور والموانئ. في تلك القاعة، بدا واضحًا أن مستقبل البنية التحتية يتوقف على ما نقرره نحن في طوكيو وكيف نوحّد المعايير ونترجم الأبحاث إلى توصيات. كان شعور الانتماء إلى هذا الحوار العلمي عميقًا، خاصة أنني أتيت من بغداد، المدينة التي تعرف معنى أن تنهض من جديد.



خرجت من الاجتماع وأنا أستشعر أن كوبنهاغن لم تكن مجرد محطة في رحلاتي، بل لحظة فارقة وضعتني على خريطة التعاون العلمي الدولي، وجعلتني أرى أن الهندسة ليست فقط أرقامًا ومعادلات، بل أيضًا جسورًا للتلاقي بين الأمم.

من الناحية الحضرية، تبدو كوبنهاغن كأنها لوحة متقنة التفاصيل، حيث يتعانق البحر مع العمران، ويذوب التاريخ في الحداثة بلا ضجيج. المدينة

محاطة بالمياه، وميناؤها العريق ما زال يشكل قلبها النابض. الشوارع منظمة ومرصوفة، ووسائل النقل العام، من القطارات الخفيفة إلى الدراجات الهوائية، تجعلها واحدة من أكثر مدن العالم صداقة للبيئة. في كل مكان ترى الدراجات تصطف وكأنها شرايين صغيرة تنقل الناس لا السيارات. عمرانها يعكس مزيجًا متوازنًا: مبانٍ قديمة، تقف بجوار عمارة حديثة من الزجاج والفولاذ. منطقة نيهافن، بمنازلها الملوّنة المطلة على القناة، تجسّد الوجه السياحي البهي للمدينة، فيما تمتد أحياء حديثة تُظهر طموح الدنمارك في أن تكون عاصمة للتصميم والعمارة المستدامة. أما من الناحية التاريخية، فإن كوبنهاغن تحمل إرثًا يمتد إلى القرن العاشر، حين كانت مستوطنة صغيرة للفايكنغ. مع مرور الزمن تحولت إلى مركز تجاري مهم على بحر الشمال، ثم إلى عاصمة للمملكة الدنماركية. في قلبها تقف الجامعة العريقة التي تأسست عام 1479، وشوارعها لا تزال تحمل أسماء قديمة تذكّر بالأسواق والحرف التقليدية. أما رموزها الثقافية، مثل تمثال الحورية الصغيرة المستوحى من قصة هانس كريستيان أندرسن، فتجسّد الجانب الأسطوري الذي يربط الدنمارك بالخيال الأدبي. كوبنهاغن ليست مجرد عاصمة سياسية، بل مختبر للتوازن :بين الماضي والحاضر، بين البحر واليابسة، بين العقلانية الإسكندنافية والخيال الرومانسي. إنها مدينة تُقرأ كما تُعاش؛ كل زاوية فيها تحمل درسًا في كيف يمكن للتاريخ أن يتناغم مع المستقبل.

عدتُ إلى كوبنهاغن مرة ثانية في عام 2020، بعد أكثر من أربعة عقود من زيارتي الأولى في صيف 1979 في تلك المرة الأولى كنت أراها بعين السائح الشاب المندهش من جمال البحر والميناء وأسواقها الحيوية.

في زيارتي الثانية، وقفت أمامها بعين أخرى، عين المخطّط الحضري الذي يبحث عن الدروس والمعاني في التجربة العمرانية. غادرت كوبنهاغن وقد تغيّرت فكرتي عن معنى التخطيط الحضري. تعلمت أن البساطة ليست ضعفًا، بل عبقرية، وأن سرّ المدن الناجحة ليس في تعقيد شوارعها أو ازدحام مبانيها، بل في وضوح وظيفتها الإنسانية. واكتشفت أن المدن الذكية ليست تلك التي تملأ السماء ناطحات زجاجية، بل التي تملأ الأرواح طمأنينة، حيث يشعر الإنسان أنه محور المكان لا مجرد تفصيل فيه.

كوبنهاغن بهذا المعنى لم تكن محطة عابرة، بل درسًا حضريًا ترك أثره في داخلي أن المدينة الجميلة هي التي تُبسط الحياة وتُعطي الإنسان فسحة للتنفس، لا التي تُثقله بأعباء الزحام والتنافس. *مدينة لا ترفع صوتها... لكنها تغيّر مزاجك من الداخل بهدوء يشبه الحكمة* كانت زيارتي إلى كوبنهاغن أشبه بتلك الهدنة التي يحتاجها العقل بعد جولة صاخبة بين المدن الكبرى.

طوكيو عاصمة اليابان

حطّت طائرة الخطوط اليابانية في خريف عام ١٩٨٩في مطار ناريتا الدولي مع شفق المساء، حاملةً معها رائحة الحبر الجاف على أوراق المؤتمر الهندسي الذي جئتُ من أجله. كنت قادمًا من بغداد بعد رحلة طويلة، مثقلًا بتطلعات مهنية وأكاديمية، مدفوعًا برغبة في الاطلاع على آخر ما توصّل إليه العالم في ميدان الهندسة المدنية ومواد البناء.

لم تكن الرحلة سياحة أو استراحة، بل كانت مناسبة علمية تنظّمها مؤسسة مرموقة هي RILEM(الاتحاد الدولي لمختبرات ومواد البناء وأنظمة الإنشاءات). هذا المؤتمر الدولي الذي استضافته طوكيو على مدى أسبوع كامل جمع باحثين ومهندسين من مختلف القارات، جاؤوا ليعرضوا أبحاثهم ويتناقشوا في قضايا الخرسانة المسلحة، وخواص المواد، والتقنيات الحديثة في الإنشاءات. حين غادرت بوابة المطار، كان هواء طوكيو يستقبلني ببرودة خفيفة، والمدينة تتنفس تحت ضوء المصابيح الذهبية التي امتدت مثل تنانين نيون تحرس عرشها المضيء. بدا لي أنني وصلت إلى مكان مختلف تمامًا مدينة تربط بين أقصى ما وصلته التكنولوجيا، وجذور ثقافة شرقية عريقة. وفي داخلي كنت أشعر أن هذا الأسبوع سيكون أكثر من مجرد مؤتمر، بل تجربة فكرية وحضارية كاملة. في أول أيام المؤتمر، حمل لي القدر مفاجأة جميلة فقد التقيت بأحد

الزملاء اليابانيين الذين كانوا معي في باريس عام 1982 أثناء دراستي العليا. كان لقاؤنا بعد سبع سنوات بمثابة استعادة لذكريات مقاعد الدرس، نتقاسم شغف المعرفة في قاعات جامعة السوربون ومعاهدها. جلسنا نتحدث طويلًا عن أيام باريس، وكيف مضت بنا السنوات لنلتقي مجددًا، ولكن هذه المرة على أرض طوكيو، كأن العلم يمد خيوطه بين العواصم واللغات ليجمعنا من جديد. حين خرجت إلى شوارع طوكيو أدركتُ أنني في مواجهة نموذج حضري مختلف عمّا عرفته في بغداد أو باريس. كانت المدينة تبدو ككائن حيّ يتنفس بانتظام، لا يختنق رغم الكثافة السكانية الهائلة. الشوارع عريضة ومقسّمة بعناية، حركة المرور منضبطة، والجسور العلوية والأنفاق



تتقاطع بانسجام دون فوضى. شبكة القطارات والمترو كانت أشبه بشرايين دقيقة، تحمل ملايين البشر يوميًا بدقة تكاد تكون عسكرية، ومع ذلك دون صخب أو ازدحام خانق كما نراه في مدن أخرى. العمارة الحديثة ارتفعت في أحياء الأعمال مثل شينجوكو (Shinjuku) وشيبويا (Shibuya) بأبراج زجاجية شاهقة تعكس ضوء النيون الذي يلوّن ليل المدينة، لكن خلف الصخب، هناك أزقة ضيقة مثل Omoide Yokocho،

حيث المطاعم الصغيرة تقدم أطباق "ياكيتوري"(Yakitori) وهو سيخ من الدجاج المشوي، لكن فيه سحرٌ خاص خليط من الملح، الفحم، ولمسة الصبر الياباني وهو من ألذ الأطباق اليابانية الشعبية وسط دخان الشواء، لتذكّرك أن المدينة مهما علت في سماء التكنولوجيا، تظل محتفظة بروحها الشعبية. بينما ظلت أحياء أخرى محافظة على طابعها التقليدي، ببيوت خشبية وحدائق صغيرة وصروح دينية. هذا التوازن بين الحداثة والتراث كان لافتًا، وكأن التخطيط الحضري في طوكيو يقوم على احترام الماضي مع فتح الأبواب للمستقبل.

ما أدهشني أكثر هو قدرة المدينة على التنظيم طوكيو لم تكن مجرد صخب اقتصادي، بل منظومة حضرية تدار بعقلانية، تراعي أدق التفاصيل، من مسارات المشاة إلى أماكن اصطفاف الدراجات. أحسست أنني أمام مختبر حضري حيّ، حيث تُختبر فيه النظريات التخطيطية التي يدرسها الأكاديميون، وتتحول إلى واقع ملموس. وبالنسبة لي كمهندس جاء من بغداد، كانت هذه التجربة بمثابة مقارنة عملية حيّة كيف يمكن للمدن إذا امتلكت الرؤية والصرامة في التنفيذ أن تتحول إلى منظومات فاعلة، لا مجرد تجمعات سكانية مضطربة. لم أستطع أن أمنع نفسي من المقارنة مع بغداد التي تركتها قبل أشهر فقط. كانت بغداد قد خرجت من حرب طويلة مع إيران (1980–1988) أنهكتها بشريًا واقتصاديًا، فبدت مدينة متعبة، تجرّ خلفها آثار الدمار ونزيف الموارد، تبحث عن أنفاسها

وسط أزمات متراكمة. كانت طوكيو تُشبه جسماً حياً، تتدفّقُ دماؤه عبر شرايين القطارات السريعة (Shinkansen)، "شينكانسن"، التي لم تكن مجرّد وسيلة نقل، بل إحدى عجائب العالم الحديث. تذكّرت كيف حوّلت الألعاب الأولمبية عام 1964 المدينةَ إلى ورشة عملٍ ضخمة، أنجبت طرقاً دائريّة ومحطّاتٍ عملاقة. محطة شينجوكو وحدها كانت تبتلعُ وتقذفُ يومياً ما يقارب أربعة ملايين راكب، كفمٍ جائعٍ لا يشبع. كانت العرباتُ المزدحمةُ مفعمةً بصمتٍ غريب، كأنّ الركابَ يتشاركون لحظةً تأمليّة قبل أن يتباعدوا كحبات مسبحةٍ انفرط عقدُها. أمّا الحافلاتُ فكانت تسيرُ كساعاتٍ سويسريّة، والطرقُ المعبّدةُ تلمعُ تحت أقدامٍ لا تعرف الكلل. حتى مطار ناريتا، رغم بُعده، كان بوابةً ملكيةً لعالمٍ لم يعد المستقبلُ فيه مجرّد احتمال، بل واقعاً ملموساً .لكنّ طوكيو لم تكنْ تُختزلُ في الماضي. برجُها البرتقالي والأبيض، الذي شُيّد عام 1958، كان يشبهُ إبرةً عملاقةً تخيطُ السماءَ بالأرض. أمّا "طوكيو ديزني لاند"، فقد حوّل المدينةَ إلى حلمٍ عالمي. رأيتُ أطفالاً يجرّون آباءهم نحو ألعاب "سبيس ماونتن"، ألعاب "سبيس ماونتن" (Space Mountain) هي من أشهر الألعاب في حدائق ديزني حول العالم وكأنّ اليابانَ قرّرتْ أن تمنحَ العالمَ طفولتها الثانية .بعد أيام من الجدية في قاعات المؤتمر، قادتني خطواتي إلى جينزا، الحي الذي يختصر صورة طوكيو الحديثة. هناك، الشوارع مرصوفة بعناية، والواجهات الزجاجية للمتاجر العالمية تتلألأ تحت أضواء النيون. كان كل

شيء يبدو وكأنه مسرح مفتوح أزياء معروضة بجرأة، مقاهٍ أنيقة مزدحمة بروّادها، ولوحات إعلانية تتنافس في اجتذاب العيون. في جينزا شعرت أنني في قلب مدينة لا تكتفي بصناعة التكنولوجيا، بل تُبدع أيضًا في صياغة صورة لنفسها كعاصمة عالمية. وعلى الرصيف، رأيت مزيجًا مدهشًا من اليابانيين الذين يسيرون بخطوات سريعة، والسياح الذين يلتقطون الصور بدهشة، وكأن الحي هو بطاقة تعريف لليابان أمام العالم. كانت تجربة جينزا بالنسبة لي وجهًا آخر لطوكيو ليس فقط مدينة العلم والعمل والانضباط، بل أيضًا مدينة الأناقة والاستهلاك والفن، حيث تتجاور التقاليد مع الحداثة في لوحة حضرية مذهلة. في جينزا، كانت واجهاتُ المحلاتِ الفاخرة تُلمعُ كجوهرةٍ في عنقِ المدينة. في زيارتي لطوكيو، كان لا بد أن أمرّ بـ أكيهابارا، Akihabara ذلك الحي الذي يُشبه معرضًا مفتوحًا للتكنولوجيا. منذ اللحظة الأولى، يغمر الزائر بحرٌ من اللوحات المضيئة، وشاشات تعرض أحدث الأجهزة، ومحلات تبيع كل ما يخطر في البال من مكوّنات إلكترونية صغيرة إلى أجهزة عملاقة. شعرت وكأنني دخلت قلب دائرة كهربائية ضخمة تنبض بالحياة. لكن أكيهابارا لم يكن للإلكترونيات وحدها؛ بل أيضًا عالم كامل من الأنمي والمانغا، حيث يختلط الخيال بالواقع. المتاجر تكتظ بالدمى والقصص المصوّرة، والمقاهي ذات الطابع الغريب تستقبل زوارها بزيّ شخصيات كرتونية. كان الحي يقدّم صورة أخرى لليابان ليست فقط بلد الانضباط والدقة، بل أيضًا بلد الخيال الذي

يبتكر عوالم موازية تملأها الألوان. في أكيهابارا، رأيت طوكيو وهي تخاطب المستقبل بلغتها الخاصة: التكنولوجيا والخيال معًا، وكأنها تقول للعالم إن التقدّم لا يكتمل من دون مساحة للحلم. بينما كانت أكيهابارا تُومضُ بلوحاتِ إعلاناتِها الإلكترونية، كأنّها تقول: "هنا يُصنع المستقبل". . الأمان السرّ الخفيّ وراء سحر طوكيو في أحد الأيام، نسيتُ حقيبتي في قطارٍ مزدحم. عندما عدتُ إلى المحطة بعد ساعات، وجدتُها على الرفّ نفسه، وكأنّ أحداً وضعَ عليها ورقةً غير مرئيةٍ كُتبَ عليها: "مُلكٌ لضيفنا". هذا ما جعلَ طوكيو مختلفةً: ثقةٌ صامتةٌ بين المدينةِ وسكّانها، كعقدٍ غير مكتوب .حتى في زوايا شينجوكو المليئةِ بالحياة الليلية، لم أشعرْ بخوف. الشرطةُ كانت موجودةً كظلٍّ خفيّ، والجريمةُ كانت شيئاً يُقرأ عنه في الصحفِ الغربية، لا في شوارعِ طوكيو .كانت طوكيو عام 1989 تُشبهُ ساعةً رملية نصفها الرملُ الذهبيّ لاقتصادٍ صاعد، ونصفُها الآخرُ رمالٌ تتحرّكُ ببطءٍ نحو زمنٍ جديد. لم أكنْ أعلمُ يومها أنّ "الفقاعة" ستنفجرُ بعد سنوات، لكنّني عرفتْ أنّ هذه المدينةَ تعرفُ كيف تبتلعُ كوارثَ التاريخِ ثمّ تُعيدُ تشكيلَ نفسها من جديد . لعلّ هذا هو سرّ طوكيو الأكبر أن تكونَ دائماً في حالةِ تحوّل، لكنّ قلبَها يظلُّ كما هو. عندما غادرت طوكيو حملتُ معي أكثرَ من شهادةِ مؤتمرٍ هندسي.

حملتُ طوكيو كاملةً رائحةَ السوشي وحبات الأرز الدافئ تحت شريحة سمك نيّئ لا تفوح منها رائحة زفرة، بل عبقٌ ناعم يُذكّر بالمحيط حين

يكون في أنقى حالاته. في تسوكيجي، (Tsukiji) وهو مكانٌ يُذكّرك بأن طوكيو، رغم أبراجها وأسواقها الحديثة، ما زالت مدينة تُطلّ على المحيط، وتستمد من مياهه قوتها وروحها. ضجيجَ القطاراتِ التي لا تتوقف، وصورةَ ذلك العجوزِ الذي كان يمسحُ بقطعة قماشٍ نظيفةٍ لوحةَ اسمِ محطّةٍ كأنّه ينظّفُ ضريحاً مقدّساً .

إسطنبول العاصمة الاقتصادية لتركيا

في زيارتي الأولى للمدينة عام 1977، كانت إسطنبول تعيش تناقضاً صارخاً مآذنها الشاهقة وأسواقها العتيقة تحكي عن مجدٍ غابر، بينما كانت شوارعها تعاني من الفوضى والاقتصاد المتعثر. كنت أرى الباعة المتجولين يملؤون الأزقة، والبنية التحتية البالية تعكس أزمات تركيا في تلك الحقبة. ومع ذلك، كان كرم أهلها البسطاء وسحر "البازار الكبير" يطفئان أي شعور بالإحباط .

عدت عام 2005 لأتفاجأ بمدينةٍ مختلفة. لقد استثمرت تركيا بقوة في بنيتها التحتية: جسورٌ حديثة، مترو أنيق، وطرقاتٌ منظمة. حتى ساحة تقسيم وشارع الاستقلال أصبحا أكثر أماناً وجمالاً، رغم أن بعض ظلال الماضي ما زالت تتسلل بين أزقة إسطنبول، فإن حادثةً قرب ساحة تقسيم تركت في نفسي ندبة لا تُمحى. كنت برفقة صديقي فريد حين استدرجنا شاب يتحدث العربية إلى مقهى صغير في أحد الأزقة الضيقة. دخلنا

المكان بحسن نية، لكنه اختفى فجأة بمجرد أن جلسنا. وما هي إلا لحظات حتى جاء النادل، ووضع أمامنا فنجانين قهوة لم نطلبها. وعندما هممنا بالمغادرة، طالبنا بمبلغ خيالي مئة دولار اعترضنا في البداية، لكن سرعان ما تحلّق حولنا رجال بملامح متجهّمة وأصوات غاضبة. في تلك اللحظة أدركنا أن لا مفرّ سوى الدفع تحت التهديد. خرجنا من المقهى مثقلين بالمرارة، وشعرت أن تلك التجربة لم تكن مجرد حادثة عابرة، بل جرحًا في ذاكرتي، تذكيرًا بأن السياحة قد تكشف أحيانًا عن وجه قاتم للمدينة، وجهٍ يختبئ خلف بريقها العتيق وضجيج ساحاتها. تمتلك إسطنبول سحراً جغرافياً فريداً، فهي المدينة الوحيدة في العالم التي تمتد على قارتين: أوروبا وآسيا، يفصل بينهما مضيق البوسفور الذي ينسج خيوط التجارة والثقافة بين الشرق والغرب .الجزء الأوروبي :(Rumeli Yakası) هو القلب النابض للمدينة، حيث تتراص المعالم التاريخية كـ "قصر توبكابي" و"سوق البازار الكبير"، إلى جانب المراكز الاقتصادية والصاخبة مثل شارع الاستقلال وساحة تقسيم .

أما -الجزء الآسيوي :(Anadolu Yakası) يُقدم هدوءاً يناقض إيقاع الجانب الأوروبي، مع أحياء سكنية راقية ومساحات خضراء تتنفس بها المدينة .عندما تُذكر إسطنبول، تُستحضر على الفور سطورٌ من التاريخ العريق، تبدأ من لحظة تأسيسها كـ "القسطنطينية" عام 330م على يد الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير، لتكون عاصمة الإمبراطورية

الرومانية الشرقية (البيزنطية). لم تكن المدينة مجرد عاصمة سياسية فحسب، بل تحولت بفضل موقعها الاستراتيجي المطل على مضيق البوسفور – ذلك الشريان الحيوي الرابط بين البحر الأسود وبحر مرمرة – إلى جسرٍ ثقافي وديني بين الشرق والغرب، وإلى قلعةٍ للحضارة الإنسانية لأكثر من ألف عام .في عام 1453، كتب السلطان محمد الفاتح فصلاً جديداً في تاريخ المدينة، عندما فتح القسطنطينية وجعلها عاصمةً للدولة العثمانية، مُطلقاً عليها اسم "إسلام بول" (مدينة الإسلام)، الذي تحور لاحقاً إلى "إسطنبول". ومنذ ذلك الحين، أصبحت المدينة أيقونةً للحضارة الإسلامية، تزهو بمساجدها الشامخة التي تروي حكاية التمازج بين العمارة البيزنطية والعثمانية. فـ"آيا صوفيا"، التي بدأت ككنيسة بيزنطية ثم تحولت إلى مسجد، و"جامع السلطان أحمد" (المسجد الأزرق)، ليست مجرد مبانٍ دينية، بل شواهد حية على تعاقب الحضارات .خلال زياراتي المتكررة لـ إسطنبول، لم أكتفِ بملامسة سطحها الصاخب، بل غصت في أعماقها، حيث يلتقي التاريخ بالبحر وتتنفس الحجارة ذاكرة القرون. كانت البداية جولة بحرية في مضيق البوسفور مع صديقي فلاح الذي يجيد اللغة التركية؛ هناك يمتزج الأفق الحديث لناطحات السحاب مع قصور السلاطين المترامية على الضفاف، كأنك تعبر جسرًا بين زمنين زمن القوة العثمانية وزمن العولمة المتسارعة. الماء يروي قصصًا صامتة، والقوارب الصغيرة تمرّ بجانبنا كأنها تحمل رسائل من الماضي إلى الحاضر. ثم توقفنا

في حضرة آيا صوفيا، ذلك المعلم الذي تحوّل من كنيسة إلى مسجد ثم إلى متحف، قبل أن يعود مسجدًا من جديد. سقوفه المذهبة وأقواسه الواسعة تحكي عبقرية الفن البيزنطي، فيما يروي قصر توبكابي حكايات السلاطين بين جدران من الذهب والرخام، حيث كان القرار السياسي يصنع تاريخ نصف العالم. أما في جامع السليمانية، فقد شعرت أن المكان يتجاوز العمارة إلى الروح؛ مآذنه ترتفع كأصابع من نور، وصحنه الواسع يعكس هيبة الدولة وعظمة المعمار العثماني. ومن هناك انطلقت إلى البازار الكبير، حيث يتنفس المكان برائحة التوابل والسجاد الحريري، وحيث تختلط أصوات الباعة بالخطوات المتسارعة للسياح. إنه سوق لا يبيع السلع فقط، بل يبيع إحساسًا بالزمن، زمن التجارة القديمة التي ربطت الشرق بالغرب. إسطنبول في كل زاوية منها وجهان وجه يلمع تحت أشعة البحر، ووجه يتوهج في ذاكرة التاريخ، وكلاهما يأسرك بطريقة تجعلك تعود إليها مرة بعد مرة. رغم التطور الهائل، تواجه إسطنبول تحدياتٍ كـالازدحام المروري الذي يجعل التنقل كابوساً أحياناً، وعائق اللغة لغير الناطقين بالتركية، وبعض محاولات النصب في المناطق السياحية. لكن المدينة تظل كالمغناطيس، تجذب الزائر بأصالتها وحداثتها معاً .إسطنبول ليست مجرد نقطة على الخريطة، بل هي لوحةٌ مرسومة بدماء التاريخ وأنفاس الحاضر فيها يتعانق الماضي مع المستقبل، وفي كل زاوية قصة

تنتظر من يرويها. رغم كل شيء، تبقى هذه المدينة – بعراقتها وتناقضاتها – تستحق أن تُزار، تُحكى، وتُحب.

لندن مدينة الذاكرة المتجددة

للندن عندي قصة طويلة، فهي لم تكن يومًا مجرد محطة عابرة، بل مدينة رافقتني في أكثر من مرحلة من حياتي.

أول مرة وطأت أرضها كان ذلك في عام 1977، زيارة قصيرة لكن مؤثرة، حيث بدت لي المدينة كعالم مختلف تمامًا عن بغداد التي غادرتها لتوّي.ثم تكررت زياراتي السريعة خلال عقد الثمانينيات، وكانت أشبه بوقفات خاطفة للتعرّف على وجه من وجوه الغرب الحديث.وفي عام 2010، عدت إليها من جديد، لكن هذه المرة بدافع مختلف، إذ كان ابني حسين يدرس الماجستير في الهندسة هناك، فصارت لندن بالنسبة لي ليست فقط مدينة تاريخية، بل أيضًا مسرحًا لذكريات عائلية حيث أختي أسماء أم علي، التي هاجرت إليها في أواخر السبعينيات مع زوجها المرحوم عمار الصفار، لتكتب هناك فصلًا جديدًا من حياتها. وهكذا، امتزجت هذه الرحلة بذكريات شخصية وعائلية، تجعل من لندن مدينة الذاكرة المتجددة في حياتي.

وبين تلك السنوات المتباعدة، ظلّت لندن بالنسبة لي مدينة متعددة الوجوه مرةً أراها بعين الشاب المسافر للمرة الأولى، ومرةً بعين الأب الذي يتابع دراسة ابنه، ومرةً بعين الزائر الذي يعود ليجدها تغيّرت ولم تفقد روحها. حين تذكر لندن، تتبادر إلى الذهن صورٌ أيقونة الحافلة الحمراء ذات الطابقين التي تجوب شوارعها منذ عقود، وساعة "بيغ بن" التي ترمز إلى دقة الزمن البريطاني، وضبابها الذي يلفّ المدينة في أيام الشتاء كستارة خفيفة من الغموض. بالنسبة لي، كانت الحافلة الحمراء أكثر من مجرد وسيلة نقل فقد كان يوقظ في ذاكرتي صورة بغداد السبعينيات، حين كانت شوارعها تعرف الحافلات نفسها بذات التصميم الإنجليزي. كلما رأيت أحد هذه الحافلات يتوقف عند محطة في لندن، شعرت أنني أعود للحظة إلى طفولتي وشبابي في بغداد. كأن مدينة غربية بعيدة أعادت لي جزءًا من مدينتي الأولى، في مفارقة جميلة تختصر كيف تتقاطع المدن في ذاكرة المسافر.

أما المدينة نفسها، فهي عالم مترامي الأطراف شوارع مزدحمة لكنها منظمة، حدائق واسعة تمنحك فسحة للتأمل وسط العمران، ومزيج بشري من كل الأعراق واللغات. في كل زاوية ترى متجرًا أو مطعمًا يعكس ثقافة من ثقافات العالم، وكأن لندن قد قررت أن تكون مرآة مصغّرة للكون كله في قلبها، يجتمع القديم بالحديث الأبراج الزجاجية الجديدة في حي المال "كناري وارف" Canary Wharfذلك الحي الذي تغيّر من أرصفة صامتة

على نهر التايمز إلى قلب مالي نابض بالحياة. هناك، تصطف الأبراج الزجاجية كأنها إعلان بريطاني عن دخول عصر جديد من الحداثة الاقتصادية. كل شيء في الحي يوحي بالتجدد: محطة المترو العميقة التي تخرج منها إلى فضاء واسع، الساحات التي تحيط بها المكاتب والبنوك العالمية، والمطاعم التي تحتضن موظفي المدينة في استراحاتهم القصيرة. وبينما تتأمل الأبراج، يصعب أن تتذكر أن هذه الأرض كانت قبل عقود مخازن للشحن ومرافئ للبضائع .



بالنسبة لي، كان كناري وارف درسًا في إعادة تدوير المدينة كيف يمكن للتاريخ الصناعي أن يتحوّل إلى مشهد عمراني معاصر، وكيف تبني لندن هويتها باستمرار عبر الجمع بين الماضي العريق والحاضر المتجدد.

في كل زيارة الى لندن احرص على زيارة المتحف البريطاني، ذلك الصرح الذي يختزن تاريخ العالم بين جدرانه. ما إن دخلت أجنحته الواسعة حتى

وجدت نفسي أتجه مباشرة إلى القاعات التي تضم آثار العراق، من حضارة سومر وأكد وبابل وآشور. وقفت طويلًا أمام الألواح الطينية التي حملت أول أبجدية، وأمام الثيران المجنّحة التي كانت تحرس بوابات نينوى، وأمام بقايا من جدران بابل. كانت لحظة مفعمة بالشجن هنا في لندن، بعيدًا عن دجلة والفرات، تقف شواهد حضارة وطني، كأنها منفية معي في الغربة. شعرت بالفخر والحنين في آن واحد، وفكرت أن التاريخ لا يُمحى، حتى لو تغيّرت الأمكنة. زيارة المكتبة البريطانية، ترافقني في كل زيارة وهي واحدة من أعظم مكتبات العالم. بين قاعاتها الهادئة، تأملت المخطوطات والوثائق النادرة، بعضها يعود إلى قرون بعيدة. هناك وجدت نفسي في حضرة المعرفة الإنسانية، من نصوص دينية وفلسفية، إلى وثائق تاريخية وجغرافية. كانت المكتبة بالنسبة لي أكثر من مكان للكتب، بل رمزًا لذاكرة البشرية المكتوبة، وأيقنت أن الأمم التي تحفظ تراثها المكتوب تحفظ روحها للأجيال المقبلة.احرص دائما في زياراتي ان أجول في حدائق لندن فلندن ليست حجراً فحسب، بل حياة تتنفس في حدائقها الكبرى هايد بارك، ريجنت بارك، التي تمنح المدينة فسحة خضراء وسط زحامها. أراقب الناس وهم يتنزهون، أطفال يركضون، وعجائز يطعمون الحمام كتعبير عن صورة للحياة اليومية في لندن مدينة عالمية لكنها تعرف كيف تمنح أهلها فسحة من الطبيعة احرص دائمًا في زياراتي على التجول في حدائق لندن؛ فهي ليست حجراً فحسب، بل حياة تتنفس في

حدائقها الكبرى: هايد بارك وريجنت بارك، التي تمنح المدينة فسحة خضراء وسط زحامها. أراقب الناس وهم يتنزهون، أطفال يركضون، وعجائز يطعمون الحمام، كتعبير عن صورة للحياة اليومية في لندن. مدينة عالمية لكنها تعرف كيف تمنح أهلها فسحة من الطبيعة والهدوء، حيث تشعر أن المدن لا تُقاس فقط بمعالمها الكبرى، بل أيضًا بقدرتها على احتضان لحظات إنسانية بسيطة كهذه. التجوال الحر في شوارع لندن يشعرني بعظمة هذه المدينة، وأنا أعبر جسر وستمنستر. والهدوء حيث تشعر أن المدن لا تُقاس فقط بمعالمها الكبرى، بل أيضًا بقدرتها على احتضان لحظات إنسانية بسيطة كهذه. التجوال الحر في شوارع لندن يشعرني بعظمة هذه المدينة وأنا أعبر جسر وستمنستر (Westminster Bridge) فوق نهر التايمز، شعرت أنني أسير على خيط يربط بين الماضي والحاضر. الجسر الأخضر بلونه المميز يفتح ذراعيه في قلب لندن، حيث تنعكس على مياهه صورة برج ساعة بيغ بن ومبنى البرلمان. كان المشهد عند الغروب أشبه بلوحة زيتية؛ ضوء الشمس يذوب في النهر، والظلال تمتد فوق الحجر والماء. وسرت على ضفاف نهر التايمز حيث تختلط السياحة بالحياة اليومية. مررت بساحة ترافلغار (Trafalgar Square) وبدا لي ميدان بيكاديللي (Piccadilly Circus) كأنّه قلبٌ نابض بالمرح والإعلانات المضيئة. هنا، الشاشات العملاقة تصبغ الليل بألوان لا تنام، والجموع تتحرك باستمرار في وسط الميدان، يقف تمثال إيروس (Eros)

الجسد البرونزي المصقول، الجناحان الممدودان، والسهم المشدود نحو الأفق... كلها تفاصيل تمنح التمثال حضورًا يتجاوز حجمه، وكأنه يطلق سهامه وسط بحر من الناس والسيارات، مشهدٌ يختزل روح لندن العصرية: سريعة، صاخبة، وجامعة للتناقضات.

إذا كانت ترافلغار تعكس صورة لندن التاريخية، الرسمية، ذات الرمزية الوطنية، فإن بيكاديللي تمثل لندن الحديثة الشعبية، حيث الترفيه والاستهلاك والليل المفتوح. وبين الميدانين، أدركت أن العاصمة البريطانية ليست وجهًا واحدًا، بل مدينة بأقنعة متعددة، تمنح كل زائر الصورة التي يبحث عنها. ولاحظت كيف تعيش المدينة على إيقاع متواصل لا ينقطع، تتجدد مع كل يوم وتظل محتفظة بروحها حيث تتداخل لغات ولهجات وأسواق من شتى أصقاع الأرض، فتصبح الشوارع مسرحاً عالمياً مفتوحاً يعكس تنوّعاً لا مثيل له.

في كل زيارة الى لندن اسكن في شقة أختي العزيزة أم علي حيث استقرّت منذ أواخر السبعينيات مع زوجها المرحوم عمار الصفار حيث يكون اللقاء مفعمًا بالحنين، ونستعيد ذكريات بغداد القديمة. كان دفء البيت مختلفًا عن صخب لندن ومعالمها. هناك الرحلة لم تعد فقط في شوارع وأماكن، بل في الذاكرة العائلية أيضًا. لندن بالنسبة لي لم تكن مجرد عاصمة عالمية، بل مدينة تحتضن جزءًا من عائلتي،

مدن عبرتها سريعا وسكنتني طويلا

ليست كل المدن التي عرفتها محطات إقامة طويلة أو صفحات ممتدة في كتاب العمر؛ بعضها لم يكن سوى ومضة عابرة، تركت في روحي أثرًا قصيرًا لكنه لامع، كما يترك البرق خطَّه في سماء ليل غامق.

هي مدن التقيتها كعابر سبيل يفتح نافذة ويغلقها سريعًا، لكنها تنفست في صدري وأودعتني شيئًا من رائحتها وصورتها. في أمريكا الجنوبية كانت هافانا ببوابتها الكاريبية، وريو دي جانيرو بجبالها المطلة على البحر، وبوينس آيرس بهبائها الأوروبي المستيقظ في قلب القارة.

في أوروبا مررت بمدن المرافئ، تلك التي استقبلتنا على متن رحلات بحرية في البحر الأبيض المتوسط أو عند تخوم البلطيق، مثل لمحات سريعة من ألبوم لا تكتمل صفحاته. أما في البلقان، فقد تعرّفت على سراييفو (Sarajevo) عاصمة البوسنا والهرسك ونيكشيتش (Nikšić) ثاني أكبر مدن الجبل الأسود (Montenegro) وكوتور (Kotor) لؤلؤة الجبل الأسود، وبودفا (Budva) مدينة الأدرياتيكي الصاخبة في الجبل الأسود، وإلى تيرانا (Tirana) عاصمة ألبانيا، شقودرة (Shkodër) في شمال ألبانيا وأوهريد (Ohrid) في شمال مقدونيا وسكوبيا (Skopje) عاصمة مقدونيا الشمالية ونوفي بازار (Novi Pazar) مدينة البوسنة الصربية في إقليم السنجق في صربيا؛ كلها زيارات خاطفة، لكنها غرزت

في الذاكرة كبذور صغيرة لحنين لم يكتمل.وفي آسيا، كنت ضيفًا عابرًا في مدن مفتوحة الأبواب طهران بأزقتها وأسواقها، باكو المطلة على بحر قزوين، بانكوك بعجائبيتها.

كوبا-هافانا

كانت عادتي كل عام أن أبحث عن بلد جديد أطرق أبوابه؛ بلد يفتح لي نافذة أخرى على العالم، ويمنحني زاوية مختلفة لرؤية الحياة. وفي عام 2021، كانت الوجهة كوبا، حيث أقلّتني الخطوط الكندية إلى قلب هافانا؛ مدينة لا تشبه أي مكان آخر. مدينة تتنفس موسيقى، وتفيض بالكرم الشعبي، وتخفي خلف أزقتها القديمة أسرار ثورةٍ وصدى حكاياتٍ منسية. لم أكن وحدي في تلك الرحلة التي امتدت أسبوعًا كاملاً، فقد رافقني أخي **عادل**، المهندس المعماري الذي لا يفوته أن يقرأ الواجهات والأبنية بعينٍ خبيرة، وصديقي العزيز الدكتور حسين العلي**،** طبيب العيون المتقاعد، الذي كان يملأ الأمسيات بحديثه الهادئ وضحكته المطمئنة. كانت الرحلة منظمة بحيث تشمل الإقامة في منتجع قريب من هافانا، مع تنقلات معدّة مسبقًا لزيارة معالمها، فبدت أشبه بمزيج بين سياحةٍ منظمة ودهشة اكتشافٍ حرّ.

كنا نحرص منذ الصباح على ارتداء أحذية مريحة للمشي، فهافانا مدينة لا تُكتشف إلا سيرًا على الأقدام. حملنا معنا سترات خفيفة، فقد تعلمنا سريعًا

أن حرارة الصيف الكوبي لا تُلغي المفاجآت؛ فغالبًا ما تتسلل أمطار غزيرة تغسل الأرصفة وتمنح المدينة نكهة خاصة. أجمل ما في هافانا لم يكن في معالمها وحدها، بل في التجوال الحر بين أزقتها، بالجلوس في مقاهيها البسيطة، بمشاهدة الناس في حياتهم اليومية، وبالإنصات إلى نغمات الموسيقى الكوبية التي تتسلل من كل زاوية؛ موسيقى تحوّل الحجر والهواء إلى مهرجان حي. وكان المشهد يكتمل بمرور السيارات الأمريكية القديمة الفاخرة، تلك الكاديلاك والشيفروليه والفورد التي تعود إلى خمسينيات القرن الماضي، مطلية بألوان زاهية: أزرق سماوي، أحمر قانٍ، وأخضر ليموني لامع. لم تكن مجرد وسائل نقل، بل أيقونات متحركة يعتني بها أصحابها كما لو كانت جواهر حية، وبعضها تحول إلى سيارات أجرة تنقل السياح في جولات قصيرة، لتمنحهم فرصة السفر عبر الزمن في شوارع المدينة. في المركز التاريخي تجلّت روح المدينة: عمارة استعمارية بألوانها الباهتة التي تحافظ على كبريائها، وساحات شهيرة مثل بلازا فييخا وسان فرانسيسكو دي أسيس، حيث اختلطت خطوات السياح بصوت أحذية الخيول التي تجر العربات.

زرنا أيضًا قلعة سان كارلوس التي تروي حكايات البحر الكاريبي، وقصر سان بيدرو دي لا روكا، قبل أن نختم بزيارة متحف همنغواي في فيجيا، حيث ترك الكاتب الأمريكي بصمته في أرضٍ أحبها وسكنها. ولم تكتمل الرحلة إلا بالوقوف في ساحة الثورة، أمام الصور العملاقة لرموز كوبا

الثورية، حيث يختلط التاريخ بالحاضر في مشهد أيقوني لا يغيب عن الذاكرة. لكن الأثر الأعمق لم يكن في الساحات ولا في المتاحف، بل في الناس أنفسهم. الشعب الكوبي هو جوهرة هذه البلاد؛ بسطاء، ودودون، يملؤون الشوارع بابتساماتهم الصافية رغم قسوة واقعهم الاقتصادي. كانوا يرحبون بالغريب كأنه صديق قديم، ويمنحون من القليل الذي يملكونه ما يكفي ليشعرك بأنك بين أهلك. تلك الطيبة الصادقة، وذلك الإصرار على الحياة رغم شحّ الموارد، هو ما يجعل كوبا بلدًا لا يُنسى، ويجعل من هافانا مدينة تسكن القلب قبل الذاكرة. هافانا، كغيرها من عواصم أمريكا اللاتينية، تحمل جراحاً عميقة، لكنها ترفض الاستسلام. إنها مدينة تروي حكايتها عبر جدرانها الملونة، وسياراتها القديمة، وألحانها التي لا تتوقف. فكما قال الشاعر الكوبي نيكولاس غيين: "هافانا لا تُرى، تُحس". وهي، في النهاية، جزء من نسيج هذا العالم اللاتيني المليء بالألم، الأمل، والجمال الذي لا يُقاوم .

الأرجنتين والبرازيل .

وفي العام التالي، ٢٠٢٢، قررت أن أواصل المغامرة مع عائلتي نحو أمريكا



الجنوبية، حيث حملتنا الطائرة إلى عالمين ساحرين :الأرجنتين والبرازيل .كانت الرحلة هذه المرة أوسع وأعمق؛ فهنا لا نواجه فقط مدنًا، بل قارتين ثقافيتين تلتقيان عند بوابة الجنوب.

هبطنا أولًا في بوينس آيرس، تلك العاصمة التي يُقال عنها إنها باريس أمريكا الجنوبية .وبالفعل، بدت المدينة وكأنها تنام في أحضان أوروبا: شوارعها الواسعة، مبانيها الكلاسيكية، مقاهيها التي لا تعرف الهدوء، كلها جعلتني أستعيد لحظات من أيامي في باريس الثمانينيات. لكن خلف هذا الوجه الأوروبي، كان ثمة قلب لاتيني نابض بالتانغو، وبحياة يومية صاخبة لا تشبه إلا نفسها.

دخلت المدينة عبر شارع "لا فاليه" العريض، حيث كانت المباني العتيقة تهمس بتاريخ من الهجرة الأوروبية. "هذه ليست أمريكا الجنوبية التي تخيلتها"، قلت لزوجتي بينما كنا نسير باتجاه ساحة مايو. القصر الوردي



"كاسا روسادا" كان يقف شامخاً كحارس للذاكرة، يحكي عن ثورات وانقلابات دون أن ينبس ببنت شفة . في حي سان تيلمو، انحنى الوقت على نفسه. الشوارع المرصوفة بالحجارة، والنوافذ الحديدية المزخرفة، ورائحة اللحوم المشوية التي تملأ الأجواء من المطاعم الصغيرة. عند الغسق، انبثق صوت الكمان فجأة من مقهى خفي، وبدأ زوجان بالرقص على أنغام التانغو، وكأن المدينة كلها مسرح مفتوح .لكن بوينس آيرس ليست فقط الماضي. في بويرتو ماديرو، رأيت المستقبل: ناطحات سحاب زجاجية تعانق القنوات المائية، حيث تتلألأ اليخوت تحت أضواء المساء."

بعد عدة ايام في العاصمة، أخذنا الطائرة متوجهين إلى مدينة بويرتو اجوازو Puerto Iguazu تقع في أقصى الشمال الشرقي من الأرجنتين، عند نقطة التقاء حدودها مع البرازيل وباراغواي، في موقع طبيعي فريد يُعرف باسم *المثلث الحدودي* .ورغم صغر حجمها، فإن المدينة تعيش على إيقاع السياحة، إذ تُعد البوابة الرئيسة إلى واحد من أعظم عجائب الطبيعة في العالم: شلالات اجوازو.

وصلنا إلى بويرتو اجوازو بعد رحلة جوية داخلية، حيث حطت طائرتنا في المطار الصغير للمدينة عصرًا. ومن هناك توجهنا مباشرة إلى الفندق الذي كنا قد حجزناه مسبقًا لإقامة قصيرة من ليلتين، نستعد خلالها لاكتشاف هذا المكان الفريد. كانت المدينة بسيطة وهادئة، لكنها تحتفظ بحيوية خاصة، يلمسها الزائر في حركة المطاعم الصغيرة والمحلات التي تعرض مشغولات يدوية لشعب الغواراني. وفي صباح اليوم التالي انطلقت رحلتنا المنتظرة إلى شلالات اجوازو يبدأ المسار السياحي بقطار صغير ينقل الزوار بين الغابات المدارية الكثيفة، حيث تعلو أصوات الطيور الغريبة وتنتشر رطوبة الهواء الممزوجة برائحة الأشجار. من هناك، سرنا على الممرات الخشبية المعلّقة فوق الأنهار الجارية، نتقدّم خطوة بخطوة نحو المشهد الأعظم. كانت الشلالات تتكشف أمامنا تدريجيًا: شلالات متتالية، يزيد عددها عن مئتي شلال، تتساقط من ارتفاعات شاهقة، يصنع



كل واحد منها سيمفونية خاصة من الماء والضوء. الرذاذ المتطاير يلفح الوجه، فتشعر أنك جزء من الطبيعة نفسها. أكثر من مئتي شلال تصنع لوحة طبيعية لا مثيل لها،

يعلو فيها صوت الطبيعة على كل شيء، حتى كأنك تقف أمام واحدة من معجزات العالم الحيّة. لكن ذروة الرحلة كانت عند "غرغنطة الشيطان" (Garganta del Diablo)، أضخم شلالات إيغوازو وأكثرها رهبة، حيث يهوي الماء في هوة عميقة بقوة هادرة تجعل الأرض ترتجف من تحتك، ويغطي الضباب الأبيض المكان كستارة سماوية تحجب الرؤية وتمنح المشهد رهبة لا توصف. وقفنا طويلًا هناك، مأخوذين بعظمة المنظر، نحاول أن نلتقط صورًا تحفظ الذكرى، لكننا ندرك في أعماقنا أن الكاميرات عاجزة عن نقل الإحساس الحقيقي: إحساس أن الإنسان، مهما بلغ، يبقى صغيرًا أمام قوة الطبيعة المطلقة".احترسوا من القرود!" حذرنا المرشد ونحن نسير على الممرات الخشبية فوق النهر.

فجأة، ظهر "حلق الشيطان" أمامنا: جدار مائي ينهار من ارتفاع 80 متراً، يصرخ بقوة تزلزل العظام. ضباب الماء كان يبلل وجوهنا، وحسين، ابني أمسك بيدي بقوة وهو يصرخ: "أبي! احترس خوفا علي. مع حلول المساء عدنا إلى الفندق مرهقين من يوم طويل حافل بالدهشة، لكن قلوبنا مفعمة بالانبهار. ولإضفاء لمسة ختامية على يومنا، خرجنا للعشاء في أحد مطاعم المدينة الصغيرة، حيث امتزجت الأطباق الأرجنتينية بنكهات محلية بسيطة، وجلسنا نتبادل الأحاديث عن روعة ما شاهدناه خلال النهار. كانت بورتو اجوازو في تلك الليلة هادئة، يلفها سكون خاص لا يقطعه سوى

أصوات متفرقة قادمة من الحانات الصغيرة التي تحتضن موسيقى التانغو.

وفي صباح اليوم التالي غادرنا الأرجنتين برًّا متوجهين بالسيارة نحو البرازيل، عبر جسر الاتحاد الذي يربط المدينتين الحدوديتين. لم يستغرق العبور طويلًا، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في مدينة فوز دو إيغواسو



البرازيلية، حيث حجزنا فندقًا آخر لإقامة قصيرة. كانت الرحلة برًا من بويرتو إجوازو (الأرجنتين) إلى فوز دو إجوازو (البرازيل) تجربة فريدة، حيث شاهدت كيف تتغير الثقافة واللغة والطبيعة تدريجيًا بمجرد عبور الجسر الفاصل بين البلدين.

في الصباح انطلقت رحلتنا الجديدة إلى شلالات إيغوازو من الجانب البرازيلي .وهنا كان المشهد مختلفًا: فالمنصات البرازيلية تمنح إطلالة بانورامية شاملة واسعة تظهر الشلالات كاملة من بعيد، بحيث تراها كلها دفعة واحدة في مشهد مهيب، أشبه بلوحة طبيعية هائلة مرسومة بين

الغابة والسماء. تقدمنا على الممرات الحديدية المعلّقة فوق النهر، واقتربنا من النقطة التي يلامسك فيها رذاذ الماء مباشرة، فشعرنا كأننا نقف في قلب العاصفة، وجعلتنا العظمة المنفتحة للمشهد ندرك أن الجانب البرازيلي هو نافذة لرؤية الصورة الكاملة، بينما الجانب الأرجنتيني هو تجربة الغوص في قلب التفاصيل.

بعد اجوازو، حيث تتجلى عظمة الطبيعة في قلب أمريكا اللاتينية، كان لا بد أن استحضر الذاكرة شلالات نياجرا على الحدود بين كندا والولايات المتحدة. زيارة شلالات نياجارا كانت دائمًا لي أقرب إلى رحلة مألوفة، فهي لا تبعد كثيرًا عن مدينة تورونتو، حيث أقيم منذ سنوات. وعلى الرغم من أنني رأيتها أكثر من مرة، فإن كل زيارة لها تحمل دهشة جديدة. فهي ليست شلالات تحيط بها الغابات المدارية كما في إيغوازو، بل تقع في قلب عالمٍ متطور، يختلط فيه جمال الطبيعة بحداثة العمران والمرافق السياحية. المنظر لشلالات نياجرا من الجانب الكندي يظل الأجمل: منحدر الماء الضخم الذي يعرف بـ Horseshoe Falls، ينحني كحدوة حصان هائلة، يصب ملايين الأطنان من المياه في الهاوية. الرذاذ يتصاعد عاليًا ليغطي السماء مثل سحابة بيضاء دائمة، وصوت الماء أشبه بآلة كونية لا تهدأ.

وعلى الضفة الأخرى، يمتد الجانب الأمريكي أكثر صخبًا، لكنه يتيح الاقتراب المباشر من المياه والوقوف تحت قوتها الجارفة عبر منصات خشبية وجولات قوارب. ما يميز نياجارا أن التجربة لا تقتصر على الشلالات نفسها، بل على المدينة المحيطة بها: فنادق شاهقة، مطاعم، أضواء ملونة، وعروض سياحية تجعلها أقرب إلى مدينة ترفيهية كبيرة، بينما تبقى الشلالات في قلبها مركز الدهشة.

في اليوم التالي أقلعنا بالطائرة إلى ريو، المدينة التي طالما حلمت بزيارتها .في الطائرة نظرت إلى دفتر ملاحظاتي المليء بالرسومات: خريطة لبوينس آيرس مع دوائر حول الأماكن التي لم نزرها بعد، وصورة لشلال إضافي في إجوازو لم نتمكن من الوصول اليه خلال الزيارة لمنطقة الشلالات

ريو دي جانيرو: مدينة الحياة والحرية

حين حطّت الطائرة في **ريو دي جانيرو**، شعرت منذ اللحظة الأولى أنني أدخل مدينة لا تشبه أي مكان آخر. ثلاثة أيام فقط قضيتها هناك، لكنها كانت كافية لأفهم أن هذه المدينة ليست مجرد محطة سياحية، بل فضاء يحتفل بالحياة بكل تفاصيلها: من موسيقى السامبا التي تتسلل من الأزقة، إلى الشواطئ التي تحتضن الناس نهارًا وليلاً، إلى دفء سكانها الذين يفتحون قلوبهم قبل بيوتهم. ما يميز ريو قبل كل شيء هو موقعها

الطبيعي الفريد؛ مدينة وُلدت بين البحر والجبال. الخضرة تنحدر مباشرة نحو زرقة المحيط الأطلسي، فتتشكل لوحة بديعة كأنها رسمت بيد خفية. في أي زاوية تنظر، ترى الجبال تحيط بالمدينة، والبحر يمدّها بنسيمه وصخبه، في مزيج قلّ إن تجده في مدينة أخرى.

إقامتنا في فندق قرب البحر منحتنا فرصة فريدة لنعيش ريو عن قرب. من شرفة الفندق كان الأفق مفتوحًا على زرقة لا تنتهي، والموج يكتب قصائده على الشاطئ بلا توقف. الكورنيش أمام الفندق كان مسرحًا للحياة اليومية: عداؤون، عائلات تتمشى، بائعو عصائر استوائية، وشباب يمرحون على الرمال. وعند الغروب، كان كل شيء يتوقف للحظة تأمل قصيرة، حين يغرق قرص الشمس في البحر وتتلون السماء بالبرتقالي والبنفسجي، فتتحول المدينة كلها إلى لوحة سماوية.

بدأنا جولتنا في مساء يوم وصولنا على الشاطئ حيث الرمال الذهبية



تكتظ بالسكان والسياح، والشباب يمارسون كرة القدم والكرة الطائرة، فيما البحر يوزع موجه بين ضحكة وأخرى. ومن

هناك صعدنا إلى **جبل رغيف السكر(Sugarloaf Mountain)** ، حيث بدت المدينة من الأعلى أشبه بلوحة بانورامية تمزج بين الأفق الأزرق والمباني البيضاء المتناثرة على السفوح.

ولعل أكثر اللحظات وقعًا في النفس كانت زيارتنا في اليوم الثاني إلى تمثال المسيح الفادي على جبل كوركو فادو، على ارتفاع يزيد عن سبعمئة متر. صعدنا بالقطار الجبلي عبر الغابة المدارية، حتى انفتح أمامنا مشهد يأسر الروح: خليج غوانابارا، جبل رغيف السكر، وشواطئ كوبا كابانا تمتد كالخيط الذهبي على حافة البحر. أمام التمثال الشامخ بذراعيه المفتوحتين، التقطنا صورًا توثق تلك اللحظة .التي جمعت بين الروحانية وعظمة الطبيعة. هناك، أحسست أنني في



حضرة أيقونة لا تحتضن ريو وحدها، بل العالم كله. ولأن ريو ليست مدينة

طبيعة وروح فقط، بل أيضًا مدينة رياضة وشغف جماعي، كان لا بد من زيارة **ملعب ماراكانا**، أيقونة كرة القدم البرازيلية. عند دخوله شعرت أنني أدخل معبدًا حقيقيًا للرياضة، حيث دوّت صيحات مئات الآلاف عبر العقود. هنا جرت المباراة النهائية لكأس العالم عامي 1950 و2014، وهنا كتب أعظم لاعبي كرة القدم فصولًا من التاريخ. حتى ونحن زوارًا عابرين، كان من السهل أن نسمع في الخيال صدى الهتافات يغمر المكان.

هكذا كانت ريو دي جانيرو خلال ثلاثة أيام فقط: مدينة تعطيك أكثر مما تتوقع، وتترك في قلبك أثرًا لا يمحى. فهي ليست مجرد وجهة سياحية، بل تجربة كاملة تجمع بين الجمال الطبيعي، الثقافة النابضة، الرياضة، والروح الإنسانية. من الشواطئ الصاخبة إلى القمم الشامخة، ومن صخب مارا كانا إلى سكون الغروب على الكورنيش، أدركت أن ريو ليست مدينة تُزار مرة وتُنسى، بل هي تجربة تبقى حاضرة، مثل لحن سامبا لا ينتهي صداه. بين غابات إيغواسوا الاستوائية وشلالات نياجارا التي تتدفق في قلب عالم حضري حديث، اكتملت صورة الماء في رحلاتي: ماء يهبط من السماء كبرقٍ في هافانا، وماء يندفع من الجبال والأنهار في أعماق أمريكا الجنوبية، وماء يواصل صخبه في قلب كندا. في كل مرة كان الماء يعيدني إلى فكرة واحدة: أن المدن تُبنى وتزول، لكن الطبيعة هي التي تمنحها معناها كيف نرقص فوق الحطام، ونغني تحت المطر. وهافانا، بكل ما فيها، هي إحدى أعظم نوتات هذه السيمفونية الإنسانية الخالدة.

القارة الأوربية

بعد هذه الرحلات في القارة الأمريكية، اتجهت ذاكرتي وسفرياتي نحو الضفة الأخرى من الأطلسي؛ إلى أوروبا ومدن البحر الأبيض المتوسط ودول خليج البلطيق ومنطقة البلقان، حيث يلتقي التاريخ العريق بجغرافيا تموج بالصراعات والجمال معًا.

كان صباحًا رطبًا في ليون، ذلك اليوم من عام 1981، حين شددت حقيبة السفر إلى سيارة مستأجرة، رفقة صديقي محمد عزوز، الطالب العراقي الذي قرر أن يصحبني في رحلةٍ ستظل محفورة في الذاكرة. أخي شاكر، الذي اعتاد قضاء إجازته السنوية في أوروبا، كان في انتظارنا في براغ، العاصمة التشيكوسلوفاكية التي بدت كحلم بعيد. لم نكن نعلم أننا نسير في زمنٍ سريع الزوال، قبل أن تتفكك تشيكوسلوفاكيا، وقبل أن تغيب أيامٌ كثيرة تحت غبار التاريخ .

انطلقنا عبر الطرق المتعرجة بين تلال فرنسا الشرقية، حيث الخضرة تمتد كبحرٍ لا ينتهي. كانت السيارة تشق طريقها ببطء، وكأنها تريد أن تمنحنا وقتًا كافيًا لالتقاط أنفاس الجبال التي تلوح في الأفق. توقفنا عند إحدى المقاهي الصغيرة على الطريق، حيث شربنا قهوةً مُرّة، بينما كان محمد يروي حكايات عن بغداد، وأنا أحدّق في الضباب الذي يلف قمم جبال الألب البعيدة .وصلنا جنيف مع غروب الشمس، فبدت بحيرتها كمرآةٍ تكسرها

نافورة "جيه دو" الشهيرة. مشينا في المدينة القديمة، حيث الحجارة الرطبة تنبئ بتاريخٍ ثقيل. تذكرت حينها أن العالم مليء بالمتناقضات: جنيف الهادئة، وبغداد الصاخبة، وشاكر الذي سيحلق من مدينةٍ محاصرة ليصل إلى هنا، حيث الحرية تبدو طبيعية كالهواء .

في الصباح التالي، انطلقنا نحو الشرق، عبر لوزان حيث البحيرة تلمع تحت أشعة الشمس، ثم زيورخ بجسورها وشوارعها المرصوفة بالحصى. كانت سويسرا كقطعة حلوى مصنوعة من زجاج، نظيفة إلى حدٍّ مؤلم. توقفنا عند قرية صغيرة قرب الحدود النمساوية، حيث باعنا رجل عجوز خبزًا محمصًا بالزبدة، ولم نستطع فهم كلماته، لكن ابتسامته كانت كافية . الطريق إلى فيينا كان طويلاً، اخترقنا غاباتٍ كثيفةً بدت كأنها تحرس أسرار الإمبراطورية النمساوية المجيدة. وصلنا في الليل، فاستقبلتنا أضواء قصر شونبرون كشموعٍ ملكية. في اليوم التالي، تجولنا بين كنيسة سانت ستيفان والمقاهي القديمة، حيث رائحة القهوة تختلط برائحة التاريخ. قال محمد وهو يشرب كأس نبيذ: "هنا تشعر أن العالم كان يومًا مكانًا أنيقًا." ضحكت، لكني فكرت في أن الأناقة قد تكون آخر ما يموت في أوروبا .

الرحلة من فينا إلى براتسلافا كانت قصيرة، لكنها حملتنا إلى عالم آخر. المدينة، التي كانت يومًا جزءًا من تشيكوسلوفاكيا الموحدة، بدت خجولةً بقلعتها العتيقة وشوارعها الضيقة. وقفنا على ضفة الدانوب، حيث المياه



تتدفق كسيرة ذاتية لأممٍ تشكلت وانهارت. قال محمد: "النهر لا يعرف الحدود." فسكتُ، لأن الحدود كانت كل ما نعرفه .عندما دخلنا براغ، كانت السماء تمطر بخفة، كأنها تغسل المدينة قبل أن نراها. شاكر كان في انتظارنا عند فندق صغير قرب جسر تشارلز. عندما التقت أعيننا، شعرت كأن جزءًا من بغداد قد وصل أخيرًا. في تلك الأيام، تجولنا بين أزقة المدينة القديمة، حيث تماثيل القديسين تحرس الساحات، وقلعة براغ تقف شامخة كحارس زمن .

في إحدى الليالي، بينما كنا نجلس في حانة مظلمة، قال شاكر: "العالم كبير، لكنه يصبح صغيرًا عندما نلتقي." ضحكنا، لكني كنت أفكر في الطريق الطويل من ليون، وفي المدن التي مررنا بها كأننا نمرّ بأحلام الآخرين .

في تلك الأيام، كان الجواز العراقي ذو الغلاف الأخضر يحمل هيبةً غريبة بين يدَي ضابط الجوازات الأوروبي. كنا نمرّ عبر الحدود – فرنسا، سويسرا، النمسا، تشيكوسلوفاكيا – بسلاسةٍ تكاد تكون غامضة. كانت الأختام تُطبع على صفحاته باحتراف، وكأنها شهادات عبور من عالمٍ لا يزال يعترف بنا. لم يكن "الاتحاد الأوروبي" قد وُلد بعد، وكانت الحدود بين الدول أشبه بخطوطٍ مرسومة بقلم رصاص، يمكن عبورها بنظرة ثقةٍ من رجل أمنٍ متعب .محمد كان يضحك وهو يُمسك بالجواز بعد كل معبر "انظر! هذا الأخضر يفتح الأبواب كالسحر!" كنت أومئ برأسي، غير مدركٍ أننا نحمل آخر نسخةٍ من العراق الذي يعترف به العالم. لم نكن نعلم أن هذا الجواز سيصبح، بعد سنوات، مجرد ورقةٍ تذكّر حامليها بالحصار، بالحروب، بالانكسار .في إحدى المحطات، توقفنا عند حدودٍ نمساوية-سويسرية. كان الضابط يقلّب صفحات جوازي بفضول، ثم نظر إليّ وقال "بغداد... بعيدةٌ جدًا، أليس كذلك؟" أجبتُ بنعم، دون أن أعرف أن السؤال نفسه سيصبح جوابًا بعد عقدين نعم، بغداد ستُصبح بعيدةً جدًا، ليس بالمسافة، بل بذلك الزمن الذي كنّا نتنفس دون أن ندري .

اليوم، حين أرى الجواز العراقي في يد مسافرٍ يُرفض مرارًا، للحصول على سمة الدخول أتذكر تلك الأيام. أيامٌ كان فيها الجواز العراقي قويا ويسمح بالدخول الى معظم بلدان العالم لم نكن نعلم أن تلك الرحلة ستكون واحدة من آخر اللحظات الهادئة قبل أن تنفجر الحروب، وقبل أن تصبح الحدود

أكثر وضوحًا. اليوم، عندما أتذكر عام 1981، أرى الطرقات التي قطعناها، والوجوه التي التقت، وأسمع ضحكة محمد وشاكر، وكأن الزمن توقف ليعطينا ذاكرة جميلة نعيش عليها .كانت الرحلة مجرد طريق من ليون إلى براغ، لكنها أصبحت سفرًا داخل ذاكرة لن تتكرر.



عدت مرة ثانية الى براغ بعد أربعة عقود في نيسان/أبريل 2005، بصفتي أمينا لبغداد حيث التقيتُ بعمدة المدينة Pavel Bém، بالإضافة إلى مسؤولين من وزارة الخارجية، ضمن سياق توسيع آفاق التعاون بين بغداد وبراغ. كان محور الحوار دعمًا من التخطيط الحضري التشيكي لإعادة بناء مخطط بغداد بعد الحرب، وفي تلاقي الخبرة الهندسية مع الحاجة إلى إعادة الهيكلة الشاملة لاستقطاب التخطيط التشيكي المرموق. كما شاركني Petr Skokanحاكم إقليم ليبيريتسكي في مناقشة مفهوم التصميم العمراني لبغداد. تُعد هذه الزيارة فصلًا مبكرًا في تطور التعاون الحضري بين بغداد والعواصم الأوروبية بعد 2003، داعمةً فكرة أن إعادة بناء المدن يحتاج إلى شراكة حضارية ونقاش تقني متقدم.

برشلونة



زرتها لأول مرة في عام 2004، كنت أشارك بصفتي امينا للعاصمة بغداد في مؤتمر المانحين الذي خُصص لدعم العراق في مرحلة ما بعد الحرب. كانت تلك زيارتي الأولى إلى المدينة الكتالونية، وقد تركت في نفسي انطباعًا عميقًا بفضل تنظيمها المتقن وروحها الأوروبية الراقية. انعقد المؤتمر في أجواء دولية جادة، حيث اجتمعت وفود من عشرات الدول والمؤسسات المالية لمناقشة آليات إعادة الإعمار، وكان الهدف الأسمى هو مساعدة العراق على النهوض من ركام الحرب وإعادة بناء مؤسساته.

في تلك المناسبة التقيت بعمدة برشلونة، **Joan Clos i Matheu** خوان كلوس إي ماثيو. رجل جمع بين الذكاء العملي والروح الإنسانية، وقد دار بيننا حديث ودي حول تجربة المدينة في التخطيط الحضري، وكيف تحوّلت برشلونة بعد أولمبياد 1992 إلى نموذج عالمي في التنمية الحضرية المستدامة عام 2004، كانت المدينة تفيض بالحياة. جلستُ في بهو البلدية، أستمع إلى حديث **العمدة خوان كلوس** عن مشروعٍ جديد

يربط البحر بالمدينة، وكأنه يتحدث عن حلمٍ أكثر منه عن خطةٍ عمرانية. كانت **برشلونة** آنذاك تشبه ورشةً مفتوحة على الضوء، تُعيد اكتشاف نفسها بعد أولمبياد عام 1992، وتنسج بين التاريخ والحداثة خيطًا من الإبداع المتوسطي. في عينيّ العمدة رأيت فخر المدن التي تعرف كيف تُصغي إلى البحر وتعيد صياغة ملامحها كل جيل. شعرت أن برشلونة ليست مجرد مدينةٍ تتطور عمرانيًا، بل كائنٌ حيّ يعيد تعريف الجمال باستمرار.. كانت المقارنة بين ما حققته مدينته وبين ما كنا نطمح إليه لبغداد حاضرة في ذهني طوال اللقاء. شعرت حينها بأن العراق، رغم جراحه، يمكن أن ينهض إذا أُتيح له مثل هذا الدعم والرؤية. كانت تلك الزيارة بالنسبة لي أكثر من مجرد مؤتمر؛ كانت نافذة على عالمٍ يرى في المدينة مشروع حياة، وليست مجرد مكان للسكن والعمل. لقد خرجت من برشلونة وأنا أحمل في ذهني أسئلة كثيرة عن معنى الإعمار الحقيقي، وهل يكمن في الأبنية فقط أم في إعادة بناء الإنسان والعقل أيضًا.

الرحلة البحرية في البحر الأبيض المتوسط

في صيفٍ من مواسم العمر، اخترتُ البحر ليكون مسرح رحلتي. كانت التجربة هذه المرة مختلفة: رحلة بحرية على متن باخرة عملاقة من بواخر MSC Cruise، برفقة صديقيّ العزيزين سليم وشاكر وزوجتيهما، لنكون ستةً نتقاسم الضحك والذكريات ونبحر معًا في قلب المتوسط.

.في ميناء برشلونة، حين وقفنا أمام السفينة للمرة الأولى، أصابنا شعور



بالدهشة. لم تكن مجرد باخرة، بل بدت كناطحة سحاب ألقيت على سطح



البحر، تضج بالطوابق والأنوار. نظرت زوجتي نحوي وقالت بخوفٍ خافت:

«أخشى أن أصاب بدوار البحر...». ابتسمت وانا اشير إلى الباخرة: «اطمئني، هذه ليست سفينة صغيرة، إنها مدينة كاملة، ستنسين أنك فوق الماء.» استغرقت رحلتنا سبع ليالٍ حملتنا بين أمواج البحر المتوسط، وكأننا نعيد اكتشاف مدن التاريخ من على سطح سفينة عابرة للزمن. كانت أولى محطاتنا مرسيليا الفرنسية، مدينة الميناء والأسواق العريقة التي

تشمّ فيها رائحة المتوسط مختلطة برائحة التوابل والبحر. ومن هناك واصلنا الإبحار نحو جنوا الإيطالية، مدينة الكشوفات البحرية وبوابة كريستوفر كولومبوس إلى العالم. ثم اتجهنا إلى نابولي، المدينة التي تفيض بالحياة تحت ظل جبل فيزوف، حيث تختلط الأسطورة بالتاريخ. وبعدها حملتنا الأمواج إلى ميسينا في صقلية، ذلك المعبر الضيق الذي شهد مرور الأساطيل منذ العصور القديمة.

وفي فاليتا، عاصمة مالطا، وجدنا أنفسنا في حصن حجري يطل على البحر، حيث الأزقة الضيقة والكنائس المهيبة تشهد على قرون من الصراع والازدهار. وأخيرًا، عادت بنا السفينة إلى برشلونة، نقطة الانطلاق والختام، وكأن الرحلة كانت دائرة مكتملة على صفحة البحر. وما إن صعدنا حتى تبدّد القلق. الردهات الواسعة، السلالم المضيئة بالكريستال، المحلات والمطاعم، المسابح المكشوفة، كلها جعلتنا نشعر أننا في مدينة مصغّرة تتحرك فوق الموج. قالت لمياء مبتسمة» :كأننا *في شارع ببرشلونة... لكنه شارع عائم«!* اخترنا لأنفسنا مقصورات مطلة على البحر مباشرة .كان المشهد صباحًا لا يُنسى: أفق يبدّل لونه بين الأزرق الفاتح والنيلي الداكن، ومدن تظهر شيئًا فشيئًا من بعيد كأنها سراب يقترب. في الليل، كنا نفتح الشرفات لنستمع إلى هدير الموج، فيما السفينة تمضي بنا نحو مدينة جديدة.

أولى محطاتنا كانت مارسيليا .في الميناء القديم، بين القوارب والمقاهي البحرية، بدأنا جولتنا. صعدنا إلى كنيسة نوتردام دو لا غارد، ومن هناك بدا البحر كأنه يحضن المدينة. وقف سليم ملوّحًا بيده» :*لو كنت بحّارًا، لجعلت مارسيليا مينائي الأبدي*«.

في جنوة، سرنا جميعًا في الأزقة الضيقة كأننا في متاهة من القرون الوسطى. وقفنا أمام كاتدرائية سان لورينزو ذات الواجهة المخططة بالأبيض والأسود، ومررنا بقصور أثرية تشهد على ماضيها البحري العريق. قال شاكر متأملًا» *هنا لا تسير في شوارع عادية، بل في تاريخ متجسد بالحجر*«.

في نابولي، كان جبل فيزوف يلوح لنا من بعيد كحارس أبدي. تجوّلنا بين ساحة بليبيشيتو والقصر الملكي، ومررنا في الأزقة حيث رائحة البيتزا والقهوة تملأ المكان. ضحكنا حين قررنا جميعًا تذوّق البيتزا النابولية الأصلية، فقالت ام احمد زوجة شاكر مازحة» :*من لم يتذوّق بيتزا نابولي، كأنه لم يزرها*«.

أما ميسينا، في جزيرة صقلية، فقد فتحت لنا أبوابها على مشهد بانورامي فريد. من الكاتدرائية القديمة ببرجها الشهير، إلى الساحة التي تعج بالحياة، شعرنا أننا في جزيرة تحمل عبق التاريخ ورائحة المتوسط. أشار

شاكر إلى الميناء وقال» :من هنا مرّت قرون من السفن، من الفينيقيين إلى العرب إلى النورمان، كأن هذه الجزيرة كتاب تاريخ مفتوح«.

في مالطا، كانت المفاجأة الكبرى. شوارع فاليتا المرصوفة بالحجر الذهبي بدت كأنها مسرح مفتوح. زرنا كاتدرائية سان جون وصعدنا إلى الحدائق المطلة على الميناء الكبير. هناك اكتشفنا أن الكثير من الكلمات المالطية لها جذور عربية» :*قصر، زيت، ميناء* .«ابتسم المرشد قائلاً» :*لقد حكم العرب هنا ثلاثة قرون* «.فالتفت شاكر قائلاً» :*حتى ونحن بعيدون عن بغداد، ما زلنا نسمع صدى لغتنا*«.

وفي مساء اليوم الأخير، عادت بنا السفينة إلى برشلونة. التي وصلناها صباحا لكننا لم نعد كما كنا فقد حملنا معنا مزيجًا من ذكريات البحر والبر، من أصوات الأمواج وضحكات الأصدقاء، من الأطباق العالمية والحوارات الصغيرة التي لا تُنسى.

قضينا يومين في برشلونة، وكان كل يوم كأنه نافذة على عالم مختلف. بدأنا جولتنا من شارع لارامبلا، شارع المشاة الأشهر في المدينة، حيث تتدفق الحشود بلا انقطاع. هناك، الحياة لا تهدأ موسيقيون متجولون يعزفون الغيتار، رسامون يرسمون ملامح العابرين، وباعة يعرضون زهورًا وجرائد ومأكولات محلية. كان الشارع أشبه بمهرجان يومي يحتفي بالحياة. ومن هناك، توجهنا إلى كنيسة ساغرادا فاميليا، التحفة الخالدة

التي صمّمها غاودي. وقفنا مشدوهين أمام أبراجها التي ترتفع نحو السماء كأصابع من نور، ثم دخلنا إلى داخلها حيث انعكس الضوء الملون من النوافذ الزجاجية على الأعمدة العالية، فبدا المكان كغابة من الألوان الروحية.

في اليوم التالي، زرنا ملعب كامب نو، معقل نادي برشلونة لكرة القدم. وبين مدرجاته الفارغة شعرنا أننا نستحضر أصوات الجماهير التي طالما ملأت المكان بهتافها، وأهداف نجوم الكرة التي صنعت تاريخًا لن يُنسى. كان الملعب يذكّرنا أن الرياضة، مثل الموسيقى، لغة عالمية تجمع البشر. ولم يكتمل المشهد من دون السير على كورنيش برشلونة الساحر، حيث يمتد البحر في الأفق بلا نهاية. هناك، جلسنا نحتسي القهوة ونراقب الناس وهم يمارسون الرياضة أو يتنزهون بمحاذاة الأمواج. البحر كان يعكس ألوان الغروب، والمدينة بدت كأنها تنبض بإيقاع البحر ذاته. كما حملتنا خطواتنا إلى الأحياء القديمة مثل *باريو غوثيكو*، بأزقتها الضيقة المرصوفة بالحجر، وميادينها الصغيرة التي تفيض برائحة القهوة الإسبانية. وفي المساء، جلسنا في مطعم مطل على البحر، نتذوق طبق *البايّيا* الشهير، بينما كان الأفق يرسم لوحة من أرجوان وذهبي فوق مياه المتوسط.

كانت برشلونة خلال يومين **مدينة متكاملة** :شارعها يفيض بالحياة، كنيستها ترفعك نحو الروح، ملعبها يستحضر صخب الجماهير، شارع الكورنيش يحتضن البحر، وأحياؤها تحفظ عبق التاريخ. وعندما غادرناها، شعرنا أننا تركنا جزءًا من أرواحنا هناك، محمولًا على إيقاع مدينة تعرف كيف تُدهشك في كل لحظة.

لم تكن الرحلة البحرية مجرد تنقّل بين الموانئ، بل كانت تجربة حياة متكاملة، جمعت بين صفاء البحر، وبهجة الاكتشاف، ودفء الصداقة. على سطح السفينة، حيث الأفق مفتوح بلا حدود، تذوّقنا طعم الحرية واكتشفنا أن البحر لا يمنحك المسافة فحسب، بل يمنحك وقتًا للتأمل، ومساحة للانتماء إلى لحظة عابرة لكنها باقية في الذاكرة. ومع استمتاعنا بها جميعًا، اتفقنا أن نعيد التجربة في العام القادم، لكن هذه المرة في شمال أوروبا.

أمسية موسيقية في ماستريخت

بعد هذه المحطة المبهرة، غادرنا جوًا إلى **أمستردام**، العاصمة التي تستقبلك بقنواتها وجسورها، ومنها واصلنا جنوبًا إلى مدينة **ماستريخت**، حيث كان ينتظرنا موعد مختلف مع الموسيقى.

في مساء الخامس من تموز/يوليو 2019، جلسنا أنا وزوجتي، وصديقي سليم وزوجته في قلب **ساحة فيفتهوف**Vrijthof التاريخية بماستريخت. كانت الأبراج العتيقة لكنيستي سانت سيرفاس و**سانت جان** تتلألأ بأضواء ذهبية في الخلفية، فيما غصّت الساحة بالآلاف الذين جاؤوا من كل صوب. كان الهواء مشبعًا بالترقّب، كأن المدينة كلها تحبس أنفاسها بانتظار لحظة الانطلاق. وعند التاسعة تمامًا، خيّم الصمت، ثم انطفأت الأضواء فجأة، ليظهر **أندريه ريو** على المنصة، بكمانه وابتسامته التي يعرفها الملايين. ارتفع التصفيق كعاصفة فرح، وما إن لامست القوس أوتار الكمان حتى انطلقت النغمات الأولى، معلنة بداية أمسية موسيقية لن تُنسى.



انفتحت الساحة على عالم آخر: أزواج نهضوا يرقصون بخفة في الممرات على أنغام The Second Waltz، والجمهور يلوّح بالأعلام الصغيرة في انسجام تام. مقطوعات أخرى كانت تُقدَّم بخفة ودعابة، فملأت المكان بالضحكات، بينما بعض المقاطع أدّيت بقوة ملحمية جعلت الأبراج نفسها

كأنها ترتجف مع وقع الأصوات، خصوصًا في لحظة أداء *O Fortuna* التي اجتاح صداها أرجاء المكان. لم يكن الحفل مجرد موسيقى، بل طوفان مشاعر؛ قلوب تهتز، عيون تدمع، وأيدٍ تصفق على الإيقاع. وفي الختام، حين دوّت أنغام Le Beau Danube Bleu ثم Radetzky March وقفت الساحة كلها صفًا واحدًا، تُوحّدها موسيقى خالدة. تصفيق، ضحك، وامتنان غمر الجميع، وكأن الآلاف قد تحولوا في تلك اللحظة إلى عائلة واحدة اجتمعت حول لحن يعلو فوق كل اختلاف.

لم تقتصر الرحلة على الحفل وحده، بل كانت جزءًا من باقة سفر متكاملة رتّبها المنظمون بعناية. أقمنا في فندق مريح وسط ماستريخت، وكان اليوم الأول يتضمن حفلة غداء جمعت ضيوفًا من أنحاء العالم، جلسوا معًا على طاولات طويلة يتبادلون الأحاديث بلغات مختلفة، لكنهم يشتركون جميعًا في شغف واحد هو انتظار لحظة اللقاء مع الموسيقى. وفي صباح اليوم التالي للحفل، أقلّتنا حافلة صغيرة إلى جولة في ريف لهمبورغ المحيط بالمدينة. عبرنا تلالًا خضراء لامعة تحت شمس الصيف، ومررنا بقرى هولندية أنيقة ببيوت بيضاء مزدانة بالورود عند النوافذ. كان الدليل يروي تاريخ المكان، فيما كانت أنغام الليلة الماضية لا تزال تتردد في أعماقنا، كأنها ترافقنا من الساحة إلى الحقول.

حين أتأمل تلك الأيام، أدرك أن السفر والموسيقى يشبهان البحر في امتدادهما: كلاهما لا يعترف بالحدود. السفر يفتح أمامك مدنًا جديدة ووجوهًا مختلفة، والموسيقى تفتح في داخلك أبوابًا لم تكن تعرفها. كلاهما يجمع الناس حول مشاعر مشتركة، ويجعل الغريب قريبًا منك دون أن تنطق كلمة. وكما عبرنا من البحر إلى برشلونة ثم ماستريخت، انتقلنا من اكتشاف الأمكنة إلى اكتشاف أنفسنا في حضرة أنغام خالدة. لقد علّمتنا التجربة أن الرحلة لا تُقاس بعدد الكيلومترات، بل بلحظات الجمال التي تُلهم الروح وتترك فيها أثرًا لا يُمحى.

زيارتي الثانية إلى مالطا

كانت تلك زيارتي الثانية إلى مالطا. في الأولى لم تَكُن سوى استراحة عابرة، لم يتّسع فيها الوقت لأكثر من إطلالة سريعة على المرافئ وأزقة المدينة القديمة. أمّا هذه المرة بدافع مختلف؛ فقد كنت مشاركًا في مؤتمر هندسي استمر يومين في العاصمة فاليتا .في أوقات الاستراحة، كنت أتنقّل بين أزقة المدينة القديمة، أستمع إلى همس الحجارة الكلسية وهي تروي قصص الفرسان والحصون. شعرت أنني في مدينة صغيرة المساحة، لكنها تختزن في جدرانها تاريخًا أكبر من حدودها.

وحين انتهى المؤتمر، كان موعد الرحيل نحو صقلية .أبحرتُ من مالطا مع أولى ساعات الصباح، حين كان البحر لا يزال هادئًا بلونٍ أزرق مائل إلى

الفضة، يعكس شمسًا متردّدة في الصعود. رائحة الملح كانت تملأ الممرات، وزرقة المتوسط تمتد بلا نهاية. جلستُ على سطح السفينة أراقب الخط الفاصل بين السماء والماء، وأصغي إلى إيقاع المحرّكات وهو يقطع الموج بإصرار. الرحلة لم تدم سوى بضع ساعات، لكنّها بدت كأنها فصل كامل من التأمل. كانت الطيور البحرية تحلّق معنا أحيانًا، تقترب ثم تختفي في الأفق، فيما النسيم يحمل شيئًا من البرودة الممزوجة بعبق البحر. بعض الركّاب انشغلوا بالتصوير، آخرون غفوا على الكراسي، أما أنا فقد تركت نفسي للذكريات، أتأمل كيف يُحوّل البحر المسافة القصيرة بين جزيرتين إلى جسر من التأملات. شيئًا فشيئًا، أخذ خط اليابسة يقترب. تلال صقلية ارتسمت أولًا كظلٍ بعيد، ثم اتّضح شكلها وهي تخرج من البحر ككتلة خضراء داكنة.

هناك أحسست أن الرحلة البحرية القصيرة لم تكن مجرد وسيلة انتقال، بل طقس عبور من جزيرة إلى أخرى، من ذاكرة إلى أخرى، ومن لحظة إلى لحظة جديدة في كتاب الحياة. ما إن غادرتُ السفينة، حتى وجدتُ نفسي في حضن صقلية جزيرة تحمل عبق البحر ورائحة الأرض معًا. استأجرت سيارة واتجهت إلى، كتانيا التي لا يعرفها الكثير من السيّاح، لكنها بقيت بالنسبة لي علامة على تلك الرحلة بين البحر الذي عبرته، والتلال التي صعدتها، والذاكرة التي أضفت عليها هذه التجربة ملمسًا خاصًا من السكينة. الطريق الممتد نحو كتانيا بدا كأنه شريط من الحكايات، يمرّ بين

تلال خضراء مزروعة بالكروم وأشجار الزيتون، وقرى صغيرة تتدلّى بيوتها البيضاء فوق سفوح الجبال. السيارة تمضي بي عبر طرق ضيقة تحفها أشجار الليمون والبرتقال، والقرى الصقلية تمرّ كأنها لقطات سريعة من فيلم قديم كنائس صغيرة ذات قباب حمراء، مقاهٍ يجلس أمامها رجال مسنون يتبادلون أحاديث هادئة، وأسواق تفوح منها روائح الخبز الطازج والريحان. كل منعطف في الطريق كان يكشف مشهدًا جديدًا؛ مرةً بحرٌ لازال يطلّ من بعيد، ومرةً حقولٌ تتلألأ تحت الشمس، ثم فجأة يظهر جبل إتنا[15] بقمّته المكللة بالدخان، كأنه حارس أبدي للجزيرة. وجوده في الأفق كان يرافقني مثل ظلٍ صامت، يذكّرني بقوة الطبيعة وبالزمن الذي لا يتوقف. كان بركان يلوح لي من بعيد، شامخًا بقمته التي تتبدّل ملامحها بين الثلج الأبيض والدخان الرمادي. وقفتُ أتأمله من نافذة السيارة، فأحسست أنني أمام كائن حيّ، يتنفس ببطء، ويراقب الجزيرة وأهلها منذ آلاف السنين. لم يكن مجرد جبل، بل أسطورة حقيقية تفرض حضورها على كل شيء حولها. وحين اقتربتُ من **كتانيا**، ثاني أكبر مدينة في جزيرة صقلية الإيطالية بدأت ملامح المدينة تُعلن عن نفسها بيوت حجرية داكنة، شوارع واسعة تنبض بالحركة، وصوت الحياة يعلو شيئًا فشيئًا. كتانيا بدت

---

[15] يبلغ ارتفاع جبل إتنا 3329 مترًا ويعتبر أطول بركان نشط في أوروبا وقد سماه العرب الذي حكموا صقلية باسم جبل النار

لي كمدينة وُلدت من رماد البركان، لكنها تعلمت كيف تجعل من الرماد حياة. في. كتانيا، شعرتُ أنني أعبر إلى مدينة وُلدت أكثر من مرة. هنا لا يمرّ التاريخ كزائر عابر، بل كقوة تعيد تشكيل المكان مرارًا. الشوارع المرصوفة بالبازلت الأسود وهو صخر ناري تشكّل من تجمّد الحمم البركانية تشهد على ذلك؛ فهي ليست مجرد أحجار، بل بقايا حمم بركانية تحوّلت إلى أرصفة وأبنية. الحجر نفسه يحمل بصمة النار التي خرجت من جوف الأرض.

في الساحات، يتجاور القديم والجديد بلا حرج كاتدرائية سانت أغاثا بقبّتها المهيبة، والقصور الباروكية التي شُيّدت بعد زلازل وبراكين دمّرت المدينة أكثر من مرة. الناس هنا يتعاملون مع الذاكرة كما يتعاملون مع الطبيعة يقبلونها بكل قسوتها، ثم ينهضون من جديد بركان **إتنا** ليس بعيدًا عن المدينة؛ إنّه يطلّ من الشمال الشرقي مثل عملاق أسطوري، يراقبها بصمت. ارتفاعه الذي يتجاوز ثلاثة آلاف متر يجعله حاضرًا في كل أفق، وكلما رفعت بصري أراه هناك، بقمّته المكللة أحيانًا بالثلج، وأحيانًا بالدخان. إنّه بركان نشط، لكنه بالنسبة لأهل كتانيا ليس مصدر خوف دائم، بل جزء من حياتهم اليومية. فهم يعرفون أنه يهدّد، لكنه أيضًا يمنح الأرض خصوبتها. كروم العنب وبساتين الزيتون والحمضيات التي تحيط بالمدينة مدينة ما كانت لتزدهر لولا رماده البركاني.

كتانيا بدت لي كمدينةٍ تعيش على حدود التناقض بين الخطر والجمال، بين الرماد والازدهار. وفي تجوالها تشعر أنك تمشي فوق أرضٍ مشبعة بالحياة، لكنها لا تكفّ عن التذكير بأن تحتها نيرانًا لا تهدأ. دخلت المدينة وأنا أحمل ذلك الإحساس المزدوج: رهبة من قوة الطبيعة، ودهشة من قدرة الناس على التعايش معها .**كتانيا** لم تُخفِ آثار ماضيها البركاني، بل جعلته جزءًا من هويتها. الأرصفة والشوارع المرصوفة بالبازلت الأسود ما هي إلا حمم متحجّرة، تحوّلت إلى أساس للحياة اليومية. العمارة الباروكية التي أعيد بناؤها بعد الزلازل والانفجارات الكبرى تحمل في جدرانها قصصًا عن مقاومة وصبر لا ينتهي

. آخر نشاط كبير لبركان إتنا وقع في عام ٢٠٢١، حين تدفقت الحمم على مدى أشهر طويلة، وأضاءت السماء ليالي صقلية بألسنة اللهب. يومها عاش الناس حالة من الترقّب، لكن المدينة لم تتوقف عن عملها؛ الأسواق ظلّت مفتوحة، والمقاهي ظلّت تعجّ بالناس، كأنهم تعلّموا كيف يحوّلون الخطر إلى جزء من إيقاع حياتهم. وأنا أمشي في شوارع. كتانيا، كنتُ أشعر أن تحت أقدامي أرضًا لا تهدأ، وأن كل مبنى وكل شجرة تنمو هنا هي شهادة على قدرة الإنسان على تحدي الرماد. في تلك اللحظة أيقنت أن هذه المدينة ليست فقط سكنًا للبشر، بل شراكة مع جبل يذكّرهم كل حين بأن القوة الحقيقية لا تأتي من الهروب من الخطر، بل من القدرة على النهوض بعده. حين اقتربتُ من، كتانيا كان **إتنا** يرافقني من بعيد كظلٍ عظيم. قمة

تتنفّس دخانًا وثلجًا معًا، تجعلك تحس أنك أمام أسطورة حيّة وليست مجرد جبل. دخلت المدينة وأنا أحمل في قلبي رهبة من قوته، ودهشة من قدرة أهلها على تحويل الخطر إلى جزء من يومهم. شوارعها المبلّطة بالبازلت الأسود، وعمارتها الباروكية التي نهضت من تحت الرماد أكثر من مرة، تقول لك إن الحياة هنا ليست امتيازًا مجانيًا، بل انتصار متكرر على النار والزلازل. آخر ثورة كبرى لإتنا كانت عام ٢٠٢١، حين أضاءت حممه ليالي صقلية بألسنة من اللهب، ومع ذلك ظلّت كتانيا تمارس طقوسها اليومية: الأسواق مفتوحة، والمقاهي عامرة بالضحكات. كأنها مدينة قررت أن تتعايش مع الخطر لا أن تستسلم له.

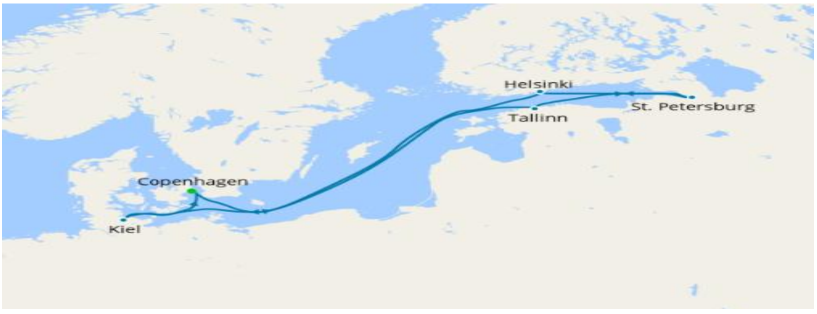
كان **إتنا** يلوح لي ككائن أسطوري، لا يُشبه الجبال الأخرى. قمة تتنفس بين الثلج والنار، تذكّر بأن الأرض ليست ثابتة كما نظن، بل قلب نابض يمكن أن يثور في أي لحظة. دخلتُ كتانيا وأنا أستشعر هذه المفارقة: كيف يمكن لمدينة أن تعيش مطمئنة، وهي قائمة على حافة بركان لا يهدأ؟ لكنني سرعان ما أدركت أن سرّها ليس في تجاهل الخطر، بل في تحويله إلى جزء من هويتها. شوارعها المرصوفة بالبازلت الأسود، مبانيها التي نهضت من تحت الرماد مرارًا، وأسواقها التي ظلّت تنبض بالحياة حتى في آخر ثورات البركان عام ٢٠٢١؛ كلها شواهد على أن الحياة لا تُلغى أمام التهديد، بل تكتسب معنى أعمق بوجوده. وأنا أتأمل ذلك المشهد، قفزت إلى ذهني

بغداد .فكما تعيش كتانيا مع إتنا، عاشت بغداد مع دجلة قرون طويلة نهر يفيض فيدمّر، لكنه أيضًا سرّ خضرتها وذاكرتها. كلاهما النهر والبركان يحملان وجهين الهلاك والعطاء، التهديد والخصب. وكلا المدينتين تعلمتا أن الوجود ليس بحثًا عن الأمان المطلق، بل قبولٌ بأن في قلب الخطر يكمن أيضًا سرّ الاستمرار.

الرحلات البحرية بحر البلطيق

بعد أن عشنا دفء المتوسط وشمسه في رحلتنا السابقة، قررنا أن نمنح البحر فرصة أخرى، لكن هذه المرة من بوابة الشمال. كنا نحن الستة – أنا وزوجتي، وصديقيّ سليم وشاكر وزوجتاهما – نتطلع إلى رحلة جديدة تحمل لنا طابعًا مختلفًا مدن البلطيق الهادئة، وسماء رمادية مشبعة بالبرودة، وأفق تزينه غابات الصنوبر بدل أشجار الزيتون.

بدأنا مغامرتنا من كيل(Kiel) في ألمانيا، ومنها انطلقت سفينتنا الكبيرة



تشق بحر الشمال نحو الشرق. كانت أولى محطاتنا كوبنهاغن، عاصمة

الدنمارك، ثم واصلنا الإبحار إلى هلسنكي في فنلندا، حيث يلتقي البحر بالبراري الشمالية. ومن هناك اتجهنا إلى تالين عاصمة إستونيا، مدينة القرون الوسطى التي ما زالت تحتفظ بأسوارها وأبراجها. بعد ذلك، واصلنا جولتنا الى سانت بطرسبرغ في روسيا ثم مدينة تالين (Tallinn) في إستونيا قبل أن تعود بنا السفينة إلى نقطة الانطلاق في المانيا. كانت هذه الرحلة الثانية امتدادًا لتجربتنا الأولى في البحر الأبيض المتوسط، لكنها حملت روحًا مختلفة هنا لم يكن البحر دفئًا ورحابة كما في الجنوب، بل كان أكثر هدوءً وعمقًا، يفتح أبواب التأمل ويمنح المدن المحيطة به وقارًا خاصًا.

حين غادرنا ميناء كيل في ذلك الصيف، كان الجو معتدلًا يحمل نسمات عليلة، لا بردًا قارسًا ولا حرًّا خانقًا، وكأن البحر الشمالي أراد أن يرحب بنا بلطفه. السماء ملبّدة بغيوم خفيفة تتحرك ببطء، فيما أشعة الشمس تتسلل بينها لتنعكس على مياه نهر الإلبه الذي يقود إلى البحر المفتوح. وقفنا جميعًا على سطح السفينة، نراقب ضفاف النهر وهي تبتعد شيئًا فشيئًا، وتفسح المجال لصفحة بحرية واسعة. قالت زوجتي بابتسامة *توقعت* أن أشعر بالرهبة من هذا البحر، لكنه *يبدو هادئًا* ومطمئنًا. فأجبتها هو البحر نفسه لكن في الصيف يبدو كصديق ودود وأضافت زوجة **شاكر** وهي تحدق في الأفق رحلتنا الماضية في البحر الأبيض المتوسط كانت دفئًا وحيوية، أما هذه فتوحي بالسكينة والتأمل.

ومع تقدم السفينة نحو عرض البحر، أدركنا أن هذه المغامرة لن تكون مجرد تكرار لتجربتنا السابقة، بل فصلًا جديدًا مختلفًا في كتاب رحلاتنا، يُعلن بدايته في كوبنهاغن. وصلنا صباحًا إلى كوبنهاغن، والمدينة بدت لنا منذ اللحظة الأولى مختلفة عن مدن البحر الأبيض المتوسط. هنا الألوان أكثر هدوءً، والهواء عليل منعش، والبحر يتسلل إلى شوارعها عبر القنوات المائية. بدأنا جولتنا في منطقة نيهافن الشهيرة، حيث تصطف البيوت القديمة المطلية بألوان زاهية – الأحمر والأصفر والأزرق – على جانبي



القناة. جلسنا في مقهى صغير على الرصيف، نحتسي القهوة الدنماركية ونتأمل المراكب الخشبية الراسية منذ عقود. قال شاكر وهو ينظر إلى المشهد *كأننا جلسنا داخل لوحة زيتية مرسومة بعناية*. فردت زوجته مبتسمة *حتى انعكاس الألوان على الماء يبدو وكأنه جزء من الرسم*. لكن كوبنهاغن لم تكن بالنسبة لي مجرد محطة سياحية، بل مناسبة للقاء عزيز.

قبل الرحلة، كنت قد اتصلت من ألمانيا بصديقي الكاتب العراقي المعروف سهيل سامي نادر، الذي يقيم في مدينة قريبة من العاصمة الدنماركية. اتفقنا على اللقاء، وكان المشهد مؤثرًا: جلسنا في مقهى وسط المدينة، نتبادل الأحاديث كما لو أننا لم نفترق يومًا. كان لقاءً حميميًا تخللته ذكريات وصوت ضحكات متقطعة من قلب الغربة. تذكرت كيف وقف سهيل إلى جانبي في بداياتي الأدبية، وساعدني على تحرير أول كتبي »كنتُ أمينًا على بغداد .«لكنني في تلك اللحظة لم أره فقط صديقًا، بل رمزًا لجيل كامل من الأدباء العراقيين الذين لم يحتضنهم وطنهم. سهيل، بموهبته وصدق قلمه، اضطر للهجرة بعيدًا، وهكذا العراق يخسر واحدًا من رموزه الثقافية، كما خسر الكثيرين قبله. قلت له وأنا أنظر في عينيه : *»أتعلم يا سهيل؟ نحن لا نحمل المنفى وحده، بل نحمل خيبة وطن لم يعرف كيف يحفظ أبناءه «*.ابتسم بحزن مجيبًا وربما كتابتنا هي ما يُبقي شيئًا من العراق حيًّا فينا«.

ذلك اللقاء أضفى على كوبنهاغن طابعًا خاصًا بالنسبة لي: لم تعد مجرد مدينة جميلة ببيوتها الملونة وقصورها الملكية، بل صارت مدينة ارتبطت في ذاكرتي بصداقة عميقة ورمز ثقافي عراقي ظل وفيًّا لقلمه رغم قسوة المنافي.

ثم واصلنا الجولة إلى قصر أمالينبورغ الملكي، حيث شاهدنا مراسم تبديل الحرس بزيهم التقليدي وسط ساحة واسعة تحيط بها مبانٍ فخمة. علّق سليم» *الملوك هنا لا يسكنون القلاع البعيدة، بل وسط الناس، وهذا يضفي على المدينة طابعًا* إنسانيًا«. قبل أن نعود إلى السفينة، تجولنا قليلًا في شوارع وسط كوبنهاغن، حيث الدراجات الهوائية أكثر عددًا من السيارات، والمتاجر تعرض التصاميم الدنماركية البسيطة والأنيقة. في الساحة الكبرى، توقفنا للحظات لنستمع إلى موسيقي يعزف على الكمان، فبدت المدينة وكأنها تمنحنا وداعًا موسيقيًا هادئًا قبل أن نبحر مجددًا. مع حلول المساء، عدنا جميعًا إلى السفينة بعد يوم مليء بالجولات في كوبنهاغن ولقاء صديقي سهيل .جلسنا على سطحها العلوي، نتأمل الأفق فيما السفينة تبدأ رحلتها الطويلة عبر بحر البلطيق متجهة نحو فنلندا. كان الجو صيفيًا معتدلًا، ، نسيم لطيف يلامس الوجوه ورائحة البحر تملأ الصدر. الشمس بدت وكأنها لا تريد الغياب سريعًا، بل أخذت تميل ببطء شديد، ترسم خيوطًا ذهبية على سطح الماء. البحر هنا بدا مختلفًا عن البحر المتوسط أهدأ، أكثر اتساعًا، كمرآة كبرى تعكس صفاء السماء. جلس سليم وهو يراقب المشهد قائلاً» :*كأن البحر في الشمال يكتب قصيدة صامتة«*. فأجابه شاكر وهو يبتسم» *قصيدة بلا كلمات، لكننا نفهمها جميعًا«*. بينما نحن نستمع إلى الموسيقى الهادئة التي انبعثت من أحد المطاعم المفتوحة على السطح، كنا نشعر أننا نبحر في عالمٍ خارج الزمن،

لا نرى سوى صفحة الماء الممتدة بلا نهاية. بعض المراكب الصغيرة بدت من بعيد كأنها نقاط ضوء تتحرك في الفضاء، فيما الطيور البحرية تتابع السفينة للحظات ثم تختفي. في تلك الليلة، ومع اعتدال الجو وهدوء البحر، شعرنا أن هذه الرحلة تختلف فعلًا عن رحلتنا السابقة في المتوسط هناك كنا نسبح في بحر مليء بالحياة والدفء، أما هنا فنحن أمام بحر يمنحنا سكينة وتأملًا، وكأنه يدعونا للتفكير فيما مضى وما سيأتي. ومع حلول منتصف الليل، غادرنا السطح إلى مقصوراتنا المطلة على البحر، لكننا تركنا النوافذ مفتوحة، كي يبقى البحر رفيقًا لنا طوال الطريق نحو هلسنكي.

في الصباح التالي، ومع انبلاج النهار، كنا نقف جميعًا عند شرفات مقصوراتنا نراقب السفينة وهي تقترب من هلسنكي .البحر كان هادئًا، والسماء ملبدة ببعض الغيوم البيضاء، لكن أشعة الشمس اخترقتها لتضيء مباني المدينة التي بدت كأنها مرسومة بألوان باهتة متناسقة.

ظهرت لنا من بعيد كاتدرائية هلسنكي البيضاء، شامخة على تلّة، بقبتها الخضراء وأعمدتها الكلاسيكية، وكأنها تحرس المدينة وتعلن هويتها من أول نظرة. عندما رست السفينة في الميناء، نزلنا إلى الرصيف حيث استقبلتنا رائحة البحر الممزوجة بنسمات باردة عليلة. قال شاكر وهو يتأمل المشهد» :*هنا لا صخب ولا ازدحام، بل هدوء يشبه لوحة شمالية*

*هادئة «.*فأجابه سليم» *:كأن المدينة كلها تتنفس ببطء، على إيقاع البحر والغابات«.*

بعد نزولنا من السفينة، بدأنا جولتنا من ساحة السوق القريبة من المرفأ. الأكشاك كانت ممتلئة بثمار التوت الشمالي، والأسماك الطازجة، والحرف اليدوية الفنلندية. الهواء العليل، ممزوجًا برائحة القهوة والخبز الطازج، جعل الساحة تبدو كأنها قلب نابض للمدينة. من هناك سرنا نحو كاتدرائية هلسنكي، البيضاء المهيبة، التي تتربع على تلّة عالية وتشرف على الساحة الكبرى. صعدنا درجاتها العريضة، ومن الأعلى كان المشهد بانوراميًا: البحر من جهة، والمدينة الهادئة من جهة أخرى. قالت لمياء مبتسمة» *هذه الكاتدرائية تبدو كأنها تحتضن المدينة كلها«*. في شوارع وسط هلسنكي، لاحظنا الطابع العمراني المختلف: مبانٍ بسيطة الطابع، أنيقة الخطوط، متأثرة بالعمارة الإسكندنافية التي تجمع بين الوظيفية والجمال. ركّاب الدراجات الهوائية والمشاة كانوا يملؤون الشوارع، لكن بلا ضوضاء أو استعجال، وكأن المدينة كلها تعيش على إيقاع هادئ متصالح مع طبيعته. مع نهاية الجولة، عدنا إلى السفينة بعد يومٍ حمل لنا مزيجًا من التاريخ والسكينة، لنستعد للوجهة الأكبر والأكثر انتظارًا في رحلتنا :سان بطرسبورغ.

في صباح اليوم التالي، ومع اقتراب السفينة من خليج فنلندا، كان المشهد مختلفًا تمامًا عن كل ما رأيناه من قبل .سان بطرسبورغ ظهرت لنا من بعيد كأنها مدينة ولدت من البحر والأنهار والقنوات، تتلألأ قبابها الذهبية وسط ضوء شمس الصيف المعتدل. حين رست السفينة، شعرنا أننا أمام مدينة



استثنائية: ليست مجرد ميناء، بل مسرح للتاريخ والفن والسياسة. قال شاكر وهو يتأمل الواجهة البحرية» :*هنا لا ترى مدينة فقط، بل مشروع إمبراطوري أراد أن يطل على أوروبا* «.فأجابه سليم »*بطرس الأكبر لم يبنِ مدينة عادية، بل نافذة روسيا إلى العالم*«. بدأنا جولتنا من قصر الشتاء، ذلك المبنى الأخضر والأبيض الفخم الذي يضم اليوم متحف الأرميتاج .الممرات الفسيحة والقاعات المزدانة بالذهب، واللوحات العالمية التي تملأ الجدران، جعلتنا نشعر أننا في واحد من أعظم خزائن الفن في العالم. توقفت طويلًا أمام بعض اللوحات الإيطالية والفلمنكية، وأحسست أن الأرميتاج لا يخص روسيا وحدها، بل الإنسانية كلها. من هناك خرجنا إلى ضفاف نهر نيفا، الذي يشق المدينة بجلاله. الجسور المزخرفة تربط بين ضفتيه، والمراكب السياحية

تمر بهدوء تحتها. جلسنا للحظة على مقعد خشبي قرب النهر، نتأمل انعكاس السماء والقصور على سطح الماء. قالت زوجتي» :*هذا النهر كأنه شريان، يمد المدينة بالحياة والروح«*.في جولتنا أيضًا زرنا كنيسة الدم المراق، بقبابها الملونة التي تشبه زخارف الحكايات الروسية. كانت قبابها الذهبية والملونة تلمع تحت ضوء الشمس، وكأنها رسالة بأن الجمال لا يزول رغم المآسي التي حملها اسم الكنيسة. مررنا أيضًا بساحة القصور، حيث التاريخ الإمبراطوري حاضر في كل حجر. القصور المنتشرة في أرجاء المدينة بدت كأنها صفحات كتاب فاخر، تروي قصة القياصرة ونزوعهم إلى الفخامة والخلود.

سان بطرسبورغ منحتنا انطباعًا خاصًا ليست مدينة أوروبية خالصة ولا روسية بحتة، بل خليط نادر، جسر بين الشرق والغرب، بين الانضباط الروسي والرقي الأوروبي. علق شاكر وهو ينظر إلى الأفق» :*إنها مدينة أراد بطرس أن يجعلها أوروبية، لكنها بقيت روسية بروحها العميقة«*. مع غروب الشمس، عدنا إلى السفينة محملين بثراء لا يشبه أي محطة أخرى. لم تكن زيارتنا مجرد جولة سياحية، بل غوصًا في قلب التاريخ الروسي، حيث الفن والسياسة والدين يتعانقون في مشهد واحد. مع تباشير الصباح، فتحتُ نافذة المقصورة المطلة على البحر، فإذا بنا نقترب من هلسنكي . كان المشهد مختلفًا تمامًا عن موانئ المتوسط: هنا البحر يتداخل مع مساحات خضراء شاسعة، جزر صغيرة متناثرة كأنها لآلئ طافية، وأشجار

صنوبر تمتد حتى تلامس الماء. وقفت لمياء بجانبي تراقب الأفق وقالت : *«ما أجمل هذا الهدوء لا صخب ولا زحام، بل طبيعة تحتضن البحر»* أجبتها مبتسمًا *كأننا ندخل مدينة خرجت من لوحة إسكندنافية مرسومة باللونين الأزرق والأخضر* . أما زوجة شاكر فقد أضافت وهو يشير إلى المباني البيضاء البعيدة« *حتى العمران هنا يبدو وكأنه لا يريد أن يعلو على الطبيعة، بل ينسجم معها»*. اقتربت السفينة ببطء من الميناء، وكان الهواء عليلًا منعشًا، يحمل رائحة البحر ممزوجة بعبق الغابات. لم يكن في المشهد بهرجة صاخبة، بل سكينة هادئة تُشعر الداخل إليها بأنه على أعتاب عالم جديد، مختلف في ملامحه وإيقاعه. تلك اللحظة الأولى تركت فينا انطباعًا عميقًا :هلسنكي مدينة لا تستقبل زائرها بالضجيج، بل بالسكينة والانسجام مع الطبيعة.



بعد نزولنا من السفينة، بدأنا جولتنا من قلب المدينة، حيث تقع ساحة السوق على المرفأ. الأكشاك الخشبية الصغيرة تنتشر هنا، تعرض الأسماك الطازجة والتوت البري والفواكه الشمالية. توقفنا عند أحد الأكشاك نتذوق سمك السلمون المدخن، بينما

أصوات الباعة تمتزج مع هدير البحر القريب. قال شاكر وهو يتأمل المشهد» :*هنا التجارة لا تنفصل عن الطبيعة... البحر والغابة هما السوق».* من هناك صعدنا بخطوات بطيئة نحو كاتدرائية هلسنكي البيضاء المهيبة، التي ترتفع فوق تلة وتطل على المدينة كأنها حارسها الصامت. مبناها الكلاسيكي، بأعمدته الضخمة وقبته الخضراء، كان يلمع تحت أشعة الشمس الصيفية. جلسنا على درجاتها الرخامية لبعض الوقت نلتقط الصور ونتأمل الناس، بينما السياح من كل مكان يصعدون ويهبطون في انسجام مع إيقاع المدينة الهادئ. علّقت زوجة سليم» :*بياض هذه الكنيسة يذكّرني بنقاء هذه المدينة».* بعدها اتجهنا إلى كنيسة الصخرة، المبنية داخل تجويف صخري طبيعي. لحظة الدخول إليها شعرنا أننا انتقلنا من عالم خارجي مضيء إلى عالم داخلي مهيب، حيث الجدران الصخرية الخام تشكل الجدران، وسقف نحاسي ضخم يتلألأ بالضوء. همست زوجتي» :*حتى العبادة هنا تتناغم مع الطبيعة، وكأن الفن والدين والبيئة اتفقوا على لغة واحدة».* مع اقتراب المساء، عدنا إلى وسط المدينة، ووقفنا للحظة عند نصب سيبيليوس[16]، الذي يكرّم الملحن الفنلندي الشهير.

[16] نُصْب سيبيليوس هو معلم فني وموسيقي في قلب العاصمة الفنلندية هلسنكي، تكريمًا للموسيقار القومي جان سيبيليوس(١٩٥٧؛١٨٦٥ Jean Sibelius) ، الذي يُعتبر أعظم ملحن فنلندي وصوت الهوية الوطنية.

الأنابيب المعدنية المصطفة كأنها آلة موسيقية عملاقة بدت كرمز لهوية المدينة: موسيقى من معدن، منسجمة مع الطبيعة والهواء. وبينما كنا نعود إلى السفينة، كان الانطباع الذي تركته هلسنكي واضحًا في نفوسنا جميعًا : مدينة هادئة، متواضعة، لا تتباهى بصخب العواصم، لكنها تحمل جمالًا داخليًا عميقًا يتجلى في تناغمها مع البحر والغابة والإنسان.

مع غروب الشمس، عادت بنا السفينة تغادر ميناء هلسنكي متجهة نحو الجنوب. جلسنا على سطحها العلوي، وبحر البلطيق بدا أكثر هدوءً من أي وقت مضى، كمرآة رمادية تعكس خيوط الشفق الطويل الذي لا ينتهي في صيف الشمال. قال شاكر وهو يتأمل الأفق» :*هذا البحر لا يعرف الليل كما نعرفه في الجنوب، هنا الظلام يتأخر كأنه لا يريد أن يجيء«*. أجابه سليم مبتسمًا» :*ربما لأن الشمال اعتاد أن يسرق من الليل ساعات ليضيفها إلى نهاره القصير في الشتاء«*. كانت ليلة هادئة، نسيمها عليل، موسيقاها خافتة، وسفينتنا تمضي بخطى ثابتة نحو ليتوانيا.

مدينة تالين في ليتوانيا

مع بزوغ الصبح، فتحنا نوافذ المقصورات لنجد أنفسنا أمام ميناء تالين، المدينة الليتوانية المطلة على البلطيق. بدا المشهد مختلفًا عن كوبنهاغن وهلسنكي هنا المدينة أكثر بساطة، مبانيها متواضعة، وشوارعها هادئة، لكن البحر يمنحها حضورًا خاصًا. وقفنا على السطح نراقب حركة العبارات

والمراكب الصغيرة، بينما الطيور البحرية تحوم فوق الميناء. قالت زوجتي متأملة» :*هنا لا تشعر أنك أمام عاصمة كبرى، بل أمام مدينة هادئة تكتفي بأن تعيش بإيقاع البحر«.* فأضافت زوجة شاكر» :*وكأنها مدينة بلا ادعاء... تترك للبحر مهمة الكلام«.* لم يطل بنا المقام في كلايبيدا، فزيارتنا كانت قصيرة، لكنّها تركت فينا أثرًا خاصًا. بعد نزولنا من السفينة، اتجهنا إلى البلدة القديمة، حيث الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجارة والمباني البسيطة ذات الأسقف الحمراء. هناك وجدنا سوقًا شعبيًا يعجّ بالحركة، تنتشر فيه الأكشاك التي تعرض الخضار الطازجة، الفواكه الموسمية، الأسماك المدخنة، والحِرف اليدوية المحلية. كان الباعة يتعاملون بودّ مع الزائرين، يبتسمون ويقدمون لنا قطعًا صغيرة من الجبن الليتواني لتذوقها. قالت أم احمد زوجة شاكر مبتسمة» :*حتى في الأسواق الصغيرة، يمكنك أن تتعرف على روح البلد «*.فأجاب شاكر وهو يتأمل الحشد البسيط : *»الأسواق هي مرآة الشعوب، وهنا نرى شعبًا هادئًا، راضيًا بما يجود به البحر والأرض«.* بعد جولة قصيرة بين الأكشاك، جلسنا في مقهى صغير قرب الساحة، نحتسي القهوة ونراقب الناس وهم يتنقلون في هدوء، بعيدًا عن صخب العواصم الكبرى. كانت زيارة قصيرة بالفعل، لكنها منحتنا صورة عن ليتوانيا الواقعية :بلد متواضع، بلا بهرجة، لكنه غني بروح البساطة والألفة.

مع غروب اليوم الأخير، عادت بنا السفينة إلى هامبورغ، لتكتمل الدائرة كما بدأت. لكننا لم نعد كما كنا: فقد حملنا معنا صور كوبنهاغن الملونة، هدوء هلسنكي، بساطة ليتوانيا، وصفاء البلطيق في صيفه المعتدل. كانت الرحلة البحرية هذه المرة مختلفة عن المتوسط، أكثر هدوءً وتأملًا، لكنها تركت أثرًا عميقًا في نفوسنا جميعًا.

نحو سلوفاكيا – أسبوع من الاسترخاء

بعد أن طوينا صفحة البحر وعدنا من رحلتنا في شمال أوروبا، كان علينا أن ننتقل من أجواء الاكتشاف والتنقّل إلى فسحة من الراحة والاسترخاء من هامبورغ، غادرنا بالطائرة إلى فيينا، عاصمة النمسا، حيث أمضينا ليلة واحدة. فيينا بدت لنا كأنها استراحة أنيقة بين البحر والبر، مدينة الموسيقى الكلاسيكية التي تستقبلك بواجهاتها البيضاء وشوارعها الواسعة. كانت ليلة قصيرة، لكنها منحتنا لمحة عن مدينة طالما ارتبط اسمها بسحر الفن والتاريخ. في صباح اليوم التالي، واصلنا الرحلة برًا إلى سلوفاكيا، حيث اتجهنا إلى منتجع صحي قرب العاصمة براتيسلافا. هناك، وسط الطبيعة الخضراء والهواء النقي، دخلنا عالمًا مختلفًا تمامًا عن رحلتنا البحرية. فقد كان الهدف هذه المرة الاسترخاء والاستشفاء، لا الاكتشاف والتنقّل. أسبوع كامل أمضيناه في بشتاني، **(Piešťany)** حيث المياه الساخنة والطين العلاجي والهدوء الذي لا يُشبه شيئًا آخر

خلال وجودنا في بشتاني، قررنا أن نمنح أنفسنا فسحة قصيرة خارج أجواء الاستجمام. استقللنا القطار صباحًا من محطة المدينة، وكان الطريق إلى براتيسلافا عاصمة سلوفاكيا قصيرًا لا يتجاوز ساعة. القطار انطلق بهدوء عبر الريف السلوفاكي حقول خضراء ممتدة، قرى صغيرة بأسقف حمراء، وتلال ناعمة ترافقنا حتى بدأت ملامح العاصمة بالظهور. ما إن وصلنا حتى شعرنا أننا أمام مدينة تجمع بين البساطة الأوروبية والعراقة التاريخية. براتيسلافا ليست مدينة ضخمة، لكنها تملك سحرًا خاصًا، فهي تعيش على ضفاف نهر الدانوب الذي يقسمها بهدوء، فيما يعلو فوقها قلعة براتيسلافا البيضاء على تلة، كأنها تحرس المدينة منذ قرون. بدأنا جولتنا مشيًا **في البلدة القديمة** (Stare Mesto)، حيث الشوارع المرصوفة بالحجارة، والمقاهي المنتشرة في الساحات الصغيرة. توقّفنا في ساحة هفن حيث يقف تمثال هانزوم البرونزي الشهير الذي يطل برأسه من فتحة صرف قديمة شخصية مرحة أحبها السياح والتقطوا بجانبها الصور. ضحك **شاكر** قائلاً» :*حتى التماثيل هنا تشارك الناس الدعابة«*. توجهنا بعد ذلك إلى مطعم محلي قريب من الساحة، حيث تناولنا طعام الغداء. كانت الأطباق تقليدية: حساء الثوم، ولحم مشوي مع البطاطس، وحلوى محلية محشوة بالجبن والعسل. قال **شاكر** وهو يتذوق الطبق» :*حتى الطعام هنا يجمع بين بساطة الفلاحين وروح النهر«*.

بعد الغداء، واصلنا جولتنا مشيًا بين الأزقة الضيقة. المباني الملونة بواجهاتها الباروكية والنهضوية بدت وكأنها مسرح مفتوح. توقفنا عند **كاتدرائية سانت مارتن** التي شهدت تتويج ملوك المجر لقرون، ثم سرنا على ضفاف الدانوب نتأمل الجسور التي تربط بين ضفتي المدينة.

مع حلول العصر، بدأنا العودة إلى محطة القطار. العاصمة بدت لنا كمدينة متواضعة، لكنها تحمل في قلبها روحًا تاريخية وحيوية أوروبية، وكأنها أرادت أن تقول» *:لستُ بحجم فيينا المجاورة، لكن لي بصمتي الخاصة«.*

عدنا إلى بشتاني ونحن نشعر أن هذه الزيارة القصيرة أضافت إلى رحلتنا لمسة حضرية جميلة، كاستراحة ثقافية وسط أسبوع من الهدوء والعلاج .

جورجيا والشمال التركي

وصلنا معًا إلى مطار تبيليسي عاصمة جورجيا على متن الطائرة نفسها، أنا بجوازي الكندي، وصديقي **فريد** بجوازه العراقي وقد استحصل مسبقًا على تأشيرة الدخول. كان يحمل معه كل ما يطلبه السفر النظامي: بطاقة حجز الفندق، تذكرة العودة، والتأمين الصحي. ورغم ذلك، أُوقف عند نقطة الدخول، وأُبقي واقفًا لأكثر من نصف ساعة بانتظار "التحقق من أوراقه." لم يكن الأمر نقصًا في الوثائق، فقد كانت أوراقه كاملة، لكن الحقيقة أن جواز السفر الذي يحمله كان كافيًا ليثير الريبة. قطعة ورق صغيرة، لكنها تختزن تاريخ بلدٍ مثقل بالحروب والعقوبات والخذلان، حتى صار أبناؤه يُعاملون في المطارات كغرباء مشكوك في نواياهم، مهما قدموا من إثباتات. وقفتُ بجانبه وأنا أحمل جوازي الكندي، أشعر بثقل المفارقة: جواز يفتح لك الأبواب بابتسامة، وآخر يجعل عبور الحدود امتحانًا للكرامة. لم يكن بيننا فرق في العلم أو المكانة أو النية، لكن كان بيننا فرق في الوثيقة التي نحملها، والبلد الذي نقف باسمه أمام الشرطي. كانت لحظة مُرّة، تختصر معنى المنفى بأكمله: أن تفقد ليس أرضك فقط، بل حقك في أن تُعامل كإنسان طبيعي في سفره.

خرج فريد أخيرًا وهو يبتسم، كعادته، متماسكًا، يرفض أن يمنح تلك اللحظات سلطةً على روحه. وخرجت معه أحمل في داخلي سؤالًا ظلّ

يرافقني: كم من العراقيين ما زالوا يقفون عند بوابات العالم نصف ساعة أو أكثر، فقط لأن جوازهم يقول إنهم من بلدٍ لم ينصف أبناءه خارج المطار، كان الفجر يتفتح على طرق واسعة ثم ينكمش في أزقة المدينة القديمة، حيث البيوت الخشبية تتدلى شرفاتها فوق الدروب كعناقيد عنبٍ عتيقة. وهناك التقيت بصديقي شاكر القادم من كندا، فاكتمل اللقاء بين ثلاثة أصدقاء جمعتهم تبيليسي بعد أن فرّقتهم المنافي.

تحت ظلال قلعة ناريكالا[17]، الحارسة الصامتة منذ القرن الرابع الميلادي، سرنا بين بيوتٍ ملوّنة تعكس تمازجًا فارسيًّا وعثمانيًّا وأوروبيًّا. في حي أبانوتوباني[18] (Abanotubani) علت رائحة الكبريت الدافئ من الحمّامات التي منحَتْ تبليسي اسمها («تبليس» بالجورجيّة = الدفء). وعلى جسر السلام الزجاجيّ، بدت المدينة وكأنّها تجرّب مرآةً حديثة تُقابل وجهها

[17] تقع القلعة على تلة مشرفة فوق نهر **كورا(Mtkvari)** ، ما يمنحها إطلالة بانورامية على تبليسي القديم .يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن الرابع الميلادي، في الحقبة التي كانت فيها تبليسي جزءًا من مملكة إيبيرية القديمة.

تعرضت لإضافات وتوسعات في فترات لاحقة، خاصة خلال الحكم العربي (القرن السابع–الثامن)، ثم في عهد الملوك الجورجيين، ولاحقًا خلال السيطرة الفارسية والعثمانية.

[18] كلمة "أبانوتوباني" تعني "حي الحمامات" باللغة الجورجية.

العتيق. وفي قلب الأحياء المرصوفة، ولجنا المسجد الوحيد[19] في تبليسي



الذي يرتاده المسلمين من السنة والشيعة سوية في وحدة إسلامية مبهجة والمسجد على تواضع حجمه، يفرض حضوره الروحي داخل فسيفساء المدينة؛ مئذنته تعانق أجراس الكنائس القريبة، والأزقة الضيقة من حوله تنضح بحكايات تعايشٍ عمره قرون. من هذا الموقع تبدأ رحلة فهمٍ أعمق لهويّة تبليسي المتسامحة، حيث يلتقي الأذان ورنين الأجراس في نغمٍ لا تجيده إلا المدن الحكيمة.

[19] يُعتبر المسجد الوحيد في تبليسي الذي يُصلي فيه المسلمون من المذهبين السني والشيعي تحت سقف واحد. داخله مقسوم بشكل غير ظاهري الجهة اليمنى عادةً للمصلين من السنة، والجهة اليسرى للشيعة، لكنهم يتقاسمون نفس الفضاء والباب. هذا التعايش يُعتبر رمزًا لوحدة المسلمين في جورجيا، ويستقطب السياح بسبب طابعه الفريد.

.

سرنا في شارع روستافيلي (Rustaveli Avenue) وهو الشريان الرئيسي لمدينة تبليسي الحديثة، ويُعد واجهتها الثقافية والسياسية في الحافلة السياحيّة مررنا بـ شارع روستافيلي، صفٌّ أنيق من المباني النيو-كلاسيكيّة: دار الأوبرا، البرلمان القديم، مسرح روستافيلي.



الجورجيّون يتجوّلون بهدوء ومعهم فنجان قهوة كورتشي يختصر دفءَ القوقاز. يحجب نهر متكفاري ضجيج المدينة، لكنّ كاتدرائيّة Sameba ذات القباب الذهبيّة تلمع على ربوة شاهقة، رُمزًا لنهضةٍ روحيّة بعد الاستقلال. في حيّ سولولاكي، ذقنا طعم جورجيا الحقيقي. تناولنا طبق الخينكالي، وهو رزمات عجين محشوّة باللحم والتوابل تُغلى وتُؤكل باليد، يبدأ أكلها بشرب مرقتها الساخنة، ثم الاستمتاع بحشوتها. وجربنا أيضًا الخاتشابوري، الخبز التقليدي المحشوّ بجبنٍ محليّ، وقد يُضاف إليه صفار البيض في نسخة "أجارولي" المميزة على شكل قارب. بعد الظهر، صعدنا بالتلفريك إلى إحدى أعلى نقاط المدينة، حيث الهواء أقل ضجيجًا والمدينة تبدو كلوحة زيتية من بعيد. هناك، وقفت شامخة أمّ الجورجيين(Kartlis Deda) ،



التمثال الضخم الذي بات رمزًا تبليسيًا لا يُخطئه زائر يقف التمثال على تلة سولولاكي (Sololaki Ridge) المطلة على المدينة القديمة ويمكن رؤيته من مختلف أنحاء تبليسي. كانت المرأة المصنوعة من الألمنيوم تطلّ على المدينة من علٍ، بيدٍ تحمل سيفًا لمن تسوّل له إيذاءها، وبالأخرى كأس نبيذ ترحّب بمن يأتيها صديقًا. في هذه الرمزية تكمن روحية الجورجيين الكرامة والضيافة، القوة والمودة في آنٍ معًا. وقفنا أمام التمثال نلتقط الصور، لكن الأهم أننا تأملنا المدينة من الأعلى؛ أسطح المنازل المتراكبة، مآذن وكنائس، نهر متكفاري يشق قلب المدينة، ومزيج لا يُترجم إلا بكلمة واحدة: تبليسي.

مدينة غوري (Gori) في ضل ستالين

لطالما كانت رحلاتي فرصة لاكتشاف الأماكن بما تحمله من جمال طبيعي، لكنها في الوقت نفسه بوابة للغوص في عمق التاريخ. لدي عادة راسخة، لا تكاد تغيب عن أي من جولاتي زيارة المعالم التاريخية التي تحمل ذاكرة الشعوب، من متاحف ومدن قديمة وبيوت شخصيات صنعت الأحداث.

فالتاريخ، برأيي، لا يُقرأ فقط في الكتب، بل يُلمس في الجدران، ويُشمّ في تفاصيل الأمكنة، ويُستشعر في صمت الأزقة. ومن هذا الدافع، قررت أثناء زيارتي القصيرة إلى العاصمة الجورجية تبليسي أن أخصص يومًا لزيارة مدينة غوري، وهي مدينة متوسطة الحجم (نحو 45 ألف نسمة) ومسقط رأس جوزيف ستالين.[20] فمهما اختلفت الآراء حول هذه الشخصية المثيرة للجدل، تبقى سيرة ستالين جزءًا محوريًا من تاريخ القرن العشرين لا يمكن تجاوزه. مدينة غوري (Gori) تحتل مكانة خاصة في تاريخ جورجيا والعالم، لأنها مسقط رأس جوزيف ستالين (1878–1953) الذي حكم الاتحاد السوفيتي بقبضة من حديد لنصف قرن تقريبًا. غادرت العاصمة الجورجية تبليسي مع رفيق سفرتي فريد وشاكر متجهين غربا بسيارة مؤجرة نحو مدينة غوري، كانت المسافة قصيرة نسبيًا، لا تتجاوز 80 كيلومترًا، لكن الرحلة بدت لي أشبه برحلة في الزمن، تعيدني إلى بدايات القرن الماضي، إلى المكان الذي انطلقت منه حكاية من أكثر الحكايات السياسية والإنسانية جدلًا.

وصلنا إلى غوري بعد قرابة ساعة ونصف من القيادة وسط طبيعة خضراء وتلال ناعمة، وكانت المدينة هادئة، بسيطة، لا توحي للوهلة الأولى أنها

---

[20] ولد ستالين في غوري عام 1878 لأسرة فقيرة؛ كان والده إسكافيًا، وأمه خادمة. هذه البيئة الشعبية الفقيرة انعكست على نظرته الصارمة للحياة.



أنجبت شخصية بحجم ستالين. سرعان ما بدأت ملامح الذاكرة التاريخية تتضح حين اقتربت من متحف ستالين، المبنى الذي شُيّد عام 1937 تخليدًا لسيرته، وأصبح واحدًا من أكبر المزارات في المدينة ويقف شامخًا وسط المدينة كأنّه لا يزال يحتفظ برهبة الماضي وأصبح واحدًا من أكبر المزارات في المدينة حتى اليوم. بدأت جولتي في المتحف من البيت الخشبي الصغير الذي وُلد فيه ستالين عام 1878 بيت متواضع مؤلف من غرفة واحدة وسقف من القرميد، محاط الآن بجناح رخامي يحميه من تقلبات الزمن. تأملت تفاصيله البسيطة وتساءلت كيف لطفل ولد في هذا المكان أن يصبح لاحقًا أحد أقوى حكام العالم. ثم انتقلت إلى مبنى المتحف الرئيسي، وهو بناء ستاليني الطراز بواجهته الضخمة وأعمدته الثقيلة. يضم المتحف صورًا ووثائق وأغراضًا شخصية لستالين، من بزاته العسكرية إلى غليونات التدخين التي كان يستخدمها، مرورًا بصور نادرة من شبابه، وخريطة لحملاته العسكرية، وأفلام دعائية تعكس صورة الزعيم كما أرادت السلطة أن تقدمه.

ما أثار اهتمامي بشكل خاص العربة الخضراء الخاصة والتي تقف في حديقة المتحف وتُعد من أكثر المعروضات لفتًا للانتباه. العربة التي استخدمها ستالين في تنقلاته خلال الحرب العالمية الثانية بدلًا من الطائرات، إذ كان يعاني من رهاب الطيران. العربة محمية بدروع فولاذية سميكة، زُوِّدت بنوافذ مضادة للرصاص وأبواب مدرعة. دخلت العربة وتأملت مقصورتها البسيطة، فتخيلت كم من القرارات المصيرية ربما اتُخذت داخلها. من الداخل، تحوي العربة تجهيزات مريحة لرحلات طويلة كغرفة نوم خاصة بستالين وصالة اجتماعات صغيرة مع مكتب وأثاث خشبي ثقيل الطراز وحمام بسيط. التصميم يعكس الجمع بين البساطة والعملية مع لمسة من الفخامة السوفيتية. زيارة غوري لم تكن مجرد رحلة سياحية، بل كانت مواجهة صامتة مع التاريخ. تاريخ يحمل في طياته الكثير من الأسئلة، عن السلطة، وعن العدالة، وعن الثمن الذي تدفعه الشعوب حين تُختزل السلطة في شخص.

خرجت من المتحف وقد ثقل رأسي بالتفكير، وسرت قليلًا في شوارع غوري الهادئة قبل أن أعود أدراجي إلى تبليسي. كنت أعلم أنني زرت مكانًا لا يمكن النظر إليه بعين واحدة؛ مكان يثير الإعجاب والخوف، ويجبرك على التأمل في معاني القوة والمصير.



هكذا انتهت أيامنا الثلاثة في جورجيا من دفء اللقاء على مقاهي تبليسي القديمة، إلى إطلالة الربوة العالية، وصولًا إلى ثقل التاريخ في غوري. لم تكن الرحلة مجرد سياحة، بل تجربة عكست معاني الهوية، والمنفى، والصداقة، والذاكرة. كانت تبيليسي مدينة جمعتنا بعد غياب، ومنحتنا فسحة للتأمل في حاضرنا وماضينا، في زمن لا يرحم.

بتومي لؤلؤة البحر الأسود

في صباح اليوم الرابع، غادرنا تبيليسي متجهين بالقطار نحو الغرب إلى بتومي، عاصمة إقليم أجدارا على ضفاف البحر الأسود. كانت الرحلة طويلة لكنها ممتعة؛ القطار يشق طريقه بين جبال خضراء وأنهار متعرجة وقرى صغيرة تبدو كأنها لوحات معلّقة على سفوح التلال. ساعات السفر مرّت بخفة ونحن نراقب المشاهد المتغيرة من خلف النوافذ، حتى اقتربنا من الساحل وبدأت رائحة البحر تلوح في الأفق. مع حلول المساء وصلنا إلى بتومي، والمدينة غارقة في أضوائها، حجزنا فندقًا لإقامة قصيرة من

ليلتين، ومنه بدأنا اكتشاف هذه المدينة التي يطلق عليها الزوار لقب "لاس فيغاس البحر الأسود." المدينة تكشف عن نفسها بسرعة ناطحات سحاب زجاجية، أبراج حديثة بأشكال هندسية جريئة، وفنادق فاخرة تلمع أضواؤها على الساحل. الأبراج المضيئة مثل البرج الأبجدي وناطحات الكورنيش تقف جنبًا إلى جنب مع بقايا مبانٍ من القرن التاسع عشر، في



تناقض معمار يروي قصة تحول سريع. في المساء، حين تُضاء الأبراج وتتراقص الألوان على واجهاتها، بدت المدينة أشبه بمشهد من مدن الترفيه العالمية ولعل هذا ما يجعلها تختلف جذريًا عن تبيليسي فالعاصمة القديمة ذات الأزقة الخشبية والحمامات الكبريتية وقلاع القرون الوسطى تبدو مدينة الذاكرة والتاريخ، بينما بتومي تُقدِّم نفسها كمدينة المستقبل والانفتاح. تبيليسي تعانقك بالحنين، أما بتومي فتغريك بالحداثة وأضوائها. وفي هذا التباين، تكمن فرادة جورجيا بلد صغير يجمع بين مدينة تحفظ ماضيه وأخرى ترسم مستقبله على شاطئ البحر الأسود.



في يومين فقط، زرنا أبرز معالم بتومي كورنيش البحر يمتد على طول الساحل بأشجاره وتماثيله وحداثة مقاهيه. ساحة أوروبا (Europe Square): قلب المدينة النابض بالهندسة الكلاسيكية والمعاصرة. التمثال المتحرك "علي ونينو" قصة حب تتحول إلى عمل فني متحرك. الحديقة النباتية حيث تختلط النباتات المتوسطية بالاستوائية على سفوح الجبال.

خرجنا أيضًا إلى ضواحي بتومي، حيث زرنا شلالًا مائيًا يتدفق من قلب الجبال. كان صوت الماء الهادر ورذاذه البارد يذكّرنا بأن الطبيعة هنا ليست بعيدة عن ضوضاء الكورنيش وأبراج النيون، بل تكملها في لوحة متناقضة: مدينة صاخبة على الشاطئ، وهدوء مطلق في أعالي الجبال. وفي المساء، جلسنا نحن الأصدقاء على مقعد خشبي على كورنيش البحر، نراقب الموج وهو يتقاطع مع أضواء الأبراج. كان النسيم البحري يخفف من رطوبة الصيف، والأصوات من حولنا تتوزع بين ضحكات العائلات، موسيقى الشارع، وضجيج المدينة التي لا تنام. في تلك اللحظة، أحسسنا أن بتومي

تمنحنا وجهًا آخر غير صخبها: وجهًا إنسانيًا هادئًا، يجعل الصداقة أكثر دفئًا والذكريات أكثر رسوخًا.

من بتومي إلى طرابزون: العبور إلى الأناضول

في صباح اليوم الثالث من إقامتنا في بتومي، وبعد أن ودّعنا شاطئ البحر الأسود، توجهنا بالسيارة نحو الحدود التركية .الطريق كان قصيرًا لكنه غني بالمشاهد: مزارع ممتدة، قُرى صغيرة متشبثة بالتلال، والبحر الأسود يرافقنا كرفيق وفيّ على يميننا.

عند المعبر الحدودي، عبرنا بسهولة، لنجد أنفسنا فجأة في أرضٍ جديدة، وإن كان البحر نفسه يواصل مده وجزره بلا انقطاع. كانت لحظة عبور تحمل أكثر من معنى؛ فمع كل رحلة برية بين بلدين، تشعر أن التاريخ والجغرافيا يتشابكان في خطوط غير مرئية، تذكّرك بأن الحدود من صنع الإنسان بينما الطبيعة لا تعترف بها. بعد العبور، واصلنا رحلتنا على الطريق الساحلي متجهين نحو طرابزون، المدينة التركية المطلة على البحر الأسود، والتي كانت عبر التاريخ بوابةً بين الشرق والغرب. وصلناها مع حلول المساء، وكان في الأفق ما يوحي أننا على موعد مع مدينة تختلف عن بتومي في ملامحها، لكنها تشترك معها في حيوية البحر ومكانته. وهناك كان في انتظارنا صديق العمر الدكتور ناصر المنصوري، الذي كان



يقضي عطلة الصيف مع عائلته. كان اللقاء مزيجًا من فرح الصداقة ودهشة السفر، حيث امتزج دفء الاستقبال الأخوي مع انطباعنا الأول عن المدينة.

طرابزون في أربعة أيام حكاية مدينة

في اليوم التالي بدأنا جولتنا برفقة الدكتور ناصر وعائلته، وكان دليلًا وصديقًا في الوقت نفسه، يعرف المدينة كأنها موطنه الثاني. بل أكثر من ٢٦ قرنًا، اختار تجار يونانيون هضبةً تُشبه المائدة "Trapizu" — باليونانية — وشقّوا على قمّتها مدينةً ستصبح عقدةً رئيسة على طريق الحرير. هكذا وُلدت طرابزون، ملتقى القوافل بين أوروبا وآسيا، وحاضنة تاريخ لا يزال ينبض في حجارتها حتّى اليوم.

أولى محطاتنا كانت دير سوميلا المعلّق على سفح جبل شاهق، يطل من علوٍّ على غابات الصنوبر والوديان الخضراء. الطريق إليه متعرج بين

الجبال، لكن الوصول كان يستحق العناء. هناك، بين جدرانه التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي، أحسسنا أننا أمام أثرٍ يختزن التاريخ والروحانية معًا. الجدران المزخرفة باللوحات الجدارية، والهدوء المهيب الذي يلف المكان، جعلا من الزيارة تجربة لا تُنسى، وكأن الزمن قد توقف هناك.

من الجبل إلى البحر، توجهنا لزيارة آيا صوفيا، الكنيسة البيزنطية التي تحولت إلى مسجد ثم إلى متحف. مبنى بسيط في حجمه، لكنه غني في زخارفه وجدارياته. عند الوقوف في ساحته، كنا نقرأ تاريخ طرابزون بوصفها محطة مرّت عليها حضارات متعددة، تركت بصماتها متجاورة في مكان واحد.

مع حلول المساء، اتجهنا إلى كورنيش البحر الأسود. نسيم البحر كان عليلًا، والمكان يعجّ بالعائلات والمتنزهين. جلسنا في أحد المقاهي المطلة على البحر، نحتسي الشاي التركي الثقيل في أكوابه الصغيرة، ونستمع إلى ضجيج الموج وهو يصطدم بالصخور. هناك شعرنا أن طرابزون ليست فقط مدينة معالم، بل مدينة حياة يومية، يعيش أهلها البحر كجزء من تفاصيلهم البسيطة.

ولم تكتمل الزيارة من دون المرور في الأسواق الشعبية. الأزقة الضيقة امتلأت بروائح التوابل والقهوة، وأكوام البندق الذي تشتهر به المنطقة،

إضافة إلى المشغولات اليدوية. كانت الأسواق نابضة بالحياة، تختصر روح المدينة بألوانها وأصواتها.

مهندسًا ومخطّطًا حضريًّا، أحمل معي إلى أي مدينة أزورها أسئلةً عن كفاءتها في خدمة سكّانها، ومرونتها في وجه الكوارث والنمو، وقدرتها على صون هويتها. في طرابزون وجدتُ إجاباتٍ تتوالد مع كل منعطف، فأصبحت رحلتي أكثر من سياحة؛ أصبحت درسًا حيًّا في كيفيّة موازنة الذاكرة بالحاضر والمستقبل.

طرابزون بدت لي مدينةً تجمع بين روح الجبل حيث يقف دير سوميلا شامخًا، وروح البحر حيث يمتد الكورنيش على مدّ البصر. فيها يتعايش التاريخ البيزنطي والعثماني مع حاضرٍ نابض بالحياة. لكن أجمل ما في رحلتنا لم يكن المعالم وحدها، بل لحظة اللقاء بصديقي حيث امتزجت متعة الاكتشاف ببهجة الرفقة. أردت أن أختبر نبض الحاضر، فذهبتُ إلى أحياء بيليتلي ويومرا وبوزتبه. شوارع واسعة، مباني متوسطة الارتفاع، ممرات مشاة ودراجات، ومراكز تجارية تتربّع بثقة. ما شدّ انتباهي هو الامتداد الطولي للمدينة بين البحر والجبال توسع يقرأ تضاريسه قبل أن يخطّط، فيحافظ على التهوية الطبيعية ولا يبتلع الساحل. الكورنيش الجديد يُعيد ربط الناس بمياههم: حدائق، مقاهٍ مفتوحة، وممشى يشرّع الزرقة للجميع لا لمستثمرٍ يضع حاجزًا خرسانيا بين المدينة وبحرها.

في المقابل، ما تزال نواة أورطه حصار التاريخية تنبض بأزقتها المتعرّجة وبيوتها العثمانية المتلاصقة، تخضع لترميمٍ يُبقي على روح الخشب والحجر ويضيف بنية تحتية تناسب القرن الحادي والعشرين. هكذا يتجسّد مبدأ المدينة المستدامة: الحفاظ على الماضي، وامتصاص حاضرٍ سريع التحوّل، والتأهب لمستقبلٍ يطرق الأبواب. طرابزون ليست مزارًا عابرًا على شاطئ البحر الأسود. إنّها مختبرٌ حضريّ يبرهن أنّ التوازن بين الذاكرة والتنمية ممكن إذا احترمنا الجغرافيا وأصغينا إلى تاريخ المكان. في أربعة أيّامٍ فقط، انتقلتُ بين معابد معلّقة، وأسواقٍ تنبض، وأحياءٍ حديثةٍ تنحت مكانًا بين جبلٍ وبحر. رأيتُ مدينةً تُجيد سرد قصّتها بلا كلمات؛ يكفي أن تلمس حجارتها، أو تتبع نداء الموج، لتفهم حكايتها. طرابزون، باختصار، ميناءٌ قديم تحوّل إلى مدينةٍ ديناميكية، تحاول معالجة تحدّيات الإدارة البيئية والنمو السكاني دون أن تتخلّى عن هويةٍ صاغتْها الحضارتان البيزنطية والعثمانية معًا. وهي تقدّم درسًا ثمينًا لكل مدينةٍ تتطلّع إلى المستقبل لا تنمو على حساب ذاكرتك، ولا تتجمّد تحت وطأة تاريخك.

من طرابزون، وبعد أربعة أيام من الجولات بين الجبل والبحر ودفء لقاء الأصدقاء، جاء وقت الوداع. غادر صديقنا **فريد** عائدًا إلى بغداد، فيما واصلت أنا ورفيق الدرب **شاكر** رحلتنا نحو محطة جديدة. كان مطار طرابزون بداية عبور آخر، عبر الجو هذه المرة، نحو قلب أوروبا الشرقية :

سراييفو، عاصمة البوسنة والهرسك. كانت لحظة الانتقال تحمل رمزية خاصة من شاطئ البحر الأسود الذي احتضننا بأمواجه وصخبه، إلى وديان البلقان التي تحمل ذاكرة الحرب والسلام معًا. كانت بداية فصل جديد من الرحلة، فصل سيمتد عبر مدن البوسنة والجبل الأسود وكوسوفو وصربيا وشمال مقدونيا وألبانيا، كأننا نعبر تاريخًا وجغرافيا متشابكين في لوحة واحدة.

البلقان... مدنٌ لا تنام على ماضيها

هبطت الطائرة في إلى سراييفو مع حلول المساء، بعد رحلة جوية حملتنا من طرابزون إلى قلب البلقان. من نافذة السيارة التي أقلّتنا من المطار، بدت المدينة محاطة بالجبال الخضراء، ومبانيها تحمل آثار الحروب وجراحها، لكنها في الوقت نفسه تضج بالحياة. كان الفندق الذي اخترناه قريبًا من المدينة القديمة، تلك البقعة التي تختصر روح سراييفو وتاريخها المتقاطع بين الشرق والغرب. بعد استراحة قصيرة، خرجنا نتجول في شوارعها العتيقة. ومع أول خطوة شعرنا أننا دخلنا مدينة ذات طابع مغاير تمامًا؛ مدينة تتنفس برائحة القهوة الشرقية، وتستعيد ملامح عثمانية وأوروبية في آنٍ واحد. الأزقة الضيقة مرصوفة بالحجارة، تصطف على جانبيها محلات النحاسيات والحرف اليدوية، والمقاهي الصغيرة التي تعبق برائحة القهوة البوسنية الثقيلة. الأضواء الخافتة تنعكس على

الواجهات العثمانية القديمة، فيما يتردد صدى أصوات المارة بين الجدران الحجرية. كان المشهد الأول في سراييفو خليطًا فريدًا: شرق يذكرنا بمدننا العربية والإسلامية، وغرب يطل من نوافذ المباني النمساوية–المجرية التي تحيط بالساحة. أحسسنا منذ اللحظة الأولى أننا دخلنا مدينة لا تشبه سواها؛ مدينة تحمل جراح الماضي على جدرانها، لكنها في الوقت نفسه تنبض بالحياة والضوء. ذلك المساء الأول لم يكن مجرد نزهة، بل إعلانًا فعليًا عن بدء رحلة البلقان، التي ستأخذنا عبر مدن وبلدان، تحمل كل واحدة منها ذاكرة وملامح خاصة. في صباح اليوم التالي بدأنا جولتنا بزيارة المعرض التذكاري في سراييفو، المعرض الذي يروي بصدق مأساة الحرب البوسنية وما حملته من جراح عميقة. بين جدرانه عُرضت صور فوتوغرافية مؤثرة، ووثائق وشهادات حيّة عن حصار سراييفو والمجازر التي تعرّض لها أهلها. كل صورة كانت تحمل قصة، وكل شهادة صوتية تعيدك إلى التسعينيات حيث المدينة كانت تعيش أطول حصار في التاريخ الحديث. تأملنا الوجوه في الصور: أطفال فقدوا براءتهم، نساء يحملن ملامح الصبر، ورجال تحدّوا الموت اليومي. المكان كان صامتًا، لكن صمته كان أبلغ من أي خطاب؛ فقد جعلنا نشعر بثقل المأساة وعمق الجرح الذي لم يندمل بعد. خرجنا من المعرض وقد خيم علينا شعور مزدوج الحزن لما مرّ به أهل سراييفو، والإعجاب بقدرتهم على النهوض من جديد وبناء حياة وسط الأنقاض. كان المعرض بمثابة مفتاح لفهم المدينة، إذ لا

يمكن أن ترى شوارعها ومبانيها من دون أن تتذكر أنها كانت يومًا ميدانًا للقنص والقصف.

في اليوم الثاني بدأنا صباحنا بزيارة المعرض التذكاري في سراييفو، الذي يروي مأساة الحرب البوسنية في التسعينيات. بين جدرانه وجدنا صورًا فوتوغرافية مؤثرة، ووثائق حيّة عن حصار المدينة والمجازر التي أصابتها. كان المكان صامتًا، لكنه مشبع بالوجع الإنساني. كل صورة حملت قصة، وكل شهادة أعادتنا إلى زمنٍ لم يكن بعيدًا. خرجنا من هناك ونحن نحمل في قلوبنا ثقلًا جديدًا لفهم هذه المدينة؛ فلا يمكن للزائر أن يقرأ شوارعها من دون أن يتذكر أنها كانت يومًا ساحة حرب. ومن ثِقَل الذاكرة انتقلنا إلى البازار العثماني (باشجارشيا)، قلب المدينة القديمة. هناك امتلأت الأزقة الضيقة بأصوات الباعة وروائح القهوة البوسنية، والمشغولات النحاسية التي تلمع تحت الشمس. بدا البازار كأنه يوازن الحاضر مع الماضي: حياة نابضة، تذكّر الزائر أن سراييفو قادرة على النهوض مهما كان الجرح غائرًا. بعدها سرنا نحو جسر لاتين (Latin Bridge)، حيث يقف الموقع الذي شهد اغتيال الأرشيدوق فرانتس فرديناند ولي عهد النمسا عام 1914، الحدث الذي أشعل شرارة الحرب العالمية الأولى .وقفنا عند اللوحة التذكارية نستعيد المشهد: شاب بوسني يُطلق الرصاص في شارع هادئ، فينفتح جرح هائل يبتلع قارة بأكملها. كان المكان بسيطًا في ظاهره، لكنه عميق الرمزية؛ هنا تذكرتُ كيف يمكن

لطلقة واحدة أن تغيّر مجرى التاريخ.ذلك اليوم جمع بين ثلاث طبقات من الذاكرة جراح الحرب الحديثة، حياة السوق اليومية، ودرس التاريخ العالمي. سراييفو بدت لنا مدينة لا تعيش في حاضرها وحده، بل تحمل على كتفيها أعباء قرن كامل من الصراعات، ومع ذلك ما زالت تنبض بالحياة. مع اقتراب المساء، جلسنا في أحد المطاعم التقليدية في



المدينة القديمة، حيث تذوقنا وجبة شهية من الكباب البوسني، ذلك الطبق الذي يختلف في نكهته عن الكباب الشرقي المعتاد، إذ يُقدّم مع خبز طازج وصلصة خاصة تمنحه طابعًا محليًا مميزًا. وبعد العشاء، اخترنا أن نختم يومنا بالجلوس في مقهى قديم على الطراز العثماني. جلسنا على مقاعد خشبية بسيطة، وطلبنا الشاي في الاستكانات الصغيرة، كأننا عدنا إلى مقاهي بغداد أو البازارات الشرقية التي ألفناها. كان المشهد مزيجًا من الألفة والاختلاف: لغة أخرى تُسمع من حولنا، لكن الطقوس نفسها تعيد إلينا شعور الدفء والانتماء. في تلك اللحظة، شعرنا أن سراييفو ليست فقط مدينة للتأمل في الذاكرة، بل أيضًا مكان يُشعرك بالقرب والراحة،

كأنك بين أهلك. كان الشاي في الاستكانات الصغيرة أكثر من مشروب؛ كان جسرًا غير مرئي بين ماضٍ نحمله ومدينة جديدة تحتضننا. في صباح اليوم الثالث، اتجهنا إلى محطة **التلفريك(Trebević Cable Car)** ، إحدى أبرز معالم سراييفو الحديثة التي أعيد بناؤها بعد أن دمّرها الحصار. جلسنا في المقصورات الزجاجية وهي ترتفع ببطء فوق أسطح البيوت الحمراء والطرقات الضيقة، بينما المدينة تنكشف تحتنا طبقةً بعد أخرى. كان مشهدًا يأخذ الأنفاس: سراييفو محاطة بالجبال من كل جانب، تتنفس ببطء في حضن الطبيعة. عند الوصول إلى قمة **جبل تريبفيتش**، استقبلنا هواء عليل يختلف عن رطوبة المدينة. هناك بدت سراييفو صغيرة من علٍ، كأنها وادٍ يحتضن مزيجًا من التاريخ والجراح والحياة. سرنا في الممرات الجبلية، ولاحظنا بقايا مضمار الألعاب الأولمبية الشتوية 1984، الذي صار لاحقًا أحد رموز الحرب بعد أن تحول إلى مواقع قصف. كان المشهد يلخص التناقض الذي تعيشه سراييفو: مدينة جمعت بين الفرح الأولمبي والدمار العسكري في مكان واحد. جلسنا على أحد المقاعد المطلة على الوادي، نحتسي القهوة البوسنية الثقيلة، ونتأمل المدينة التي عشنا فيها ثلاثة أيام غنية بالتجارب: من جراح الحرب في المعرض التذكاري، إلى صخب البازار، إلى درس التاريخ عند جسر لاتين، وها نحن الآن نراها كلوحة كاملة من أعلى.

ذاكرة التسعينيات: البلقان تحت النار

لا يمكن لمن يزور سراييفو أن يكتفي بالمشاهدة من دون أن يستحضر مأساة التسعينيات .فهذه المدينة التي بدت لنا اليوم مليئة بالحياة، عاشت أطول حصار في التاريخ الحديث (1992–1995)، استمر قرابة أربع سنوات متواصلة. خلال الحصار، قُطعت عنها الكهرباء والماء والدواء، وتعرضت للقصف اليومي من الجبال المحيطة. أكثر من عشرة آلاف مدني فقدوا حياتهم، بينهم آلاف الأطفال، فيما أصيب عشرات الآلاف بجراح جسدية ونفسية لا تندمل. لم تكن سراييفو وحدها، فحروب البلقان مزقت يوغسلافيا السابقة كلها: من البوسنة والهرسك إلى كرواتيا وكوسوفو، حيث تفجرت الصراعات على الهوية والقومية والدين. المجازر الجماعية، وأبرزها مجزرة سربرنيتسا 1995، تركت وصمة عميقة في ضمير العالم، وكشفت عجز المجتمع الدولي عن حماية المدنيين في قلب أوروبا. حين سرنا في نفق سراييفو، شعرت أن هذه الأرض لا تزال تتنفس جراحها. صحيح أن المدينة أعادت بناء نفسها، لكن آثار الرصاص ما زالت مرسومة على بعض الجدران، والمقابر البيضاء التي تنتشر على التلال المحيطة تذكّر كل زائر بما حصل هنا قبل ثلاثة عقود فقط.

إن زيارة سراييفو ليست مجرد رحلة سياحية، بل درس عميق عن هشاشة السلام وعن قدرة الإنسان في الوقت نفسه على الصمود والنجاة. وهكذا، كان لا بد لنا ونحن نغادر المدينة أن نحمل في قلوبنا جزءًا من ذاكرتها، كأمانة وكتحذير من تكرار المأساة في أي مكان آخر. بعد ثلاثة أيام في

سراييفو، أدركنا أن هذه المدينة ليست مجرد محطة سياحية، بل مدرسة في التاريخ والذاكرة. من المعرض والنفق، إلى البازار والجسر، إلى الجبال والمقاهي، جمعت سراييفو بين الألم والفرح، بين الحاضر والماضي، وبين الشرق والغرب هنا، في سراييفو، بدأت فعليًا رحلة البلقان، الرحلة التي سترافقنا فيها المدن كما ترافقنا الذاكرة، بين تاريخ أليم وحاضر يسعى للنهوض من جديد.



من سراييفو إلى الجبل الأسود

بعد ثلاثة أيام في سراييفو، محمّلين بذاكرة الحرب ودفء اللقاء مع الأصدقاء، حان وقت متابعة الرحلة. استأجرنا سيارة دفع رباعي وغادرنا البوسنة عبر الطرق الجبلية المتعرجة، متجهين نحو دولة الجبل الأسود (مونتينيجرو). كان الطريق نفسه فصلًا آخر من الرحلة؛ عبر الطريق المار بمنطقة فوكا(Foca) وديان عميقة تتخللها أنهار صافية، وجبال شامخة يكسوها الخضار. كل منعطف كان يكشف عن مشهد جديد، كأن الطبيعة في البلقان تصرّ على أن تروي قصتها الخاصة، لا تقل جمالًا عن المدن التي مررنا بها. عند اقترابنا من الحدود، بدت الطريق أكثر هدوءًا، والجبال أكثر

هيبة. لحظة العبور حملت شعورًا مألوفًا أن هذه المنطقة الصغيرة من العالم، الممزقة بالحروب والاختلافات، هي في الحقيقة فضاء واحد، لا تفصله سوى لافتة حدودية وعبور جواز سفر. دخلنا الجبل الأسود ونحن نتطلع إلى محطتنا التالية مدن ساحلية صغيرة على البحر الأدرياتيكي، حيث يلتقي التاريخ العثماني والبيزنطي وتتحول الطبيعة الجبلية إلى شواطئ خلابة.

كانت محطتنا الأولى في الجبل الأسود مدينة نيكشيتش، حيث قضينا ليلتنا الأولى بعد ساعات طويلة من القيادة عبر الطرق الجبلية التي تفصل البوسنة عن مونتينيجرو. بدت المدينة هادئة وبسيطة، لا تحمل صخب المدن ولا بريق المدن الساحلية، لكنها منحتنا شعورًا بالراحة والسكينة بعد عناء السفر. شوارعها الواسعة والمباني ذات الطابع اليوغسلافي القديم كشفت عن ماضٍ صناعي وتجاري، فيما كان المساء هادئًا إلى حدّ أن خطواتنا في الشوارع بدت كأنها تملأ المكان. جلسنا في مطعم محلي صغير، تذوقنا فيه أطباقًا بسيطة من المطبخ المونتينيغري، ومعها شعرنا أننا بدأنا نلج تدريجيًا روح هذا البلد الجديد. كانت ليلة نيكشيتش بمثابة جسر بين عالمين وداع لسراييفو وذاكرتها المثقلة، واستعداد لمدن البحر الأدرياتيكي التي كنا نتشوق لزيارتها. في تلك الليلة القصيرة أدركنا أن حتى المدن العابرة – مهما بدت عادية – تحمل قيمتها الخاصة، فهي تمنح المسافر فسحة للتأمل والراحة قبل أن يستأنف رحلته نحو محطات أكثر

إشراقًا .في صباح اليوم التالي غادرنا نيكشيتش متجهين بالسيارة نحو الساحل الأدرياتيكي. نحو كوتور، التي بدت في مخيلتنا قبل أن نصلها ميناءً محاطًا بالجبال كقصة من القرون الوسطى. الطريق كان مدهشًا جبال شاهقة تتخللها وديان ضيقة، وأنهار تجري بين الصخور كأنها تسابقنا نحو البحر. كل منعطف كان يفتح لنا مشهدًا جديدًا، حتى بدأ الأفق يتسع، وظهرت زرقة الأدرياتيكي تتلألأ بين قمم الجبال. دخلنا كوتور عند الظهيرة، فإذا بها مدينة أشبه بقلعة طبيعية، تحيط بها الجبال من كل جانب، ويعانقها خليج عميق يتوغل في اليابسة كأنه بحيرة محصورة. أسوارها الحجرية العالية، وأبراج المراقبة التي تعلوها، منحتها مظهر مدينة من القرون الوسطى لم يغادرها الزمن بعد. في المدينة القديمة تجوّلنا بين الأزقة المرصوفة بالحجر، والساحات الصغيرة التي تعج بالمقاهي والسياح، والكنائس ذات الطابع الروماني–البيزنطي. كان المكان يحمل روح البندقية التي حكمت هذه السواحل قرونًا طويلة، ممزوجة بملامح عثمانية وشرقية خفيفة. جلسنا في إحدى الساحات نتأمل المشهد خليج كوتور الهادئ تحيطه سفن الرحلات البحرية، وخلفه جبال شامخة كأنها تحرس المدينة. هناك أحسسنا أن كوتور ليست مجرد محطة سياحية، بل صورة مكثفة لما يعنيه أن تعيش بين البحر والجبل، بين الفتح والدفاع، بين الانفتاح والانغلاق.

غادرنا كوتور مع إشراقة صباح هادئ، كنتُ إلى جانب رفيقي الرحلة شاكر وإحسان. كان البحر لا يزال يهمس في آذاننا بأصداء أمواجه العميقة، فيما بدت أسوار كوتور وكأنها تودّعنا بصمتها الأبدي. على الطريق الساحلي المتعرج، أخذنا نسير ببطء، كأننا لا نريد أن نفلت من سحر المكان سريعًا. كل التفاتة إلى الخلف كانت تكشف عن صورة جديدة: الجبال تعانق الخليج، والمياه الزرقاء تعكس ضوء الشمس الأولى. شاكر كان يشير إلى القرى الصغيرة المعلقة على المنحدرات، بينما إحسان لا يملّ من التقاط الصور، وكأنه يريد أن يحبس الزمن داخل عدسته. أما أنا فكنتُ أتأمل الطريق، وأفكر كيف أن هذه المسافة القصيرة بين كوتور وبودفا (Budva) تختصر عالمًا كاملًا من الجمال. بيوت حجرية بقرميدها الأحمر، قوارب صغيرة مربوطة عند الأرصفة الضيقة، أشجار زيتون وصنوبر تعبق رائحتها في الهواء... كلها منحتنا إحساسًا بأننا نعبر مشهدًا مرسومًا بريشة فنان. لم تكن الرحلة طويلة—ثلاثون دقيقة أو تزيد قليلًا—لكنها منحتنا دهشة سفرٍ أطول بكثير. وحين اقتربنا من بودفا، بدا البحر أكثر انفتاحًا، وقد انكشفت أمامنا الخلجان الرملية التي تنتشر فيها المنتجعات الحديثة. هناك، لمحنا من بعيد جزيرة، متلألئة على صفحة الماء كجوهرة معلّقة بين السماء والبحر. التفتُّ إلى شاكر وإحسان وقلت مبتسمًا: "هذه الطريق لم تكن مجرد انتقال من مدينة إلى أخرى، بل كانت رحلة في القلب، رحلة ستبقى معنا كما تبقى الذكريات الأولى".وصلنا إلى بودفا مع غروب

الشمس، والبحر يلمع بلون ذهبي يعانق زرقة الأفق. قضينا ليلتنا هناك في فندق مطل على البحر، مباشرة أمام الكورنيش، حيث كان هدير الموج يصل إلى شرفاتنا وكأنه أنشودة ليلية خاصة بنا. جلست مع شاكر وإحسان نتأمل المشهد، ونتبادل أحاديث السفر التي يلونها ضوء المساء ورائحة الملح. في العشاء اخترنا أن نتذوق خيرات البحر، فكان السمك الطازج، المشوي على الطريقة الأدرياتيكي، وجبة لا تُنسى. نكهته البسيطة والصافية جعلتنا ندرك أن البحر لم يمنحنا مناظره فقط، بل منحنا أيضًا طعمًا يختزن جوهر المكان.

وفي صباح اليوم التالي تجوّلنا في المدينة القديمة لبودفا، تلك المتاهة من الأزقة الضيقة المرصوفة بالحجر، حيث البيوت القديمة متلاصقة وكأنها تحتمي ببعضها من تقلبات الزمن. كانت الجدران تحمل عبق العصور بينما الساحات الصغيرة تنبض بالحياة من مقاهٍ وأسواقٍ وحكاياتٍ متوارثة. كانت إقامتنا قصيرة—ليلة واحدة فقط—لكنها تركت أثرًا عميقًا في الذاكرة. فمن كوتور إلى بودفا، ومن الطريق الساحلي المتعرج إلى المدينة القديمة، كانت الرحلة كلها سلسلة من الصور الحيّة التي جمعت البحر والجبل والرفقة الطيبة.

في صباح اليوم التالي، غادرنا **بودفا** (Budva) متجهين شرقًا عبر الطرق الجبلية. وبعد مسافة قصيرة توقفنا في **سيتينيي**(Cetinje) ، العاصمة

التاريخية لمونتينيجرو ومركزها الثقافي القديم. بدت المدينة هادئة على نحو خاص، وكأنها ما تزال تعيش على إيقاع القرون الماضية. شوارعها الواسعة محاطة بمبانٍ قديمة ذات طراز كلاسيكي أوروبي، قصور صغيرة كانت يومًا مقارّ للبعثات الدبلوماسية في القرن التاسع عشر، حين كانت سيتينيي قلب البلاد السياسي قبل انتقال العاصمة إلى بودغوريتسا. (Podgorica) تجولنا في الساحة الرئيسية، حيث يقع قصر الملك نيكولا الذي حُوّل اليوم إلى متحف يعرض تاريخ العائلة الملكية، وألقينا نظرة على الأديرة الأرثوذكسية التي ما زالت تحتفظ بروحها الدينية العريقة. الأجواء هنا كانت مختلفة عن صخب بودفا وبريقها الساحلي: مدينة صغيرة، ساكنة، لكنها مشبعة بالرمزية التاريخية. جلسنا لبعض الوقت في مقهى شعبي، نحتسي القهوة ونتأمل الهدوء الذي يلف المكان. شعرنا أن سيتينيي لم تعد مركز الحكم والسياسة، لكنها لا تزال تحمل روح الجبل الأسود العميقة، حيث التاريخ والذاكرة أهم من الصخب والحياة العصرية.

كان التوقف في سيتينيي أشبه بانتقال من عالم البحر والاحتفال في بودفا إلى عالم الجبال والذاكرة في العاصمة القديمة .محطة قصيرة، لكنها تركت أثرها، لتكمل صورة مونتينيجرو التي تجمع بين البحر والتاريخ والجبل في لوحة واحدة.

بعد توقفنا القصير في **سيتينيي**، واصلنا الطريق نحو بودغوريتسا: (Podgorica) العاصمة الحديثة للجبل الأسود. على عكس المدن الساحلية التي تركناها خلفنا، بدت بودغوريتسا مدينة عصرية وهادئة، مبانيها الحديثة وشوارعها الواسعة تعكس إعادة البناء التي شهدتها بعد الحرب العالمية الثانية، حين دُمّرت أجزاء كبيرة منها بالقصف.

قضينا ليلتنا هناك، وخرجنا في نزهة مسائية قصيرة وسط المدينة. لم نجد فيها طابعًا تاريخيًا عميقًا كما في كوتور أو سيتينيي، لكنها بدت لنا مدينة عملية، تعيش على إيقاع مختلف: مقاهٍ حديثة، مطاعم شبابية، وجسور مضاءة تعبر نهر موراكا الذي يشق المدينة. كانت بودغوريتسا محطة هادئة قبل الانتقال إلى ألبانيا. مدينة لا تبهر السائح كثيرًا بمعالمها، لكنها تمنحك فرصة للتوقف والراحة، كأنها صفحة بيضاء بين فصول مفعمة بالحركة.

العبور إلى ألبانيا

في صباح اليوم التالي غادرنا بودغوريتسا متجهين إلى الحدود الألبانية. عبرنا الطريق المتعرج بين الجبال حتى دخلنا مدينة شكودرا (Shkodër) ، إحدى أقدم مدن ألبانيا وأكثرها رمزية. توقفنا أولًا لتناول وجبة غداء في مطعم محلي، أطباقه جمعت بين الطابع المتوسطي والبلقاني. بعد ذلك تجولنا في المدينة القديمة، حيث السوق الشعبي بأزقته الضيقة: باعة

يعرضون منتجاتهم المحلية، مشغولات يدوية، خضار وفواكه، وروائح التوابل تملأ المكان. كانت شكودرا مختلفة عن بودغوريتسا: أكثر صخبًا، أكثر قربًا من روح الشرق، وفي الوقت نفسه تحمل ملامح عثمانية واضحة ممزوجة بأثر أوروبي. كانت محطة عابرة، لكنها تركت أثرًا باعتبارها أول مدينة ألبانية تستقبلنا، وتفتح لنا باب بلد جديد بملامح وثقافة مختلفة. بعد توقفنا في شكودرا وتجوالنا في سوقها الشعبي، واصلنا الطريق جنوبًا نحو **تيرانا**، العاصمة الألبانية. الطريق كان يزداد اتساعًا كلما اقتربنا من العاصمة، والجبال التي رافقتنا منذ مغادرتنا مونتينيجرو بدأت تتراجع أمام مشهد مدينة آخذة في التمدد. دخلنا تيرانا بعد الضهر فإذا بها مدينة مختلفة عن كل ما رأيناه من قبل في البلقان شوارع مزدحمة، حركة مرور لا تهدأ، أضواء ملونة على واجهات المباني، وحياة صاخبة توحي بأن المدينة لا تعرف السكون.

في صباح اليوم التالي، بدأنا جولتنا **من ساحة إسكندر بك** (Skanderbeg Square)، القلب التاريخي والسياسي للعاصمة. هناك يقف تمثال الفارس القومي **إسكندر بك** ممتطى حصانه، رمزًا للمقاومة الألبانية ضد العثمانيين في القرن الخامس عشر. حول الساحة تنتصب مبانٍ ضخمة تعود إلى الحقبة الشيوعية، مثل المتحف الوطني بواجهته المزينة بلوحة فسيفسائية تُجسد تاريخ الشعب الألباني. على مقربة من الساحة زرنا مسجد أثيم باي، أحد الشواهد العثمانية القليلة الباقية في المدينة،

بزخارفه الداخلية الدقيقة ورسوماته النباتية. ثم مررنا على ما يُعرف بـ هرم تيرانا، المبنى المثير للجدل الذي كان في الأصل نصبًا تذكاريًا لزعيم ألبانيا الشيوعي أنور خوجة، وتحول بعد سقوط النظام إلى مركز معارض ثم إلى أطلال رمزية لتاريخ البلاد القريب. مباني تيرانا خصوصًا السكنية منها، ملوّنة بألوان زاهية الأحمر، الأصفر، الأزرق، في محاولة لتجاوز رمادية الماضي الشيوعي. المدينة بدت وكأنها تكتب فصلًا جديدًا لنفسها، مفعمًا بالحياة والانفتاح، حيث المقاهي العصرية والحدائق العامة والأسواق الحديثة تجذب الشباب والعائلات على حد سواء.

بعد أن جُلنا في تيرانا، بين ساحتها المركزية ومساجدها القديمة وواجهاتها الملوّنة، كان مسك الختام زيارتنا إلى المخبأ النووي الذي تحوّل إلى متحف مفتوح. هناك، في الممرات الإسمنتية والغرف المحصنة، رأينا وجهًا آخر لألبانيا: بلد عاش عقودًا تحت هاجس الحرب والعزلة، ثم خرج إلى النور محوّلًا إرث الخوف إلى معلم سياحي وذاكرة مفتوحة للأجيال. من داخل المخبأ، تساءلنا كم من الموارد والطاقات أُهدرت في بناء هذه الحصون، بدل أن تُوجّه لبناء حياة أفضل للناس؟ ومع ذلك، فإن تحويل هذا الإرث المظلم إلى فضاء للزيارة والتأمل جعل التجربة غنية؛ إذ لمسنا كيف يمكن لشعب أن يتعامل مع ماضيه لا بإنكاره، بل بتحويله إلى ذاكرة ومعلم سياحي. كانت التجربة بالنسبة لنا أكثر من زيارة سياحية كانت نافذة لفهم عقلية مرحلة كاملة، وكيف يمكن لشعب أن يتجاوزها بالانفتاح

والاعتراف بالماضي. في تلك اللحظة أدركنا أن ألبانيا، رغم كل ما مرّت به، تعيد كتابة نفسها بهوية جديدة، مدينة نحو أوروبا ومتصالحة مع تاريخها. قضينا ليلتنا في تيرانا ونحن ندرك أن هذه المدينة تعكس تاريخ ألبانيا المتقلب من العثمانيين، إلى الشيوعية المغلقة، إلى الحاضر الذي يسعى إلى أوروبا والانفتاح. كانت العاصمة بالنسبة لنا فسحة للتأمل في كيفية قدرة الشعوب على تجاوز الماضي وصنع هوية جديدة لأنفسها، دون أن تنسى رموزها التاريخية

. غادرنا تيرانا ونحن نحمل انطباعًا عميقًا: أن المدن ليست فقط مبانٍ وأسواقًا، بل أيضًا ذاكرة سياسية ونفسية، تروي قصص الشعوب كما ترويها الجدران والشوارع.

بعد ليالينا في تيرانا، ووداعنا شوارعها المزدحمة وأسواقها الصاخبة، انطلقنا بالسيارة شمالًا نحو مقدونيا الشمالية .الطريق كان ممتعًا، يعبر وديانًا خضراء وجبالًا متشابكة، ومع كل منعطف كنا نقترب من الحدود حيث لوحة صغيرة أعلنت دخولنا إلى بلد جديد في قلب البلقان. عند المعبر، كانت الإجراءات بسيطة، لكن شعور الانتقال ظل حاضرًا كأننا نطوي فصلًا ونفتح آخر، في رحلة تتوالى فيها المدن مثل محطات قطار طويل. خلفنا بقيت ألبانيا بذاكرتها الثقيلة بين الملاجئ النووية وأسواق

شكودرا، وأمامنا كانت تنتظرنا **أوخريد**، المدينة التي توصف بأنها لؤلؤة مقدونيا.

وصلنا إلى أوخريد (Ohrid) مع حلول المساء، حيث انعكست أنوار البيوت على مياه بحيرتها الشهيرة. كانت البحيرة واسعة هادئة، يحيطها خليط من الجبال والقرى الصغيرة، وتبدو كأنها مرآة طبيعية تعكس السماء والمدينة معًا. في المدينة القديمة، صعدنا أزقتها الضيقة المرصوفة بالحجر، مرورًا بكنائس بيزنطية صغيرة ما زالت قائمة منذ القرون الوسطى، وأسوار تاريخية تطل على البحيرة. الأجواء بدت مختلفة عن كل ما مررنا به: هدوء روحاني عميق، كأن المدينة اختارت أن تعيش على إيقاع الماء والذاكرة. في تلك الليلة، جلسنا على مطعم مطل على البحيرة، نتناول عشاءً محليًا من السمك الطازج، فيما النسيم القادم من الماء يملأ الأجواء. شعرنا أن أوخريد لا تُقرأ كمدينة عابرة، بل كفسحة صفاء وسط سلسلة المدن التي مررنا بها.

بعد ليلة هادئة على ضفاف بحيرة أوخريد، انطلقنا بالسيارة نحو سكوبيه، Skopjeعاصمة مقدونيا الشمالية. الطريق كان يتعرج بين جبال البلقان، ويمر عبر وديان وقرى صغيرة، حتى اتسع المشهد شيئًا فشيئًا وبدا لنا أننا نقترب من مدينة كبرى. دخلنا سكوبيه في وقت الظهيرة، فإذا بها مدينة مزدوجة الملامح: من جهة المدينة القديمة ذات الأسواق العثمانية والجسر

الحجري العابر لنهر فاردار Vardar riverومن جهة أخرى شوارع حديثة تملؤها المباني الحكومية والميادين المزدحمة بالتماثيل. بدأنا جولتنا من **الجسر الحجري**، الذي يعود إلى العهد العثماني، ويُعدّ القلب الرمزي للمدينة. من هناك سرنا إلى البازار القديم(Old Bazaar) ، وهو حي تاريخي ضجّ بالحياة محلات النحاسيات، المساجد ذات المآذن الرفيعة، الخانات القديمة، والمقاهي التي تعبق برائحة القهوة الشرقية. كان المكان يذكّرنا بروح بغداد وإسطنبول، وكأن المدينة تربط الشرق بالغرب بخيط غير مرئي. بعدها عبرنا إلى الضفة الأخرى حيث **ساحة مقدونيا**، أكبر ميادين المدينة. في وسطها ينتصب تمثال ضخم للإسكندر الأكبر ممتطى جواده، فيما تحيط بالمكان عشرات التماثيل الأخرى لشخصيات تاريخية، أقيمت في السنوات الأخيرة ضمن مشروع "سكوبيه 2014" الذي غيّر ملامح العاصمة. التماثيل الكثيرة، مع المباني ذات الطراز الكلاسيكي الحديث، أعطت انطباعًا بالزخم والامتلاء، حتى أن البعض وصف سكوبيا بأنها مدينة تحولت إلى متحف مفتوح للتماثيل. في المساء عدنا إلى البازار القديم حيث جلسنا في مطعم تقليدي يقدم أطباقًا محلية من اللحوم المشوية والخبز الطازج. هناك أدركنا أن سكوبيا تعيش بين عالمين: عالم عثماني شرقي يحتفظ بروحه في الأسواق والجوامع، وعالم أوروبي حديث يحاول رسم هوية جديدة عبر الساحات والمشاريع العمرانية الضخمة. سكوبيا بدت لنا مدينة التناقضات، لكنها في الوقت نفسه مدينة

التعايش. جسرها الحجري لم يكن مجرد معبر فوق نهر فاردار، بل رمزًا لجسر أكبر بين هويتين وثقافتين. وفي ذلك التلاقي، شعرنا أننا أمام عاصمة تعكس جوهر البلقان: فسيفساء من الشعوب والتاريخ والرموز.

بعد أن قضينا ليلة في **سكوبيه**، العاصمة التي تجمع بين أسواقها العثمانية وساحاتها المزدحمة بالتماثيل، استيقظنا صباحًا استعدادًا للرحيل. كانت وجهتنا التالية **كوسوفو**، ذلك الاسم الذي ارتبط في أذهان العالم بالصراع والحروب في أواخر التسعينيات، لكنه اليوم يسعى لأن يفتح صفحة جديدة.

الطريق من سكوبيه إلى الحدود لم يكن طويلاً، لكنه كان محمّلًا بالرمزية. مع كل كيلومتر كنا نقترب من بلد عاش تجربة قاسية من النزاع، ثم أعلن استقلاله حديثًا ليبدأ مسارًا صعبًا نحو بناء دولة جديدة. عند المعبر الحدودي، بدت الإجراءات بسيطة، لكن شعور الدخول إلى كوسوفو كان مختلفًا، كأننا ندخل فصلًا آخر من كتاب البلقان.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى **بريشتينا (Pristina)**، عاصمة كوسوفو. المدينة لم تكن تحمل الطابع العريق لمدن مثل سراييفو أو أوخريد، لكنها عكست حيوية مجتمع شاب يحاول أن يصوغ هويته. شوارعها واسعة نسبيًا، مبانيها حديثة، والجداريات المنتشرة على الجدران تروي قصص المقاومة والحلم بالاستقلال. أحد أبرز ما شاهدناه كان **تمثال بيل كلينتون**

في أحد ميادين العاصمة، شاهدًا على دور الولايات المتحدة في حرب كوسوفو، وإلى جواره شارع يحمل اسمه. بدا لنا المشهد غريبًا ومألوفًا في آن واحد: بلد صغير يعبّر عن امتنانه العلني لدور خارجي في ولادته السياسية.

في بريشتينا، كان الماضي حاضرًا بقوة، لكن الحاضر أيضًا لا يتوقف عن الحركة. المقاهي مليئة بالشباب، الجامعات تفتح أبوابها لجيل جديد، والأسواق الشعبية تنبض بحياة عادية رغم كل ما مرّ بالبلاد. جلسنا في أحد المقاهي وسط العاصمة، واحتسينا القهوة الكوسوفية الثقيلة، بينما كنا نستمع إلى موسيقى محلية يختلط فيها الطابع الشرقي بالغربي. أحسسنا أن كوسوفو، رغم جراحها القريبة، تمتلك روحًا قوية، تبحث عن مكان لها بين دول البلقان وأوروبا. تجولنا بعدها في وسط المدينة حيث كاتدرائية الأم تيريزا الحديثة، التي تحمل اسمها وتذكّر العالم بجذورها الألبانية الكوسوفية. هناك شعرنا أن بريشتينا ليست فقط عاصمة سياسية جديدة، بل أيضًا ساحة لإعادة صياغة الهوية عبر رموزها التاريخية والروحية. وفي المساء، جلسنا في أحد المقاهي المكتظة بالشباب، نحتسي القهوة الكوسوفية الثقيلة. كانت الأصوات والضحكات من حولنا تعكس أن المدينة، رغم كل جراحها القريبة، تنبض بروح جديدة تبحث عن مستقبل مختلف.

حين تجولنا في **بريشتينا**، لاحظنا سريعًا أنها مدينة لا تزال في طور البناء والتشكّل. من الناحية الحضرية بدت خليطًا متناقضًا بين القديم والحديث فالمباني السكنية كتل إسمنتية ذات طابع يوغسلافي قديم، بجوار عمارات حديثة ترتفع بسرعة مع واجهات زجاجية. الطرق والشوارع بعضها واسع ومستقيم يعكس محاولات التخطيط الحديث، بينما لا تزال الأحياء الداخلية متعرجة، تعكس نموًا عشوائيًا في فترات الاضطراب. المقاهي الحديثة، المنتشرة في كل زاوية، كانت أكثر ما لفت انتباهنا. فقد بدت العاصمة وكأنها تعيش على إيقاع جيل شاب، يملأ الساحات بضحكاته وأصواته، أكثر من كونها مدينة عريقة تفرض هيبتها على زائرها. بريشتينا بهذا المعنى مدينة **قيد التشكل** :لا تزال تبحث عن ملامحها بين رموز التاريخ ورغبة الانفتاح على أوروبا. لم نجد فيها الطابع الجمالي الكامل للمدن القديمة، لكنها حملت حيوية استثنائية، وكأنها تعلن أن المستقبل أهم من الماضي.

بعد أن أمضينا ليلتنا في **بريشتينا** وتجولنا في شوارعها، استعددنا للرحيل من كوسوفو. عبرنا الطريق الشمالي باتجاه الحدود مع **صربيا**، والجبال ترافقنا في مسار طويل يختزن الكثير من التاريخ المتقلب لهذه المنطقة. عند المعبر الحدودي توقعنا أن الانتقال هذه المرة أثقل من غيره فالعلاقة بين كوسوفو وصربيا ما زالت معقدة، والجغرافيا هنا تحمل ندوب الماضي القريب. ومع ذلك، مررنا بسلاسة، لنجد أنفسنا في الأراضي الصربية.

مساء توقفنا للمبيت في مدينة حدودية. كانت المدينة هادئة، يغلب عليها الطابع الريفي، وشوارعها القليلة الحركة بدت كاستراحة طبيعية للمسافرين بين البلقان. قضينا ليلتنا هناك نستعيد أنفاسنا بعد مسافة طويلة من السفر، استعدادًا لمواصلة الطريق في اليوم التالي نحو **سراييفو**. كان ذلك اليوم بمثابة جسر بين عالمين: من عاصمة وليدة في كوسوفو، تحاول أن تبني لنفسها هوية جديدة، إلى مدينة صربية **صغيرة** تعكس طابع الاستقرار التقليدي. بينهما شعرنا أن البلقان لا يزال كتابًا مفتوحًا على تناقضاته مدن تبني حاضرها بسرعة، وأخرى تتمسك بهدوئها وكأنها خارج الزمن.

عند الاقتراب من الحدود، ازداد الطريق وعورة والتفّ بين الجبال في مناظر خلابة لكنها قاسية في الوقت نفسه. معبر الحدود بدا متواضعًا، محاطًا بتلال خضراء، وكأن الطبيعة تتعمد تذكير المسافر بأن هذه الحدود من صنع البشر فقط.

بمجرد دخولنا الأراضي الصربية، بدأ المشهد يتغير تدريجيًا: القرى أكبر، والطرق أكثر تنظيمًا، إلى أن ظهرت لنا من بعيد نوفي بازار

مع حلول المساء وصلنا إلى نوفي بازار (Novi Pazar)، المدينة الصربية التي تحمل طابعًا مختلفًا عن بقية المدن. مبانيها وأسواقها القديمة كشفت سريعًا عن أثر العهد العثماني، فيما المآذن التي تعلو بعض المساجد جعلتنا

نشعر أننا في مدينة شرقية أكثر منها أوروبية. هذا المزج بين صربيا العميقة والهوية الإسلامية جعل من نوفي بازار محطة فريدة في رحلتنا.

قضينا ليلتنا هناك، في فندق صغير وسط المدينة، وخرجنا لنتجول قليلًا في شوارعها. الأسواق لم تكن صاخبة، لكنها نابضة بالحياة المحلية: متاجر بسيطة، مقاهٍ شعبية، وشباب يجلسون على الأرصفة يتبادلون الأحاديث. كانت المدينة تبدو كأنها تقف على مفترق هويات: أوروبية في موقعها، عثمانية في ذاكرتها، وبلقانية في حاضرها.

في صباح اليوم التالي، واصلنا الطريق متجهين إلى **سراييفو** .العودة إليها بعد كل هذه الرحلة بين جورجيا ومونتينيجرو وألبانيا ومقدونيا وكوسوفو وصربيا، بدت كإغلاق دائرة طويلة. ومع أن المسافة لم تكن بعيدة، إلا أن التجربة التي عشناها في مدن البلقان جعلت العودة إلى سراييفو أشبه بعودة إلى نقطة الانطلاق، لكن بذاكرة أغنى وتجربة أعمق.

جبال البوسنة والهرسك بدأت تستقبلنا بمناظرها الشاهقة وغاباتها الكثيفة. كل منعطف فتح أمامنا واديًا جديدًا أو نهرًا يجري بين الصخور. مررنا بقرى صغيرة متناثرة على ضفاف الطرق، ببيوتها البسيطة التي بدت كأنها تتشبث بالتلال. الطبيعة هنا كانت أكثر قسوة وأشد جمالًا: غابات تمتد بلا نهاية، وأنهار لا تفارقك طوال الطريق، حتى شعرت أن هذه البلاد نُسجت من الماء والخضرة. الطريق كان طويلًا لكنه مدهش، ومع اقترابنا

من سراييفو، عصرا بدأت مآذنها تلوح في الأفق، محاطة بالجبال من كل الجهات. الدخول إلى العاصمة مجددًا كان أشبه بعودة إلى نقطة البداية، لكن بذاكرة ممتلئة وصور لا تحصى من مدن البلقان.

مع شروق شمس سراييفو الأخيرة، كان علينا أن نطوي صفحة من صفحات السفر. رحلة البلقان التي جمعتني بصديقي **شاكر** وصديقي **إحسان**، عبر مدن وجبال ووديان وأسواق، بلغت نهايتها وفي صباح اليوم التالي، توجه كل واحد منا إلى وجهته. كان الوداع مؤثرًا، لكنه حمل طابعًا طبيعيًا فكل رحلة مشتركة لا بد أن تصل إلى لحظة تفرّق، لتبقى الذكريات وحدها الرابط الأقوى بين الرفاق.

بعد خمسة أسابيع من الترحال بين مدن البلقان العريقة شعرت بمزيج من الرضا والتعب والحنين. كانت رحلة غنية بالذكريات من سراييفو وذاكرتها المثقلة بالحرب، إلى كوتور المحصنة بالبحر والجبل، وتيرانا التي خرجت من عزلتها، وسكوبيا المليئة بالتماثيل، وبريشتينا الوليدة، ومرورنا بـ نوفي بازار الصربية. لكن مهما امتلأت الرحلة بالمشاهد والتجارب، يبقى في القلب حنين لا يهدأ العودة إلى وطني الجديد كندا، إلى تورونتو، وإلى عائلتي .هناك، حيث استقر بي المقام منذ عقود، شعرت أن السفر مهما طال يبقى عابرًا، بينما البيت هو الملاذ الأخير.

لكن هذه الرحلة لم تكن مجرد انتقال بين مطارات ومدن وحدود، بل كانت رحلة داخلية أيضًا. ففي كل مدينة وجدت مرآة تعكس شيئًا مني: في سراييفو رأيت قدرة الشعوب على الصمود رغم الجراح، وفي كوتور أدركت جمال المدن المحصنة بين البحر والجبل، وفي تيرانا عرفت كيف يمكن لأمة أن تتحرر من الخوف لتكتب حاضرها الجديد، وفي بريشتينا لمست عن قرب ولادة هوية جديدة تذكرني بأن المدن لا تُقاس فقط بمعالمها أيضًا. كل رحلة تضيف طبقة جديدة إلى الذاكرة، وكل مدينة تزورنا مرتين: مرة حين نمشي في شوارعها، ومرة حين نستعيدها في خواطرنا.

مدن في الذاكرة

لم تكن رحلاتي دائمًا إقامات طويلة أو فصولًا ممتدة ففي مسيرتي عبر السنين، زرت مدنًا كثيرة بمناسبات مختلفة ولأيام أو أسابيع معدودة، لكنها بقيت في الذاكرة كبريق عابر يضيء لحظة ثم يخفت، تاركة بصمة خاصة في داخلي

توقفت في **صنعاء** عام ١٩٩٧لمدة يومين وأنا في طريقي إلى جيبوتي. كانت المدينة أشبه بلوحة تراثية: بيوتها الطينية المزينة بالنقوش البيضاء، وأزقتها الضيقة التي تفوح منها رائحة البهارات. في هذه الزيارة القصيرة، لمست شيئًا من أصالة اليمن، وكأن صنعاء كانت متحفًا حيًا للتاريخ العربي والإسلامي. واصلت رحلتي إلى جيبوتي حيث بقيت ثلاثة أيام في إطار زيارة عمل هندسية. بدت العاصمة صغيرة الحجم، لكنها ذات موقع استراتيجي بالغ الأهمية على البحر الأحمر. كان فيها شيء من البساطة والعزلة، لكنها في الوقت ذاته مركز عبور عالمي.

زرت كذلك ولمرات متعددة عددًا من عواصم الخليج :الدوحة، المنامة، الكويت، ومسقط .وقد لفتني فيها جميعًا الطابع العمراني الحديث الذي يذكّر بالمدن الأوروبية المعاصرة: شوارع واسعة، أبراج شاهقة، بنية تحتية متطورة، وأحياء منظمة تتيح حياة مدينيه متقدمة. كانت هذه العواصم بالفعل **جميلة وعملية**، تعكس الطموح والرغبة في اللحاق بركب التحديث

السريع. ومع ذلك، شعرت في داخلي أن هذا التحول العمراني، رغم روعته، جعل هذه المدن تبتعد قليلًا عن أصلها الشرقي عن تلك الروح التي كانت يومًا تنبض في الأسواق القديمة، والمجالس الشعبية، والبيوت ذات الأفنية المفتوحة. ربما كان ذلك إحساسًا شخصيًا أكثر منه ملاحظة نقدية، لكنه جعلني أتأمل كيف أن التحديث السريع قد يُكسب المدن وجهًا جديدًا، وفي الوقت نفسه يُخفي بعض ملامحها التقليدية.

في خريف عام 2004، وبدعوة رسمية من محافظ القاهرة الدكتور عبد العظيم وزير، قمتُ بزيارة إلى العاصمة المصرية امتدّت من الخامس والعشرين حتى الثامن والعشرين من تشرين الأول، للاطلاع على المشروعات التي يمكن



الاستفادة من خبرتها في بغداد.وقد أجريتُ خلال الزيارة سلسلة من اللقاءات المثمرة مع محافظ القاهرة ووزير الإسكان ووزير البيئة، حيث اطّلع الوفد العراقي على مشاريع الصرف الصحي ومشروعات المياه في المحافظة، إضافة إلى مشاريع التخلص من النفايات وتصنيع الأسمدة، ومشروعات النقل الحضري ومترو الأنفاق، وغيرها من البرامج الحيوية.وفي نهاية الزيارة التقيتُ برئيس الوزراء المصري الدكتور أحمد

نظيف، الذي أبدى استعداد حكومته للتعاون في مجال تدريب الكوادر



العراقية العاملة في الإدارة والخدمات والنقل والمواصلات. في خطوة هدفت إلى بناء جسور تعاون مهني مع المؤسسات المصرية في مجالات الخدمات الحضرية والبنية التحتية.

كانت الشمس تنسكب كعسل ذهبي فوق قمم الأهرامات حين وقفنا -أنا وزوجتي وولدي- أمام أعجوبة خوفو، كأننا ننظر إلى مرآة الزمن. راح الصغير يعدّ الحجارة الضخمة بأصابعه، بينما همست زوجتي: "هل تخيل الفراعنة أننا سنأتي يومًا لنلتقط الصور أمام قبورهم كما لو كانت ديزني لاند؟". ضحكنا، لكن صوت الجمال الذي كان يئن تحت أعباء السائحين ذكّرنا بأننا في مكان لا يزال يحمل شيئًا من القداسة .

لم تكن الأهرامات مجرد ثلاثية هندسية، بل كانت قصيدة رملية كتبتها أيادي العمال قبل آلاف السنين. اقترب ولدي من أبو الهول، ونظر إلى أنفه المكسور بسذاجة الطفل: "من ضربه؟". قلت له: "الزمن.. والغزاة..

والنسيان". في المتحف المصري، تحولت الزيارة إلى رحلة في كتاب أسطوري. وقفنا أمام قناع توت عنخ آمون، وكأن الذهب ينبض بالحياة. زوجتي لمست زجاج العرض وقالت: "انظروا! حتى الموتى هنا يلبسون مجوهرات!"، بينما راح ولدي يقلد وضعية المومياوات، فجذبناه خوفًا من لعنة فرعونية !

في قلعة صلاح الدين، شعرنا كأننا داخل مخطوطة مذهبة. مسجد محمد علي بتلابيبه الفضية كان يحاكي السماء، حتى أن ولدي سأل: "هل يصعدون إلى القمر من هذه المآذن؟". في شارع المعز، تماهينا بين الأروقة كشخصيات من حكايات "الحرافيش". رائحة البخور تملأ الهواء، وأصوات الباعة تتداخل مع أذان المغرب. وقفنا عند بيت السحيمي، حيث النوافذ الخشبية تروي حكايات العاشقين الذين تبادلوا الرسائل خلف قضبانها. في خان الخليلي، اشترينا فانوسًا نحاسيًا، وقلت لزوجتي: "هذا لن يضيء البيت، لكنه سيضيئ ذاكرتنا ."



على قمة برج القاهرة، نظرنا إلى المدينة وهي تتنفس تحتنا. زوجتي قالت: "تبدو كوحش عملاق يغط في نوم مضطرب". في ميدان التحرير، حاولت أن أشرح لولدي أن هذه البقعة من الأسفلت شهدت ثورات، لكنه كان منشغلاً بملاحقة حمامة. في المساء، ركبنا فلوكة على النيل. كانت المياه تعكس أنوار الفنادق كأنها تذكّرنا: "أنا النيل.. شاهدت كل شيء.. وسأبقى هنا عندما تذهبون ."قبل المغادرة، وقفنا عند نافذة الفندق ننظر إلى القاهرة وهي تلبس ثوب الليل. قلت لعائلتي: "هذه المدينة كالزمن نفسه.. تأكل تاريخها كي تبقى حية". ضحكوا، لكني رأيت في عيونهم ذلك السحر الغامض الذي لا يختفي. ربما لن نعود، لكن القاهرة - بكل تناقضاتها - ستظل تعيش فينا كذكرى لا تشيخ، كحلمٍ فرعوني عن الخلود.

في عام ٢٠١٢ زرت **الرياض** عاصمة المملكة العربية السعودية في إطار زيارة عمل استمرت يومين. ما شدّني في المدينة هو اتساع شوارعها وتخطيطها العمراني الذي يعكس ثقلها كعاصمة لدولة محورية في المنطقة. لم تكن زيارة سياحية بقدر ما كانت محطة عملية، لكنها تركت لدي انطباعًا عن مدينة تتحرك بخطى واثقة نحو التوسع والتحديث.

مدريد، لشبونة، برلين، فرانكفورت، روما، فينيسيا، وبلغراد، مدن أوروبية كبرى زرتها سريعًا ولمرات متعددة لكنها تركت أثرًا عبر معالمها التاريخية وأسواقها الشعبية. كما زرت غدانسك البولندية على ساحل البلطيق،

وبوردو الفرنسية، وماربيلا مع الساحل الإسباني القريب، وجبل طارق حيث يلتقي المتوسط بالمحيط.

في عام ٢٠٠٥ زرت طهران بدعوة رسمية من رئيس بلديتها آنذاك محمود أحمدي نجاد، الذي أصبح لاحقًا رئيس الجمهورية الإيرانية. استمرت الزيارة ثلاثة أيام، وهي المرة الوحيدة التي زرت فيها إيران. ما شدّني في العاصمة الإيرانية كان حيويتها العمرانية واتساع شوارعها، إضافة إلى تنظيم جولات لعدد من معالمها البارزة، ومن بينها **برج طهران** الذي كان في مراحله النهائية من الإنشاء. تركت المدينة في نفسي انطباعًا قويًا كعاصمة تجمع بين الثقل السياسي والإرث الحضاري والحيوية المعاصرة.



زرت أيضًا مدنًا آسيوية، منها بانكوك عاصمة تايلاند، عام 2002 التي زرتها مع عائلتي لمدة أسبوع كامل. تجولنا في أهم معالمها الحديثة، كما زرنا أحد المعابد



البوذية الشهيرة، فكانت الرحلة مزيجًا من السياحة العائلية والاكتشاف الثقافي.

كذلك زرت Taipei عاصمة تايوان، وسنغافورة، وكوالالمبور عاصمة ماليزيا، وكلها مدن نابضة بالحياة، تُجسد صورة آسيا الحديثة التي تحتضن التكنولوجيا والاقتصاد مع بقاء شيء من ملامحها التقليدية.

كذلك زرت مرات متعددة مدن وعواصم أوروبية مدريد، لشبونة، برلين، فرانكفورت، روما، فينيسيا، وبلغراد، مدن أوروبية كبرى زرتها سريعًا لكنها تركت أثرًا عبر معالمها التاريخية وأسواقها الشعبية. كما زرت غدانسك البولندية على ساحل البلطيق، وبوردو الفرنسية، وماربيلا مع الساحل الإسباني القريب، وجبل طارق حيث يلتقي المتوسط بالمحيط.

زيارة جبل طارق – بين البحر والسماء. كانت زيارتنا إلى **جبل طارق** رحلة قصيرة، ولكنها آسرة، قمتُ بها مع زوجتي **لمياء** في أحد أيام الصيف المشرقة. هبطت الطائرة أولاً في **مطار مالقة** على الساحل الإسباني

الجنوبي، حيث يلتقي دفء الأندلس برائحة البحر المتوسط. من هناك بدأنا الرحلة براً نحو الجنوب، عبر طرق متعرجة تطلّ على التلال الخضراء، حتى لاحت أمامنا صخرة جبل طارق المهيبة، شامخة كحارسٍ عند بوابة المحيط. عند الوصول، شعرنا أننا في مكان يجمع بين قارتين وثقافتين؛ فالعربية والأوروبية تمتزجان في الأزقة والمقاهي، والناس يتحدثون بلغتين ويتحركون بخفة بين الشرق والغرب. صعدنا إلى قمة الجبل بالحافلة الصغيرة، وهناك وقفنا نطلّ على **مضيق جبل طارق**، حيث تتعانق مياه المتوسط والمحيط الأطلسي، وتبدو سواحل المغرب البعيدة كخيطٍ أزرق يلوّح لنا من الأفق. كانت تلك اللحظة من أجمل ما رسخ في الذاكرة: الريح المندفعة من البحر، وضوء الغروب الذي يغمر المكان بوهجٍ ذهبي، وابتسامة لمياء وهي تلتقط صورة عند الحافة المطلة على المضيق. جبل طارق لم يكن مجرد موقع جغرافي بالنسبة لي، بل نقطة التقاء بين التاريخ والإنسان، بين الرحلات القديمة والذاكرة التي لا تنطفئ.

مدن الشرق القريب

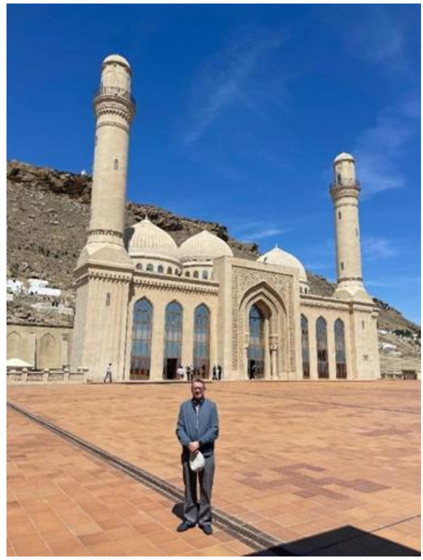
في أب/ أغسطس 2004 زرتُ طهران بدعوة رسمية، حيث التقيتُ بأمين العاصمة د. محمود أحمدي. تناول اللقاء آفاق التعاون بين بغداد وطهران في مجالات الإدارة الحضرية، وقد أكّدتُ أن هذا التعاون يمكن أن يكون نموذجًا لباقي الدول الإسلامية. كما أعرب الدكتور محمود أحمدي نجاد

عن أسفه للمشاكل التي يواجهها الشعب العراقي، قائلا "كانت مدينة بغداد من أفضل وأجمل المدن في العالم ونأمل أن تصبح بجهود أبناء وبلدية بغداد مدينة مزدهرة ومتطورة مرة أخرى". وأكد ان بلدية طهران جاهزة في جميع المجالات، بما في ذلك المرافق والتكنولوجيا والموارد البشرية والخبراء لتتعاون مع أمانة بغداد.

في عام ٢٠٢٤، زرت باكو عاصمة أذربيجان برفقة صديقي فريد تعود جذور باكو إلى أكثر من ألفي عام، ويُعتقد أن اسمها مشتق من الفارسية بمعنى *"مدينة الرياح".* كانت موقعًا استراتيجيًا على طريق الحرير القديم، ما جعلها مركزًا تجاريًا مهمًا. في القرن التاسع عشر، اكتُشف النفط بكميات هائلة في باكو، مما جعلها أحد أكبر مراكز إنتاج النفط في



العالم آنذاك. هذا الثراء جذب معماريين من روسيا وأوروبا فظهرت أنماط معمارية أوروبية مميزة. بعد استقلال أذربيجان عام 1991، شهدت باكو نهضة عمرانية هائلة جعلتها مدينة حديثة تجمع بين التراث والحداثة.



.كانت المدينة مزيجًا فريدًا بين الماضي والحاضر: تنظيم عمراني حديث وأسواق نظيفة ومنسقة، تقابلها روح قوقازية عريقة في شوارعها القديمة .القلب التاريخي لباكو، محاط بأسوار حجرية تعود إلى العصور الوسطى. تحتوي على أزقة ضيقة ومنازل تقليدية من الحجر الكلسي، ومسجد الجمعة، وبرج العذراء الذي يُعد من رموز المدينة.

ما أدهشني هو المبنى الذي صمّمته المعمارية العراقية زها حديد، مركز حيدر علييف (Heydar Aliyev Center) – بواجهاته المنحنية التي بدت كأنها أمواج متجمدة في الهواء، تجسيدًا للعمارة كفن لا كوظيفة فقط. يتميز بانسيابية خطوطه التي تعكس روح الحداثة والابتكار.

وفي المقابل، زرنا موقعًا دينيًا مهمًا بالقرب من المدينة يحتوي على مرقد السيّدة حكيمة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام)ويُعرف محلياً باسم "بيبي هيبت. هدمه السوفييت عام 1936 ضمن حملات هدم المعالم الدينية، ثم أُعيد بناؤه عام 1998م بتصميم معماري إسلامي

جميل. حيث امتزج البعد الروحي بجلال المكان. كانت باكو بالنسبة لي مدينة تعكس التناقض الخلّاق: حداثة عالمية من جهة، وذاكرة دينية وتاريخية من جهة أخرى .

مدن تنتظرني

رغم أنني زرت عشرات المدن حول العالم، ما بين إقامة طويلة أو مرور عابر، فإن في داخلي شغفًا لا يزال حيًّا لمدن لم أزورها بعد. فما دام الله قد مدّ في عمري ومنحني الصحة، فإنني أضع في ذهني قائمة لأماكن أرجو أن أزورها في الأعوام القادمة. في إفريقيا، يحدوني الأمل أن أصل إلى كيب تاون في جنوب إفريقيا، المدينة التي تجمع بين سحر الطبيعة والبحر والجبل، وبين حكايات النضال الإنساني ضد التمييز. وفي جنوب آسيا، أتطلع لزيارة الهند وباكستان، بمدنهما العريقة وتاريخهما العميق، حيث تتجاور حضارات تمتد لآلاف السنين. وفي آسيا الوسطى، أرغب بزيارة طاجكستان وأوزبكستان وما حولهما من جمهوريات إسلامية كانت يومًا جزءًا من الاتحاد السوفيتي، حيث يلتقي الإرث الإسلامي بالتراث السوفيتي في فسيفساء فريدة. كما أخطط برحلة إلى أستراليا وإندونيسيا وفيجي، لأرى عن قرب عوالم المحيط الهادئ وجنوب شرق آسيا بجزرها وشعوبها المتنوعة. ولا أنسى رغبتي في الوصول إلى ألاسكا، تلك الأرض البعيدة التي تلتقي فيها الجبال بالثلوج والبحر في مشهد يختصر عظمة الطبيعة. هذه المدن بالنسبة لي ليست مجرد أماكن على الخريطة، بل هي أفق مفتوح، ورسالة بأن الإنسان يظل ما دام حيًّا قادرًا على اكتشاف جديد، وتوسيع ذاكرته، وإضافة فصل آخر إلى كتاب رحلاته. كل مدينة مررتُ بها تركت في قلبي حجرًا من حجارتها، ورائحة من أزقتها، وصوتًا

من ناسها. المدن ليست مجرد جغرافيا، إنها مرايا للذاكرة، ورفقاء في رحلة العمر. كتبتُ عنها لا لأحكي تاريخها وحده، بل لأرسم كيف صنعتني وصرتُ جزءًا منها. بغداد، باريس، عمان، أبو ظبي، أوكلاند، تورونتو، ... مدن لم تكن محطات عابرة، بل صفحات من كتابي الداخلي. ومع ذلك، تبقى مدن أخرى في الانتظار، تلوّح لي من بعيد وتدعوني إلى لقاء قادم. وهكذا، ما بين الذاكرة والانتظار، تتواصل الرحلة. فالمدن لا تنتهي حين نغادرها، بل تظل تعيش فينا، تُعيد تشكيلنا كل مرة نتذكرها أو نكتب عنها. هذا الكتاب ليس سوى محاولة لالتقاط بعضٍ من تلك اللحظات، وبعضٍ من ذلك الأثر. وما دام القلب قادرًا على الحنين، ستظل المدن تصنعنا... ونصنع منها ذكريات جديدة.

حين نتأمل معنى الرحلة، نكتشف أنها لم تكن يوماً مجرد انتقالٍ بين حدودٍ وجغرافيا، بل كانت دائماً تجربةً إنسانية تصوغ الروح كما ترسم الذاكرة. في كل مدينةٍ وطأتها قدماي، وجدت أن المكان ليس مجرد خلفية صامتة، بل كائن حيّ يترك أثره العميق: في تفاصيل العمران، في وجوه الناس، في نبض الشوارع ورائحة الأزقة. كنت أرى الرحلة مرآةً مزدوجة؛ تعكس صورة الآخر كما تكشف لي صورتي أنا. فما يرويه المكان عن نفسه، يفتح باباً لفهم ذاتي، وما أكتبه عنه يصبح وثيقةً صغيرة تحفظ لحظةً عابرة من الزمن قد لا تتكرر.

من هنا جاءت رغبتي في أن أكتب مدن وذكريات. لم أرد أن أقدّم دليلاً للسفر أو سرداً عابراً، بل أن أترك شهادةً شخصية تجمع بين المعرفة والحنين، بين الخاص والعام. أردت أن أُمسك بخيط التجربة: كيف تتحول المدينة التي نزورها إلى فصلٍ من حياتنا، وكيف يغدو الطريق الذي نخطو خارطةً للذاكرة. هذا الكتاب هو محاولة لربط الأمكنة بالوجدان، والتاريخ بالإنسان، بحيث تصبح كل مدينة قصةً، وكل ذكرى شاهداً على أن الرحلة الحقيقية لا تنتهي عند حدود المكان، بل تستمر في داخلنا. الرحلة ليست مجرد انتقالٍ من مكان إلى آخر، ولا هي خريطة تُسجَّل على الورق فحسب. إنها تجربة حيّة، تمتزج فيها دهشة الاكتشاف بعمق التأمل، وتتعانق فيها تفاصيل المدن مع انفعالات القلب. منذ القدم، كانت الرحلات مدوَّنةً تحفظ للإنسان ما رآه وما شعر به، توثّق المدن والناس والعادات، وتقدّم صورة عن الآخر كما تُظهر انعكاس الذات في مرآته.

لقد شكّل هذا اللون من الكتابة جسراً بين الحضارات، نقل صوراً وأصواتاً وحكاياتٍ ربما لم يبقَ منها إلا ما خطّه قلم رحالةٍ مرّ من هناك. فهو أدبٌ لا يقف عند حدود الوصف، بل يتجاوزها ليصبح وثيقةً تاريخية، وشهادةً على الزمان والمكان، وسيرةً غير مكتملة للكاتب نفسه. في كل رحلة، المكان هو البطل الحقيقي، يطلّ بملامحه، بأزقته وشوارعه وروائحه، ويترك أثره في النص وفي الذاكرة معاً. من هذا الوعي تولدت رغبتي في أن أدوّن مدن وذكريات. لم يكن هدفي أن أقدّم دليلاً جغرافياً أو وصفاً

سياحياً، بل أن أترك أثراً يربط بين المدن التي عرفتها والذكريات التي صنعتني. أردت أن يكون الكتاب شهادة إنسانية، تجمع بين الحنين والمعرفة، بين الخاص والعام، بين التجربة الفردية وإيقاع التاريخ. فكل مدينة مررتُ بها لم تكن مجرد محطة سفر، بل فصلٌ من سيرة حياتي، وجزءٌ من صورة أوسع للعالم الذي نحيا فيه.

عندما بدأتُ تدوين هذه الصفحات، لم أكن أسعى إلى كتابة سجلٍّ للمدن بقدر ما كنت أبحث عن أثرها في داخلي. فالأمكنة التي مررتُ بها لم تبقَ مجرد جغرافيا على الخريطة، بل تحوّلت إلى مرافئ للذاكرة، وإلى أصواتٍ وصورٍ ما زالت تعيش في القلب. لقد علّمتني الرحلة أن المدن، مهما تباعدت وتباينت، تشترك في خيطٍ خفيٍّ يجمعها: الإنسان. ذلك الوجه العابر في محطة قطار، أو البائع الذي يبتسم في سوقٍ شعبي، أو صديقٌ رافقني في طريقٍ طويل هم الذين منحوا للرحلات معناها العميق، وجعلوا الذكريات أكثر دفئاً من الحجارة والطرقات.

إن مدن وذكريات ليس نهاية الطريق، بل محطة من محطات السرد، وحلقة في سلسلة حياةٍ ما زالت تمضي. فما دمتُ قادراً على أن أمشي وأتأمل وأكتب، ستظل المدن تفتح أبوابها لذكرياتي، وسيظل القلم يبحث عن لغةٍ تحفظ ما لا يليق أن يُترك للنسيان. عندما يطوي القارئ هذه الصفحات، لا يجد أمامه مجرد حكايات عن مدن بعيدة أو انطباعات عن شوارع ومقاهٍ

وأبنية، بل يجد خيطًا ممتدًا واحدًا: رحلة عمر. لقد كانت المدن مرايا تعكسني بقدر ما كنت أستكشفها. في باريس تعلّمت الانضباط واحترام الوقت، في بغداد اختبرت معنى المسؤولية والكرامة في زمن العواصف، في سراييفو والبلقان وقفت أمام جراح التاريخ، وفي مدن المتوسط والغرب حملت معي أسئلة الهوية والانتماء.

لم تكن الرحلة انتقالًا بين جغرافيا وأخرى، بل كانت سفرًا متواصلًا بين طبقات العمر. كل مدينة تركت أثرًا في قلبي وعقلي، وصارت جزءًا من فسيفساء حياتي. وها أنا أكتشف أن مدن وذكريات لم يكن كتابًا عن الأمكنة بقدر ما هو كتاب عن الإنسان في رحلته الكبرى: كيف يبني ذاته بين الأمس واليوم، بين الوطن والمنفى، بين الذكرى والحنين رحلة العمر لا تنتهي بخاتمة كتاب، بل تستمر ما دامت الذاكرة قادرة على أن تفتح بابًا آخر، أو تستدعي صورة جديدة من مكان بعيد. وإذا كانت الكلمات جواز سفر جديدًا، فليكن هذا الكتاب تذكرةً مفتوحة للقارئ، ليرى في المدن التي مررتُ بها شيئًا من نفسه، وليكتشف في ذكرياتي صدى لذكرياته هو أيضًا. أغلق هذه الصفحات، وأنا أعلم أن المدن التي سكنتني ستظل تهمس في داخلي، وأن الذكريات، مهما ابتعدت، تبقى أوفى من الزمن.